نرد بلا أرقام..

سماح حافظ

إهداء

إلـــى أصـــحاب القلـــوب النقيـــة، الرائعـــون الـــذين يلتحفـــون الحـــب ويتوســـدون الصـــدق، ويحلمـــون بالورود..

الفصل الأول

كنا أنا وهي في تلك المساحة الكبيرة البيضاء، لم يكن حولنا شيء..

مازلنا باهتين؛ لا لون ولا ملامح، لم أرها في البداية، كانت على بعد خطوة مني ومسافة ضوء. في اليوم التالي بدأت التفاصيل.. سماء زرقاء وحدود لأجسادنا وتعاريج وثنيات الملابس والوجوه تشكلت ورأيتها..

كانت هي بكل تلك التفاصيل الجميلة. اتساع العينين وقرنيتهما السوداء، وذاك الأنف المستقيم المنساب برشاقة حتى يصل إلى هذا الارتفاع الطفيف في رأس الأرنبة

"ربما هذا الارتفاع هو ما يمنحك هذا التعالي والغرور، ربما لو كان أقل ارتفاعا لأصبحتِ أكثر دفئا".

_ أنت أبله! ليس للأرنبة علاقة بثقتي بنفسي.

_ هل تعتبرين غرورك ثقة بالنفس؟

_ نعم

_ أظن أن اعتقادك هذا في حد ذاته غرور.

_ لا يهمني ما تقول. لست هنا بإرادتي أو لأسمعك.

_ هل تتمنين حقا أن نتوقف عن الالتقاء في مكان واحد؟!

_ بل أتمنى أن تتوقف عن أن تنظر لي تلك النظرة الوالهة.

_ ليس بيدي حيلة. أنا مثلك هنا دون اختيار، ولكني أحب أن أكون هنا ومعكِ. وأن أتحدث عن كل لقاء يجمعنا.

_ سئمت هذا. أريد أشياء أكثر اتساعا، تلك المساحة وهذا الحزن الذي يحيط بنا بات يخنقني.

_ كنتِ مرة وحدك في مرج كبير ملئ بالأزهار وسماء صافية، هل كنتِ سعيدة حينها؟

_ ...

_ لِمَ لا تجيبي؟! أشعر بخوفك من الإجابة.

_ لا أخاف.. ولكن أحاول أن أتذكر شعوري وقتها.

_ لا أظنه شعوراً جيدا. كنت أشعر بوحدتك رغم تلك الجنة التي حولك.

_ لا أدري لِمَ جعل ملامحي بهذا الحزن رغم البهجة التي كانت تضج حولي بالحياة!

_ ربما لأن هذه هي الحقيقة.

_ لا أنت ولا هو تعلمان الحقيقة

_ أنا هو.

_ بل أنت من صنع يديه، وهو لم يصنع نفسه. ربما لو كان يستطيع أن يرسم نفسه كما يرسمنا لأصبح أكثر سعادة.

_ أنا جزء منه.. جزء من روحه، وأنتِ كذلك؛ لهذا نشعر بكل ما يشعر به، ولهذا نحزن ونتألم مثله.

_ أنت تتألم؟!

_ نعم.. منذ أحببتك

_ لم أجبرك أن تفعل! كما أنني لا أريدك أن تفعل. الحب طوق وقيد وحدود للروح وغرق للقلب.

_ ليس كذلك إلا عندما يصبح العاشق مثلي والمعشوقة مثلك.

_ ماذا تقصد؟!

_ أقصد أن الحب لا يكون مثلما قلتِ إلا عندما يسير في اتجاه واحد فقط. يسير ثم لا يصل لشيء فيتوقف..

لأنه لم يجد ما يكمله، لم يمر في دائرة ككامل، هناك منطقة مظلمة ابتلعت التيار واضاعته، وتلك الفجوة المظلمة هي رفضك لي.

لو سار تيارك نحوي لصنعنا الدائرة الكاملة للحب ولأشتعل مصباح الحياة.

_ ربما هناك عطل!

_ أين؟!

_ هنا.. في رأسي

_ وماذا عن قلبك؟

_ ليس لي قلب. أنا مجرد امرأة على جدار لوحة زيتية.

_ لا لستِ كذلك. أنا هو العاشق لكِ المتيم بتفاصيلك ، وأنتِ هي إمرأة خيالي، ساكنة قلبي، ملهمة روحي..

_ توقف! ليس لك روح، لا تقنع نفسك بأنك هو.

هو من البشر؛ جسد وروح وعقل وأنت خطوط زيتية لجسد رجل بملامح ذاك الرسام. كما أنني مثلك خطوط زيتية لإمرأة يحبها هذا الرجل.

_ أنا وأنتِ انعكاسا لهما؛ نشعر بما يشعران به. في كل مرة يقوم برسمي يبثني فيها جزءا من روحه ونبضة من قلبه وأجنحة أفكاره. وفي لوحته الأخيرة هذه، أشعر بأنني اكتملت وامتزجت به واصبحت ظلا كاملا له وانعكاسا تاما لروحه.

_ ربما.. ولكني لست هي ولا أشعر مثلك

_ لأنه يرسمك كما يراها؛ بلا روح أو قلب. لم تشعري به أبدا، لم تتألمي مثلي، لم يذق قلبك حلاوة العشق ولكنه أذاقني مرارته.

_ تختلط عليك الأمور فتتكلم مرة عنه ومرة عنك! توقف عن هذا العبث.

_ لم تختلط لأننا امتزجنا قلت لكِ.

_ لا أفهم هذا ولا أريد.

_ ربما لو نظرتِ إلى عيني ستفهمين.

_ أنظر إليهما بالفعل. أنسيت أننا في وضع التقاء ونظراتنا تلتقي دوما في كل لوحة؟

_ نعم نظراتنا تتلاقى ولكنكِ لا ترينني! تقومين بدور الصورة كما ينبغي. فلا حس أو شعور أو حتى رؤية!

_ لم أدعي أنني أشعر، ودوري أقوم به دون إرادتي.

لسنا سوى ألوان في فرشاة، تعانق الورق فتنجب خيالا.

أنا وأنت وجودنا هش جدا ونهايته حتمية.

_ وما نهايته؟!

_ أن نبلى وألواننا تبهت ونتحلل وربما يتم اختصار هذا كله في نوبة غضب ويتم تمزيقنا وإلقائنا في الهواء.

_ توجد لوحات منذ مئات السنين مليئة بالشغف والحب ولم تُبلى بعد.

_ قلتُ " بعد " أجبت نفسك وكشفتها

_ كيف كشفتها؟!

_ كشفت فهمك لاستحالة أن نصبح خالدين، أن نكون سرمديين و أسطورة لا تُفنى.

_ هل سمعتِ عن قانون الطاقة؟

_ اسمع كل ما يدور داخل اللوحة وخارجها وفي حدود تلك الحجرة التي تحوينا.

_ حسنا. بالتأكيد سمعتِ صديقنا وهو يقرأ بصوت عالٍ عن الفيزياء والطاقة والكون والحياة مثلما سمعت أنا. وأن الطاقة لا تفنى، وكذلك الحب. فهو في حقيقته طاقة من نور تملأ الحياة بالشغف.

_ لا شأن لي بهذا كله، ما يهمني أنه يرسمني دائما حزينة بملامح قاسية.

_ لأنكِ كذلك.

_ أنت لا تختلف عني.

_ بل أختلف، فأنا أملك قلبا.

_ إن كنت تراني هكذا فلماذا تدعي أنك تحبني؟!

_ لا أدعي حبك. فهو ليس شيئاً أتظاهر به، هو يأتي من داخلي، لم أحبك حين رأيتك، بل لأني أحببتك رأيتك..

_ هذا عبث!

_ رفضك لي هو العبث.

_ هل ترى تلك المرأة التي لم تتوقف عن النظر إلينا منذ ظهرت ملامحنا؟

_ تقصدين في اللوحة التي بجوار الباب؟

_ نعم هي. يبدو أن ما نقوله لا يعجبها!

_ ربما تشعر بالوحدة.

_ كلنا هنا وحيدون..

_ ولكني أحب الوحدة معكِ.

هل تذكرين حين رسمني في العام الماضي أجلس وحيدا على طاولة وفي يدي كتاب وفي عيني دمعة؟

_ نعم رأيتك وتعجبت من حزنك وتمنيت أن أعرف أي كتاب تقرأ!

_ الآن تحدثينني كشخص حقيقي، بدأتِ تستوعبين فكرة أننا انعكاسا للحقيقة، وهذا جيد. كنت أقرأ في رواية مرتفعات ويذرنج وأفكر بكِ. بطلة الرواية "كاثرين" كانت تشبهك

_ إذاً احبها هي. فربما تشعر بحبك

_ ماتت في النهاية بعد أن ندمت على ضياع حبها.

_ كانت تحبه؟!

_ نعم. ولكنها كانت تظن أن هناك أشياء أخرى أهم من الحب.

_ وما الذي اكتشفته في النهاية ؟

_ أن الحب هو الحياة وبعده لا شيء يهم.

_ وهل كان هو يستحق أن تحبه؟

_ كل إنسان يحبنا بصدق يستحق أن نحبه.

_ القلوب غريبة.. لا أريد أن يكون لي قلبا. أنا حزينة بما يكفي بدونه، لا أحتاج لمزيد من الحزن.

_ ربما لو احببتني لسعدنا نحن الاثنين. في الفترة التي لم يكن يرسمنا فيها معا لا أظنك كنتِ سعيدة بدوني.

_ لماذا لم يجمعنا في تلك الفترة وطوال شهرين في مكان واحد؟!

_ كان يريد أن أنساكِ وأن ينساها.

_ لو أراد النسيان ما كان رسمني بالأساس. لم يتوقف عن رسمي وحيدة، لم يعجبني هذا.

_ هل اشتقتِ لوجودي وقتها؟

_ كرهت وحدتي. اخبرني! لماذا كان يستمر في رسمي وهو يريدك أن تنساني؟

_ لن تفهمي هذا حتى تشعري بالحب.

_ إذًا لن أفهم أبدا.

انظر.. المرأة لا زالت معنا، تسترق النظر وتنصت! إن كنت هو حقا اجعله يخرجها من الغرفة أو يمزقها أو حتى يعصب عينيها أو يجعلها عمياء لنرتاح من نظراتها .

_ ما الذي يخيفك منها؟ هي لا تستطيع الخروج من اللوحة كما لا نستطيع نحن.

_ نظراتها مخيفة كفاية، لا تحتاج للخروج لتخيفنا.

_ وماذا عن نظراتي؟

_ ليست مخيفة.

_ هذا يسعدني. ليتني استطيع الابتسام، لكنت عبرت عن سعادتي بإجابتك هذه.

_ اجعله يرسمك مبتسما مرة، أريد أن ارى ابتسامتك.

_ احبيني وسيتحول وجهي كله لابتسامة كبيرة.

_ تبا لك! توقف عن مراهقتك هذه. لا أعرف الحب يرسمني جسد أجوف لا يمنحني بعض روحه كما يفعل معك

_ لأنه غاضب منكِ ومنها.. منحناكما الحب ولم نجد منكما سوى التجاهل.

_ لا تقحم نفسك في عشقه أو قلبها، هي لا تعرف بكل هذا الحزن الذي تمتليء به تلك اللوحات وهذا الألم الذي يعيش معنا كل يوم.

_ هل تعتقدين لو أنها عرفت به سيتغير شيء؟

_ أنا لا أعرفها، لم تبثني جزءا من روحها لأفهمها كما فعل هو معك.

_ ربما لو رأتك لحدث هذا.

_ كيف؟!

_ هل تعرفين نظرة الشغف التي تتلألأ في عين بعض أولئك المهتمين بالأعمال الفنية عشاق الرسم عندما ينظرون إلى لوحة جميلة؟

_ نعم أعرفها.

_ هي ليست نظرات عادية كنظرات المرأة التي تخيفك، ولا كنظرات اللامباليين، هي نوع من التواصل، يتم من خلال قنوات غير مرئية، يتم منها بث طاقة الروح وشغفها. لو أتت أصلك ستنبهر بكِ كانعكاس لها وتبث جزءا من روحها فيكِ.

_ لا أريد هذا ولا أريدها أن تأتي .

_ ولِمَ ؟

_ ...

_ هل تخشين أن يصبح لديكِ قلب حينها ؟

_ تبا لك، كل شيء تحيله إليك ولحبك الغير مفهوم هذا!

_ حبك هو حياتي التي لا أملك غيرها.

الفصل الثاني

دخل رجل في نهاية الثلاثينات من عمره، شعره أسود كثيف تتناثر فيه شعيرات بيضاء في عبثية محببه.

طويل القامة له شارب رفيع وقصير تدور عيناه في توتر وكأنه يبحث عن شيء ما. يفتش في اللوحات المتناثرة هنا وهناك في غرفة الرسم، الغرفة تبدو في فوضى عارمة، لا ترتيب ولا نظافة، الجمال الوحيد الموجود في تلك الغرفة يتمثل في تلك اللوحات المتناثرة في كل ركن بإهمال.

في فترة سابقة من حياته كان نجمه يبزغ في الأفق كفنان يمتلك ريشة ساحر.. حتى أنهم أطلقوا عليه لقب الساحر.

يرسم كما يعزف " بوزانوف " بمهارة على أصابع البيانو فيخطف القلوب، وكما كان يصدح " بافاروتي" بصوته الرخيم الذي لم يأتِ الزمان بمثله، وترقص فرشاته على الورق كما رقصت وابدعت "مايا بليستسكايا" فأطاحت بالعقول. كان حقا ساحرا.. والناس تهوى السحر والسحرة.

ينجذبون إليهم ويُسحرون بهم دون طلسم أو تعويذة. وهكذا كانوا معه.. معجبون في كل مكان، حوارات صحفية، مقابلات وحفلات وتكريم، مال وخمر ونساء ولا اكتفاء . شخصية ذكية لبقة جذابة متقد الشباب كثير الغرور.

لا يجد شاب كل هذه الهالة حولة ولا يشتعل غرورا.

حتى رآها.. كانت تجلس على مقعد وثير في حفل السفارة الفرنسية بمدريد، كان هو أحد ضيوف الحفل.

لم تعتد عيناه البحث عن النساء، كان ينتظر قدومهن إليه. يحب أن يظهر بمظهر الفنان الكبير معشوق النساء وليس زير النساء المطارد لهن. من لوازم جاذبيته أن يكون هو هذا الرجل الوسيم الأنيق الثقيل في الملاحقة. حتى في علاقاته لم يكن هو الطرف الباحث والسائل والمراقب واللاهث. ومن يرهقها أسلوبه وتريد منه أكثر مما يمنحه فعليها الرحيل. هكذا ببساطة.. له حدود في المنح وألف طريق للمنع وتلك النرجسية كان لابد لها من أن تصطدم بنرجسية مماثلة لتبدأ تلك القشرة الرقيقة من شرنقة الغرور في التكسر ويخرج فرخ النسر هزيلا ضعيفا ويكتشف أنه لم يكن يوما نسرا.

نظر إليها وأنتظر أن تعرفه، لا أحد لا يعرفه.

لم يتوقع منذ وضع قدميه على قمة الشهرة أنه سيقابل من يجهله، بل وينظر له بلا اكتراث! لم تجذبها شهرته ولا جاذبيته ولا وسامته! لم يجذبها شيئا فيه وهذا أغاظه. نعم

أغاظه كطفل يأخذ منه طفل آخر لعبته، ولعبته كانت هي قدرته على الجذب وأن يكون هو الاهتمام وموضعه .

وكان عليه أن يستعيد مجده المهدور الذي اهدرته ببساطة في تلك النظرة اللامبالية الغير مكترثة.

_ مساء الخير.

رفعت رأسها ببطء، ونظرت إليه بتساؤل ولم ترد.

ابتلع أول اهانة في صبر وعزم على أن يردها لها فيما بعد .

_ عفوا يبدو أنني اضايقك.

فوجئ بها وهي تقول :

_ نعم.

لم يتوقع هذا الرد الجاف وهذا الصلف والغرور.

لا يصطك حجران صلدان بقوة إلا ويحدث بينهما شرر وتشتعل النار، وهذا هو ما حدث..

ولكن النار لم تشتعل بينهما، اشتعلت في قلبه فقط ، وفقد بوصلة الاتجاه فبدأ في التخبط في الطريق.

تركها واستدار، اتجه رأسا إلى باب الخروج

. شعر بنار في جوفه وكان لابد من بعض الهواء البارد قبل أن يذوب قهرا.

وقف بالخارج في الحديقة الملحقة بالقاعة المقام فيها الاحتفال أخذ نفسا عميقا وزفره بكل الضيق الذي يعتمل في صدره

ونظر إلى السماء وكأنه يبحث فيها عن ثقب أسود ليبتلعه داخلها وينسى تلك اللحظة الحرجة الجارحة لكبريائه.

ولكنه لم يجد في السماء ثقبا، بل جاءه من جانبه صوت.

كان صوتا هامسا كعزف الناي في ليلة حزينة:

_ جئت لأعتذر. أشعر بأنني قد أسأت إليك

التفت إلى مصدر الصوت ! وكانت هي..

أميرة الغموض وجارحة الكبرياء وطاغية الحضور

_ عفوا! ولكن لِمَ تصرفتِ بتلك الطريقة ؟

هزت كتفيها ببساطة وقالت :

_ لأنك تستحق هذا.

نظر إليها بدهشة وتساؤل وقبل أن يسأل جاءه ردها:

_ الجزاء من جنس العمل، لهذا لم استطع أن أمنع نفسي من أن أرد لك احراجك لي في موقف سابق.

رفع حاجبيه بدهشة وهو يتأمل ملامحها ويحاول أن يتذكر متى رآها وما الذي فعله معها!

ابتسمت بهدوء وقالت :

_ أعلم أنك لا تتذكر. لست سوى معجبة بفنك أرادت توقيعك عندما رأتك تجلس مرة وحيدا في مطعم أسادور ولكنك قلت أنك مشغول الآن دون أن تنظر إليها أو تعتذر عن وقاحتك .

قال بغضب:

_ وقاحتي؟!

قالت بهدوء وقد تجاهلت تماما ملامح الغضب التي بدأت في الظهور عليه:

_ نعم وقاحتك . لا أرى لها اسما آخر. أن تكون فنانا وشهيرا لا يعطيك الحق في أن تتعامل بهذا الكِبر.

ثم أردفت بتحدي وعيناها في عينيه:

_ ولا تنسَ أننا من أعطيناك شهرتك وقيمتك، ما قيمة أي فنان أو مُبدع دون شهود على ابداعه ومعجبين بفنه؟

كانت عيناها تدور وتتسع وتجذبه داخلها.. عثر على الثقب الأسود الذي بحث عنه ولكنه لم يكن في السماء بل في عينيها وسط كوكب أبيض جميل وعالم كامل من السحر..

تمالك نفسه بآخر قدرة له على الثبات:

_ أنا أستمد قيمتي من فني وليس من أحد، استطيع أن أرسم لنفسي فقط فلا حاجة بي لشهود على موهبتي فأنا أعرفها.

ابتسمت هازئة:

_ أتحداك أن تفعل.

_ أن أفعل ماذا؟!

_ أن تبتعد عن معجبيك وتتنازل عن شهرتك وترسم لنفسك فقط. لن تكون سعيدا ومغرورا كما أنت الآن، نحن من نعطيك قيمتك، لا تنسَ هذا أبدا.

_ تكررينها مرة أخرى!

_ نعم لأنها حقيقة.

_ لو أنا لست بارعا وموهوبا هل تستطيعون حينها أن تمنحونني شيئا؟

_ نعم نستطيع.

عقد ذراعيه على صدره وقال لها بتحدي:

_ وكيف يكون ذلك؟

_ هل كل المشاهير حقا موهوبون؟ ألم تر ممثل شهير أو رسام أو موسيقي ينال شهرة كبيرة أنت نفسك ترى أنه لا يستحقها؟

_ نعم البعض كذلك.

_ هذا معناه أنه إنسان لا يمتلك الموهبة الكافية في رأيك ولكن إعجاب الناس به أعطاه أكثر من حقه ووضعه في مكانه لا يستحقها. الناس هم من يصنعون النجوم والمشاهير وليست للموهبة قيمة بدون إعجاب الناس بها. والدليل أن هناك أصحاب مواهب كبيرة ولكن لا يشعر بهم أحد إلا بعد وفاتهم مثلا أو لم يشعر بهم أحد على الإطلاق وماتوا ودفنوا هم وموهبتهم دون ذكر. أعرف واحدا من هؤلاء، كان شاعر مبدع ولكن لم يجد لشعره مكانا في عالمنا فحمله ورحل في هدوء.

_ من هو ؟

_ لا تعرفه ولن تعرفه.

_ حسنا، ولكن لا أظن ما قلتهِ ينطبق عليَ. فأنا الذي صنعت نجاحي، موهبتي وشخصيتي وذكائي هم من أجبروا الناس على احترامي والإعجاب بي وبفني.

ابتسمت بسخرية وهمت بالرحيل، فقال بسرعة:

_ مهلا. لم أعرف من أنتِ وما اسمك !

_ إيزابيلا

_ جميل

_ أعلم أنه جميل ويعجبني كثيرا.

_ لست وحدي المغرور إذًا

_ نعم لست وحدك برغم أنك وحيد.

_ ما معنى هذا؟!

_ معناه أن المغرورين كُثر، والوحدة بداخلهم أكثر.

_ لست وحيدا، أستطيع أن أكون مع من أريد في أي وقت.

_ أتحداك في هذا أيضا.

_ لِمَ تتحدينني هكذا؟

_ لأن ما تظنه حقيقة هو في حقيقته وهم. والوهم لا يجلب شيئا حقيقيا.

_ تقصدين أن كل ما أنا عليه وهم؟!

_ لا أظن أنني أرغب في أن اشرح كلامي أكثر من هذا. لابد أن أعود إلى الحفل، زوجي ينتظرني

وداعا.

وتركته وعادت، ولا يدري لِمَ شعر بالضيق عندما قالت زوجي ينتظرني.. ! ربما تمنى ألا يكون لها زوج.

عاد إلى بيته ولم يتوقف عقله عن التفكير فيها وفي كل ما قالته. منع نفسه تعاليا وترفعا أن يهرع ورائها ليعرف اسمها كاملا وشخصية زوجها، ما حاجته إليها والنساء حوله كما يريد! هذا ما ظل يردده لنفسه ليقنعها أنه بخير وأنه يوسف العلي الرسام الشهير..

عادت هي إلى الحفل ولكنها لم تعد. تركت فكرها وتركيزها كله بالخارج، حيث يقف وحيث تحدثت معه وحيث تركته وحيدا حائرا. شعرت ببعض الرضا لأنها ردت له جزءا من إهانته لها وتجاهله السابق. لم تخبره أنها ذهبت ذات مرة إلى أحد معارضه تريد لقاءه والحديث معه، ولكنه كان يتأبط ذراع امرأة لا تعرفها ويتحدث بفخر عن لوحاته لبضع أشخاص ووقفت بينهم ووجهت له سؤالا ولكنه لم يلتفت إليها أو يعيرها انتباها وترك سؤالها وحيدا ذليلا فابتعدت عن الجموع والحرج يحرق وجهها وسارعت بالخروج وكأنها تهرب من شبح مخيف. وقررت ألا تذهب إليه ثانية، وأن تتوقف عن الإعجاب به. نجحت في الأولى ولكنها لم تستطع منع نفسها من الثانية.

إعجابها به تجاوز مرحلة إعجابها بأي فنان آخر. تجاوز مرحلة عشق الفن إلى عشق الفنان ذاته. لا تعرف كيف تسرب داخلها! كيف أصبح شاغلها، كيف أضحت أسيرة لفنه ولأخباره وصوره ولقاءاته الصحفية والمتلفزة. لكنها كتمت

هذا كله في صدرها، فهو كمجرة كبيرة تحوي كواكب وعوالم كثيرة ولا يستطيع كوكب واحد احتوائها. ثم أنه لا يليق بها أن تكون تلك المعجبة المراهقة التي تجري وراء فنانها المفضل في كل مكان، مركزها العلمي كباحثة في الأنثروبولوجيا ووضعها بوصفها زوجة لأستاذ جامعي وعالم كبير من علماء الفيزياء كانا يمنعانها من أن تفعل هذا وأن تكون تلك العاشقة الغريرة. كما أنها تعلم بأنه زير نساء، الجميع يعلم عنه هذا، ويتقبلونه. فالفنانون لا أحد يتعجب من علاقاتهم المتعددة، ولكن لا يتقبلون هذا من أي فئة أخرى. حاولت التركيز في عملها وبيتها وزوجها، ولكنه كان كالشبح يأتيها كلما خلت بنفسها أو أغلقت عينيها لتنام. وظلت على هذا الحال وتلك النار وهذا التماسك والثبات الظاهري، حتى رأته في ذلك الحفل الذي دعتهما إليه السفارة الفرنسية بوصفهما من رموز إسبانيا العلمية. شعرت بطبول الحرب تدق في قلبها. رؤيته أذابت أطنان من الجليد التي جاهدت لركمها فوق مشاعرها طوال الفترة الماضية ، ولكنه ظهر فجأة أمامها فحدث انهيار جليدي مفاجئ دفن تماسكها تحته، وشكرت الرب أنها كانت تجلس حتى لا يصيبها دوار المفاجأة وتظهر على ملامحها رايات الحرب التي تُرفع داخلها. وبقدرة هائلة على التماسك والتحكم والسيطرة نظرت له وتظاهرت باللامبالاة وأدارت رأسها إلى الجانب الآخر. وهي تعصر يديها اضطرابا ولكنه لم يلحظ يديها وتوترها كان كل تركيزه في وجهها الذي لفظه وأنكره. عندما حادثها لم تصدق أذنيها! لم تصدق أنها موجودة على الأرض وأنها من البشر. ألقى عليها تحية المساء..

عانق قلبها تحيته واجترت ذاكرتها صورته وذابت في تفاصيلها نشوة ولكنها جاهدت ألا يظهر عليها شيئا من هذا وصممت أن تستمر في خطة تجاهله، يكفيها مرتين من جرح الكرامة والإهانة وهي لم تعتد على هذا، بل هي تكره نفسها أحيانا لأنها تعلقت به كالمراهقات بهذا الشكل!

حين قال "عفوا يبدو أنني أضايقك" ردت بنعم وقلبها يقول لا ويرجوه أن ينتظر، أن لا ييأس. أن يحاول معها مرة ومرة. أن يُظهر اهتمامه ويصمم على جذبها إليه، أن يفعل أي شيء إلا أن يستسلم ويرحل. ولكنه رحل..

شعرت بالقهر حين اتجه رأسا لباب الخروج، أرادت أن تنادي عليه ولكن كبرياءها منعها، وظلت في حالة صراع بين كبرياءها وقلبها، حتى انتصر قلبها في النهاية وخرجت وراءه تبحث عنه ووجدته ينظر إلى السماء. فتنفست بعمق واستعادت هدوئها وقررت أن تكون تلك المرأة الغامضة ذات الكبرياء وألا تُظهر له تلك الفتاة المراهقة التي بداخلها، لا يجب أن يرى تلك الفتاة أبدا. فهي على يقين من أن اللحظة التي ستظهر فيها تلك الفتاة بحبها وضعفها وعشقها له هي نفس اللحظة التي ستسقط فيها من شجرة اهتمامه، وتكون مثل غيرها وتفقد قيمتها وجاذبيتها ويتركها ويرحل وهو يخوض في دماء كرامتها. كلمته بكل ثقة واستلهمت خبرات سنوات عمرها الثلاثون وكل ما قرأته في علم النفس وسيكولوجيات الرجال ونرجسيات المبدعين وقصص الحب ورواياته، قررت أن تكون له لغزا غامضا يثير فضوله ويستفز رجولته وينتهك غرورة.

بدأت معه حرب لا يعلم هو قواعدها ولا قوانينها ولا يفهم طقوسها، ولكن لو استطاع أن يرى لأبعد من غرورة وأعمق من حماقته لرأى أمامه إمرأة عاشقة بكل ذرة فيها، فالذي لا يعلمه الرجال أن المرأة التي يصعب جذبها، عندما تحب يصبح مركز جاذبية الحب في الكون هو قلبها. وهي لم تنجذب قبله بهذا الشكل لرجل. كان عقلها هو مقدمة العربة وهو من يقودها. العلم والبحث أثقلا قلبها وجعلاه لا يميل بسهولة، حتى رأته..

فسقط وانقلبت العربة في أول انحناءة لقلبها.

عشقت أولاً فنه ولوحاته، ثم أصبحت بالتدريج عاشقة له في صمت، ليلى أصبحت مجنونة قيس، وقيس لا يدري عن ليلى شيئا. حتى تلك الليلة. ليلة الحرب غير المعلنة بين قلب يمتلئ شغفا وقلب ممتلئ بحب نفسه، عقل وضع خطط الحرب وقواعدها، وعقل تُرك في حيرة ولا يدري من أمر تلك الحرب شيئا.

صراع بدء ولا أحد يدري من الرابح في النهاية..

الفصل الثالث

_ عن ماذا يبحث؟!

_ عن نفسه.

_ توقف عن فلسفة كل شيء، يبدو أنه يبحث عن شيء ما.

_ ومتى رأيناه لا يبحث عن شيء؟

_ الكلام معك مضيعة للوقت.

_ وهل تعتبرين هذا كلامًا؟

_ لا أظنه صراخا! نعم هو كلام.

_ حسنًا، هو يبحث عن بورتريه صغير رسم فيه وجهك وملامحك الجميلة.

_ أرأيت! لو كان حقا مهتما ومحبا مخلصا ما كان ألقى بي في كل مكان دون اعتناء أو حماية.

_ أرأيتِ! أصبحتِ تفهمين فكرة أنكِ انعكاس لحبيبته وأنا انعكاس له، وكلانا جزءا من روحيهما.

_ لا لست جزءا من روحها. بل أنا انعكاس لفكرته عنها وتفكيره فيها، لا أظنها بهذا السوء الذي يرسمني به.

_ لماذا إذًا جعلتنا أنا وهو بكل هذا الحزن؟!

_ لا أعرف عنها شيئا، ولكن شيئا ما يخبرني بأنها ليست بتلك القسوة.

_ انظري! لقد وجد البورتريه، وجلس ليكمل رسمه.

_ إنه لا يتوقف ولا يملّ أبدا.

_ الأمر يختلف هذه المرة.

_ كيف؟

_ سيرسل لها البورتريه. حتى الآن هي لا تعلم بأنه حصر موهبته كلها فيها. ولم يعد يرسم غيرها.

_ ولكنه يرسم نفسه أيضا، ورسم تلك المرأة التي لا تتوقف عن مراقبتنا!

_ رسمني لأنني هو، يجمع روحه بروحها على الورق طالما أن الحياة لم تجمعهما. أما هذه المرأة، فلا أعلم سرها بعد!

_ ألم تقل أنك هو؟! وامتزجتما لدرجة أنك تعرف ما الذي يفكر فيه ويبحث عنه!

_ نعم. ولكن حين رسم تلك المرأة لم نكن وصلنا لتلك الدرجة من الامتزاج التي نحن عليها الآن.

_ تبا لك وله ولها ولي.

_ أصبحتِ مضحكة. هناك شيء يتغير فيكِ

_ تتوهم كثيرا.. انظر! إنه يمزق وجهي، سئمت جنونه.

_ وأنا أيضا..

_ ليته يمزق كل صوري، أريد أن أتلاشى.

مزق يوسف صورتها التي كان قرر رسمها و إرسالها إليها. كانت تلك ستكون طريقته في إخبارها بإنهاء هذا التحدي المميت وتلك الصفقة الخاسرة.

منذ رآها وهو يدور في فلكها، حتى في تلك الفترات التي كان يتجاهلها فيها كان قلبه يلتفت إليها في كل لحظة. منذ تلك الحفلة التي طعنت فيها قلبه بسهم جاذبيتها أضحى فارسا بجواد ميت، يسير بخطى متثاقلة بعد أن تم جرحه برمح نظراتها. ظل طوال الليل يفكر فيها، وفي الصباح ندم لأنه لم يتبعها ثانية إلى الحفل ويعرف عنها كل شيء.

جلس على حافة الفراش وعيناه مغمضة، يجتر صورتها ويرحل في ملامحها ويستعيد كلماتها ليسمع صوتها من جديد.

وأخيرا فتح عينيه وقد مر بخاطره فكرة!

أن يذهب إلى السفارة ويراجع أسماء المدعوين في تلك الحفلة ليعرف من هي. لا بد أن يقابلها ثانية، لن يتوقف شغفه بها حتى ينالها. هو يعلم هذا بحكم تجاربه الكثيرة مع النساء.

ارتدى ملابسه على عجل، صفف شعره، شرب بضع رشفات من القهوة التي أعدها له خادمه ، ثم انطلق..

وصل إلى مقر السفارة الفرنسية، هو من العرب المعدودين الذين يُسمح لهم بالدخول إلى أي مكان دون إجراءات أمنية معقدة. شهرته وقربه من كثير من الشخصيات السياسية جعلاه موضع ثقة واحترام ومرحب به دائما.

تكلم بضع كلمات مع موظف السفارة المسؤول عن تنظيم حفل الأمس فأصبحت قائمة الأسماء أمامه بعد خمس دقائق. أخذ يقرأ الأسماء ولكن لم يصل إلى شيء! فوفقا للبروتوكول يتم كتابة أسماء النساء معرفا بأسماء أزواجهن، وليس بأسمائهن الشخصية. وهو لا يعلم ما هو اسم زوجها! وهو ما عض بنانه ندما عليه، لأنه لم يسألها عن اسم زوجها أو يدخل وراءها الحفل ليراه.

ولم يكن أمامه سوى أن يكشف اهتمامه بها ويسأل عنها مباشرة ويصفها لهذا الموظف لعله يخبره من هي.

_ في الحقيقة أنا أبحث عن سيدة كانت موجودة بالحفل برفقة زوجها. هي أقصر مني ببضع سنتيمترات قليلة، عيناها سوداء رموشها طويلة، ذات نظرة عميقة وجذابة وآسرة، تعقص شعرها الأسود الطويل للخلف وأنفها مستقيم ينتهي بارتفاع بسيط وجميل في المقدمة، شفتيها كرزيتين ووجنتيها انسيابيتين بلا امتلاء، أذنيها صغيرتين، وجهها مستدير يميل للاستطالة عند ذقنها الرشيق. حين تبتسم يضيء وجهها كأنه ...

انتبه فجأة لنظرات الرجل إليه! كانت عيناه تبتسم بخبث أو سخرية، ولكنها على كل حال لم تعجبه.

فعقد حاجبيه بغضب وهو يقول:

_ أنا أسهبت في وصفها لأساعدك على تذكرها بسهوله. فهل تذكرتها؟!

تنحنح الرجل حرجا وقال:

_ عفوا سيدي فوصفك ينطبق على كثير من النساء ولا أستطيع أن أحدد أيهن هي.

تنهد في يأس وهم بالانصراف ولكن استوقفه الموظف قائلا:

_ تستطيع مشاهدة صور الحفل الفوتوغرافية، بالتأكيد ظهرت من تسأل عنها في إحداها.

شعر يوسف بأنه كالغريق الذي أُلقى إليه بطوق نجاة:

_ نعم أريد أن أرى هذه الصور.

_ حسنا سيدي في الغد ستكون الصور موجودة وتستطيع أن تتفضل ثانية لرؤيتها.

_ ولماذا الغد؟ أريدها الآن.

_ عفوا ولكن المصور لم يأتِ بالصور حتى الآن، بالتأكيد لازال يقوم بتحميضها.

قال بلهفة:

_ اعطني اسم المصور وعنوانه وسأذهب إليه بنفسي.

_ حسنا، لحظة لآتي لك بما طلبت.

تركه الموظف يجلس مترقبا ومنتظرا بفارغ الصبر وغاب عشر دقائق مرت على يوسف وكأنها أيام. وأخيرا عاد وهو يحمل ورقه بها الاسم والعنوان أخذها منه وشكره وخرج مسرعا. وصل يوسف إلى عنوان المصور وبمبلغ بسيط من المال سمح له المصور أن يفحص الصور.

أخذ يقلب فيها بسرعة دون جدوى! لم يجدها في أي صورة منهم، شعر باليأس وجلس وهو في حالة حزن، ثم رفع رأسه إلى المصور وقال:

_ لماذا لم تصور كل من في الحفل؟ أليس عملك هو أن تفعل؟

_ نعم ولكن البعض لا يحب الصور ويرفض أن أصوره. مثل تلك المرأة الجميلة التي جاءتني من بداية الحفل عندما لمحت الكاميرا بيدي وطلبت مني ألا أقوم بتصويرها.

قفز يوسف من مكانه كالملسوع وقال بعصبية:

_ صف لي تلك المرأة.

قال المصور ببساطة، معي صورتين لها، وأنا أراجع الصور لاحظتها في صورتين منهما، ظهرت فيهما دون أن أنتبه أو أقصد تصويرها، لهذا وحفاظا على اتفاقي معها احتفظت بالصورتين بعيدا عن الصور التي سأسلمها للسفارة.

شعر يوسف بفرحه غامرة وطلب من المصور أن يريهما له فورا. تمنع المصور قليلا ولكن مائة يورو تكفلت بإقناعه وحصل يوسف على الصورتين.

لم يكن وجهها ظاهرا بوضوح ولكن بالتأكيد كانت هي.

سأل المصور إذا كان يعرف اسمها بالكامل، فنفى معرفته بها . فتركه وعاد لسيارته وانطلق بها عائدا إلى السفارة.

فوجئ به موظف السفارة يعود ويسأله بلهفة عن صاحبة الصورة ولحسن الحظ تعرف عليها الموظف وأخبره باسمها وبعض المعلومات عنها:

_ اسمها ايزابيلا بيدرو، زوجة البروفسيور بيدرو أستاذ الفيزياء الشهير بجامعة غرناطة.

_ هل لها عمل؟

_ نعم هي باحثة في معهد غرناطة للبحوث.

_ شكرا لك

خرج يوسف من السفارة وهو في حالة شرود. كان سعيدًا بعثوره عليها واحتمالية لقائه بها ثانية، ولكن عاد كبريائه يضع له العراقيل ويخبره بأنها أهانته وسخرت منه.
واستطاع أخيرا إقناع كبريائه بأنه يسعى إليها ليسترد كرامته المهدرة وليريها أنه يستطيع أن يفعل ما يريد وأن قيمته يستمدها من نفسه وليس من الآخرين كما قالت.

ولكنه كان يحتاج لبعض الوقت للتفكير.. أن يظهر لها فجأة دون ترتيب لما سيقوله وبلا مبرر مقنع لبحثه عنها سيكشف اهتمامه بها وسيجعله في موقف ضعف.

هو كان يدور في تلك الأفكار وهي كانت تدور في شوقها إليه ومحاولتها المستميتة لنسيانه.

زواجها كان زواجا عقلانيا هادئا. العلاقة بينها وبين زوجها قائمة على الاحترام المتبادل وليست العواطف الجياشة، لهذا

كانا سعيدين وبينهما تفاهم يحسدهم عليه الكثيرين ممن يعرفونهما عن قرب.

تقابلا في أحد المؤتمرات العلمية، انبهرت بذكائه وثقافته وعلمه الغزير، وأعجب هو بجمالها وثقتها بنفسها وسعة اطلاعها واهتماماتها العلمية وبحوثها المميزة في مجال علم الإنسان. عقلان تقابلا فتفاهما فأصبحا زوجان ناجحين.

حتى ظهر هذا العربي الذي اكتسح الحياة الفنية برسوماته المبدعة، وهي من عشاق فن الرسم منذ طفولتها، كانت هوايتها المفضلة، فهي تعشق الألوان وفكرة الخلق تجذبها، أن تخلق من الخطوط والتعرجات والنقاط أشكالا وأشخاصا حكايات تتشكل واحاسيس تُترجم وأحلام تتجسد هذا ما كانت تراه في الرسم ولهذا كانت تسميه "فن الروح" فكان تعلقها بأعمال يوسف العلي مفهوما، فأعماله تكاد تنطق وتضج بالحياة، عندما وقفت أمام إحدى لوحاته لأول مرة شعرت بأن ما تراه حقيقيا وليس مجرد خطوطا بالألوان على الورق. تلك المرأة التي تجلس على مقعد وثير وتنظر بابتسامة شبقة تبدو وكأنها حقيقية بكل تفاصيلها ونظرتها اللامعة والإحساس المتوهج المتناثر في جنبات تلك اللوحة الرائعة. كانت مبهرة حقا جعلتها تسعي لمعرفة من صاحب تلك الموهبة المتفردة، سألت عنه وتتبعت أخباره وقرأت عن أعماله وذهبت لمعارضه في غرناطة ومدريد ولشبونة وغيرها. أصبحت أعماله هي شغفها الأثير، حتى رأته..

ولم تدر حينها هل هي مازالت على الأرض أم هناك في رحلة بعيدة حيث لا أحد سواه.. هذا الكيان الآسر وتلك

الروح الجاذبة خطفا قلبها الذي ظل طوال عمرها محاطا بسياج من العقل والحكمة. أضحت بين ليلة وضحاها مراهقة عاشقة ولكن في صمت..

جاهدت كي لا يشعر زوجها بتغيرها وساعدها انشغاله الدائم على هذا، وعندما كان يراها شاردة الذهن كان يرجع هذا لانشغالها بعملها واجتهادها العلمي. لم تنجب ولم تسع لمعرفة السبب، بل من داخلها كانت تفضل ألا تنجب، كانت طموحة جدا، وعملها هو أهم ما في حياتها ولم تكن تشعر بحاجتها لكيان صغير يشغلها عن هذا كله. وزوجها لديه ولدين من زوجة سابقة لهذا لم يهتم بأن يكن له منها طفل، مكتفي هو بها وبعمله وعالمه الذي يعيش فيه. كان يكبرها بثلاثة وعشرين عاما ولكن لا قيمة لفرق العمر بين عقلين يسيران على خط واحد.

في الأيام التالية لهذا اليوم الذي قابلت فيه يوسف في مدريد في حفلة السفارة عادت لغرناطة وألقت عدة محاضرات تعليمية في عدة أماكن مختلفة، حاولت التركيز قدر المستطاع في محاضراتها، ولم تكن تدري أن يوسف ترك مدريد وسافر إلى غرناطة وأقام في أحد فنادقها و استطاع الحصول على جدول المحاضرات التي ستلقيها وكان يحضرها ويجلس وسط الحضور يراها ويسمعها في صمت، كانت تأسره طريقتها في الكلام والشرح بطريقة سلسة وبسيطة، كانت نصف المحاضرة تهرب منه أثناء تفكيره فيها وتتبعه لحركة يديها ونظرة عينيها والتفاتاتها وتلك الحركة الآسرة التي تعيد بها شعرها للوراء كلما تهدلت خصلاته أثناء حركتها المستمرة على المسرح. كانت تنتهي المحاضرة فيفكر في

الذهاب إليها ولكنه يتردد.. ويظل على تردده حتى تأخذه قدماه خارج القاعة دون أن يقابلها. حتى ذلك اليوم الذي وقعت عينيها عليه بعد أن أنهت محاضرتها وبدأ الناس في الخروج من القاعة وكانت هي تجمع أوراقها وأشيائها وقبل أن تتحرك وتهم بالخروج لمحته! كان لا زال جالسا والجمع يتحرك من حوله راحلا، كان يتأملها ونسيَ نفسه ولم ينتبه حتى إلى أنها تنظر إليه. بعد دقيقة كاملة أنتبه..

فشعر بالحرج وكأنها قبضت عليه متلبسا بفعل تأملها. نهض واقفا واتجه إليها، كانت لاتزال تقف وهي تحمل أشيائها والدهشة تملؤها! ولم يكن يدري أنها كانت سعيدة برؤيته، نعم كانت سعيدة ومندهشة في ذات الوقت، ولكن كعادتها كتمت انفعالاتها جيدا، وقف أمامها تفصله عنها خشبة المسرح وارتفاعها، حياها برأسه ثم قال:

_غرناطة مدينة رائعة، تمتلئ بالتاريخ السعيد والحزين، كما أنهم يطلقون عليها الآن مدينة الطلاب لعظمة جامعتها أليس كذلك؟

أفاقت من شرودها على علامة الاستفهام التي ألقاها نحوها وأجابته:

_نعم هي جامعة كبيرة وتصنف ضمن أعلى خمسمائة جامعة على مستوى العالم. ولكن لا أظنك جئت إليها لتنضم لجامعتها!

_نعم صحيح، لقد جئت في رحلة سياحية، تخيلي أنني تنقلت في إسبانيا بين معظم مدنها ولكنني لم أزر أبدا غرناطة!

برغم أن لها تاريخا عريقا يخصنا. وبرغم أنه تم عرض بعض لوحاتي بها في معرض نظمه مدير أعمالي، ولكنني للأسف لم أحضره وأندم الآن على هذا.

_تقصد بالتاريخ الذي يخصكم أنك عربي الأصل؟

_ نعم. عندما سقطت غرناطة انتهى الحكم العربي في الأندلس، هذا تاريخ لا يُنسى.

_ تتباكون كثيرا على غرناطة، وكأنها بلادكم وسقطت في يد المحتلين!

_لا تنكري أن العرب هم الذين انتشلوا الأندلس من تخلفها وفقرها وجعلوها منارة للعلم ومقصد للعلماء وأرقى حضارة في تلك الفترة، في وقت كانت أوروبا كلها تغرق في الظلام.

_لا أنكر هذا، ولكنه لا ينفي عنكم صفة المستعمر.

_هل يوجد مستعمرون في العالم كله قدموا لبلد يستعمرونها ما قدمه العرب للأندلس؟

_ هذا الحوار سيطول، ولا أظن أنك جئت إلى هنا لتناقشني فيه!

_نعم صحيح، كانت محاضرتك اليوم جزء من برنامج سياحتي هنا في غرناطة.

_هذا جيد. من وضع لك هذا البرنامج ؟

احتار يوسف وفكر سريعا لإلهائها عن هذا السؤال فقال:

_ لم يسمونكِ إيزابيلا عبثا.

شعرت بالغضب وقد فهمت ما يرمي إليه ولكنها سألته:

_ ماذا تقصد؟

_أقصد أنكِ ربما تكونين حفيدة إيزابيلا الأولى ومن نسلها.

_قد يبدو هذا ذما، ولكنني سأعتبره مدحا، فلقد كانت ملكة قوية.

_وقاسية وغادرة. لم تلتزم بمعاهدة تسليم غرناطة، وقامت بإجبار المسلمين واليهود على ترك دينهم ودخول المسيحية، ومن لم تقدر على إجبارهم طردتهم خارجا وقامت بتشريدهم لم يشهد التاريخ تعذيبا مروعا كالذي حدث هنا للمسلمين.

_هذا تاريخ قديم. الآن يعيش الجميع في انسجام وعدل تحت ظل قانون واحد يساوي بين الجميع. ولا أظنك جئت اليوم لتلقي تلك المحاضرة التاريخية، ولا أظن كذلك أنك جئت هنا لتحضر محاضرتي، ما الذي جاء بك؟!

نظر إليها وإلى نظرتها القوية تجاهه وقال ببساطة:

_ لن أخبرك.

ثم رحل في هدوء..

وقفت في حيرة! لم تفهم سبب مجيئه، ولا سبب ذلك الحوار الغريب بينهما! ولكنها لم تحاول منعه من الرحيل أو إلقاء أي أسئلة أخرى، فوجوده يمثل ضغطا كبيرا عليها، ومفاجأة ظهوره جعلتها لا تفكر جيدا، ولكن بالتأكيد هو لا يتبعها، لا تظن أنه يفعل. ربما فعلا جاء بالصدفة أو دفعه الفضول لرؤيتها وهي تحاضر. وربما رغب في أن يسخر منها ولكن

تمكنها مما تقوله لم يعطه الفرصة لأن يفعل. لهذا ذكر ذلك التاريخ المفجع وشبهها بإيزابيلا الأولى في محاولة منه لاستفزازها.

هكذا ظلت كل الأفكار السيئة تتزاحم في رأسها عنه، ولم يخطر في بالها أنه جاء من أجل أن يراها هي وفقط.. ولم تره بعدها. ومرت عدة أيام أخرى وذكرى ذلك اليوم وغموضه لا تفارقها.

****

دخل زوجها الغرفة فوجدها تجلس في استرخاء على الفراش وتحمل بيدها كتاب وعيناها تنظر إلى السقف.

ابتسم وهو ينزع عنه معطفه ويعلقه على المشجب ويقول:

_ اصبحتِ تشردين كثيرا حتى وأنتِ تقرئين. هل هو بحث جديد؟!

نظرت إليه بهدوء وقالت ببساطة:

_ نعم

اقترب منها وجلس على حافة الفراش وقال وهو يمسح على شعرها:

_ حدثيني عنه، أريد أن أعرف ما الموضوع الذي يشغل رأسك الجميل لهذه الدرجة.

ابتسمت له في ود وقالت:

_ وأنا لا أريد أن أشغل رأسك الكبير بمواضيع أعلم أنها لا تهمك، أنا أهتم بالبشر وكل ما يخصهم، وأنت تهتم بحركة الذرة وفيزيائية الكواكب. نكمل بعضنا في هذا الكون وهذا يكفي.

قال والابتسامة لم تفارق وجهه ولكنها زادت اتساعا بخبث:

_ طالما أنكِ لا تريدين إشراكي في بحثك فلن أشركك في رحلتي.

_ أي رحلة؟!

_ رحلة على يخت الملياردير ريكاردو، تعرفينه طبعا. قابلناه في إحدى الحفلات الرسمية، أرسل اليوم إلينا دعوة. كنت سأرفضها ولكن تذكرت شرودك الدائم هذه الأيام وفكرت أنكِ بحاجة إليها.

فكرت إيزابيلا بهذه الرحلة "نعم ربما تكون فرصة لها لتستعيد نفسها وتجدد خلايا ذاكرتها وتتخلص منه هذا العالق بعقلها وقلبها"

لمعت عيناها وهي تلقي بالكتاب جانبا وتعانقه وتقول:

_ شكرا لك حبيبي بالفعل أحتاج لهذه الرحلة بشدة.

الذي لم تكن تعلمه ايزابيلا هو أن يوسف صديق شخصي للملياردير ريكاردو وهو الذي طلب منه تنظيم تلك الرحلة ودعوة البروفسيور بيدرو وزوجته. كانت هذه الفكرة مثالية بالنسبة له، تتيح له رؤيتها والتحدث معها دون أن تعلم أنه

يسعى ورائها ويظهر أمامها بصورة المراهق المطارد لإمرأة جميلة أعجبته.

حين علم بقبولهما الدعوة شعر بأنه قاب قوسين أو أدنى من الوصول لهدفه، وهذا ملأه بالسعادة والثقة وجلس بالساعات يتخيل لقاءه بها وما الذي سيقوله وكيف سيجذبها إليه ويجعلها تقر بتفرده وتفوقه.

مرت الأيام بطيئة حتى أتى يوم الرحلة المنشود. كان اليخت فخما جدا، صناعة هولندية يزيد طوله عن مائة وخمسين مترا.

به كل وسائل الرفاهية، من حمام سباحة وشاشة عرض سينمائي وصالة ديسكو واحتفالات، وغرف مجهزة بكل شيء، ومريحة جداً.

كان صاحبه يتباهى به كثيرا ويقيم فيه احتفالات ورحلات لأصدقائه بصفة دورية، لهذا عندما طلب منه يوسف إقامة رحلة خاصة وأن يقوم بدعوة بيدرو وزوجته كان إعداد تلك الرحلة أمر هين ومعتاد، ولكن فقط سأله بدافع الفضول "لماذا ؟" وكان جواب يوسف هو "لأن زوجته تعجبني" . هكذا ببساطة.

لم يندهش صديقه الملياردير، فهو مثله، عندما تعجبه إمرأة لا يهدأ حتى ينالها. لهذا ضحك عندما سمع إجابة يوسف، وربت على كتفه ضاحكا ثم ضم قبضته وحركها في الهواء تعبيرا عن القوة والتشجيع، فهذه المطاردة تعتبر في عالم هؤلاء الرجال دهاء وبراعة وحنكة.

وليسهل له الأمر أكثر حرص على دعوة بعض أصدقائه الآخرين ليصبحوا غطاءَ جيدا لهذا الشراك الذي يعقده يوسف لإيزابيلا ولإلهاء زوجها عن فهم ما يجرى حوله، وحرص على أن يكون من ضمن هؤلاء المدعوون أساتذة جامعيين في الفيزياء لينشغل معهم الزوج ويترك الزوجة فريسه سهلة لصيادها.

كل هذا قدمه ريكاردو ليوسف بدافع الصداقة دون مقابل.
ولربما وجد متعة في مساعدته، لأنه سيشاهد فيلما حيا وبثا مباشرا لقصة صيد.

الفصل الرابع

وقف ريكاردو على يخته الفاخر مختالا كالطاووس وبين أصابعه سيجاره الكوبي المفضل، ضيوف الرحلة بدأوا في التوافد تباعا على اليخت تبعا لميعاد الرحلة المكتوب في الدعوة، كان يوسف هو أول الحضور وحرص على هذا حتى لا تراه إيزابيلا، كان لا يريد أن تعرف بوجوده إلا بعد ابحار اليخت ليطمئن أنها لن تتركه وترحل كما فعلت في المرة الأولى. جلس في غرفة ريكاردو الخاصة وانتظر..

كان الوقت يمر على ظهر سلحفاة عجوز بالنسبة له وهو يجلس وحيدا في انتظارها، ولكن إصراره كان أقوى من سأمه. وأخيرا اتصل به ريكاردو على الهاتف ليخبره بوصولها هي وزوجها. كاد أن يقفز لأعلى ليراها. ولكنه تمالك نفسه وصعد بهدوء متخفيا لينظر إليها من بعيد.

ورآها.. كانت ترتدي بنطالا رمادي اللون وقميصا أزرق وشعرها مسدلا على ظهرها بشكل رائع.

لم يكن على وجهها مساحيق تجميل كما رآها في الحفل، فظهر وجهها نقيا صافيا وبريئا جدا. كان يقف بجوارها رجل يبدو أكبر منها عمرا ولكنه أنيق ومهيب الطلة، حزر أنه زوجها.

اكتفى يوسف بما شاهده وعاد ثانية إلى غرفة صديقه وجلس ليفكر في الخطوة القادمة.

لم يتحرك اليخت إلا بعد اكتمال المدعوون وحضورهم الذي استغرق ساعات أكلت من قلب يوسف كثيراً من صبره. وأخيرا شعر بتحرك اليخت وبدأ هو أيضا في التحرك.

صعد إلى سطح اليخت بثقة هذه المرة، بحث عنها بعينيه بين الحضور، كان البعض جالساً والبعض واقفاً ليشاهد البحر، وكؤوس الشراب والمقبلات تدور بينهم كطائر الطنان، والابتسامات والأحاديث الجدية قاسم مشترك بينهم جميعا، فهؤلاء الضيوف ليس بينهم تلك المجموعات المعربدة التي يدعوها ريكاردو أحيانا ليقضي معهم وقتا صاخبا بعيدا عن عيون الصحافة، فهؤلاء الضيوف معظمهم على درجة علمية وثقافية وفنية مميزة، لهذا كان الجو هادئا والرحلة وقورة إلى حد ما. ولكن يبدو أن الجميع يستمتع بوقته.

وأخيرًا لمحها وهي تقف بالقرب من حافة اليخت ترقب الماء وفي يدها كأس، والهواء يداعب شعرها فبدت كجنية ساحرة هاربة من الأساطير..

للأسف كان زوجها يقف بجوارها لهذا لم يستطع أن يتقدم أو يظهر نفسه لها، ووقف حائرا! وفجأة وجد لمسة على كتفه فالتفت فوجد ريكاردو يبتسم له قائلا:

_ لا تقلق، بعد ثوانٍ ستكون وحدها، دعوت هؤلاء من أجل هذا الغرض.

ثم تركه واتجه إليهما، ورآه يوسف يتحدث قليلا معهما ثم يسير بصحبة الزوج ويذهبان للجلوس بجوار رجلين ويظهر ريكاردو وهو يقوم بالتعريف بينهم فيتصافح الجميع ويدخلون في حوار جدي. وعاد بنظره إلى إيزابيلا التي أصبحت تقف

وحيدة الآن تتأمل البحر في شرود. كانت هذه هي اللحظة التي ينتظرها منذ دهر..

اتجه مباشرة إليها وهو يخشى أن تضيع تلك الفرصة. وقف بجانبها ونظر إلى البحر بدوره، لا يدري لِمَ خشى من أن يقف قبالتها ويحادثها في البداية وهو ينظر إلى عينيها، ربما خوفاً من أن يظهر في عينيه شغفه بها أو يجذبه ثانية الثقب الأسود الذي في عينيها ويبتلعه فلا يقدر على أن يتحدث معها بالثقة التي درب نفسه عليها في خياله مرات عديدة .

_ مساء الخير.

سمعت صوته خرجت من شرودها والتفتت إلى هذا الكيان الذي يقف على بعد خطوتين منها وينظر إلى البحر. كان هو..! وهذا آخر ما كانت تتوقعه، أن تراه في الرحلة التي ذهبت إليها هربا منه! يبدو الأمر ساخرا جدا! كقصة موعد في سامراء، يهرب الرجل من ملك الموت عندما يراه في بغداد ظنا منه أنه سيقبض روحه فيها، ويرحل بعيدا عنه ليجده في سامراء في انتظاره فالأمر الذي جاء إليه يأمره بأن يقبض روحه في سامراء وليس سواها..

ابتلعت ريقها من صعوبة المفاجأة وحاولت أن تخفي صوت الضجيج الذي في قلبها وقالت بهدوء جاهدت لإظهاره:

_ مساء الخير. ما الذي أتى بك إلى هنا؟!

هو أيضا كان بداخله ضجيج مماثل وكان يخوض نفس الحرب الصامتة.

_ ريكاردو صديقي منذ فترة طويلة، هو أول من دعمني حين جئت إلى إسبانيا.

_ لم أكن أعرف هذا.

_ أشياء كثيرة لا تعرفينها عني.

_ لا يهمني أن أعرف عنك كل شيء

_ تعرفين فقط أنني مغرور. أليس كذلك؟

_ الجميع يعرف هذا

_ وماذا يعرف عنكِ الجميع؟

_ لست فنانة أو مشهورة مثلك ليعرفني الجميع

_ هل أسمع صوت التواضع يتحدث الآن؟

_ هل تعلم أن سيجموند فرويد مؤسس مدرسة التحليل النفسي قال أن نرجسية الجنس البشري تم جرحها ثلاث مرات؟

_ حقاً! وما هو جرحها الأول؟!

_ نفي مركزية الأرض وأنها مجرد كوكب ضمن مجموعة كواكب المجموعة الشمسية وأن الشمس هي المركز وهذا طبعا ما أثبته العالم الفلكي البولندي نيكولاس كوبر نيكوس.

_ وما جرحها الثاني؟

_قوانين اللا شعور والعقل الباطن التي اكتشفها فرويد نفسه والتي أثبتت أن الإنسان هش جدا وليس سوى هيكل خارجي

على مجموعة كبيرة من المشاعر المكبوتة وأن كل ما يفعله هو لا شعوريا مرتبطا بذلك الكبت.

_ والثالثة؟

_ نظرية التطور التي أتى بها تشارلز دارون والذي قال فيها أن الإنسان ليس مخلوقا مستقلا، بل هو فرع لشجرة ممتدة طويلا في جذور الكون.

ابتسم قائلا:

_لا أظنك ممن يؤمنون بنظرية التطور تلك. تذكرينها فقط لإغاظتي، وتلك الجروح الثلاثة تريدين زرعها في صدري، ولكن هذا لن ينجح معي.

_ ماذا تريد؟

فاجأه سؤالها! لم يكن يرغب في مثل تلك الأسئلة المباشرة. كانت لعبة المحاورة تعجبه أكثر وتخفي حقيقة هدفه بشكل أفضل، ولكنها تلعب الآن معه لعبة الحقيقة، وبدأت فيها سريعا، لم يكن مستعدا لها أو يتوقعها.

_ لا أريد شيئا، هل وجودي يضايقك؟

هو أيضا ألقى بسؤاله المباشر هذا وهو يخشى أن تكون إجابتها نعم مثل المرة السابقة، ولا يعلم أنها هي أيضا خشيت أن تقول "نعم" فيرحل مثلما فعل من قبل. فأعادت بصرها إلى البحر حتى تتمالك نفسها من جديد وقالت:

_ لا. لا تزعجني، هذه الرحلة للجميع وأنا ضيفة هنا فقط.

_ ربما تتعجبين لأنني أتيت لتحيتك بعد أسلوبك القاسي معي في المرتين السابقتين.

_ في الحقيقة نعم، ربما التجاهل كان سيبدو أكثر ملائمة.

_ أنا لم أعتد على الهرب، مواجهة ما يضايقني هو أفضل وسيلة لديَ للتخلص منه.

نظرت إليه بدهشة! لم تتوقع أن يقول هذا وبمثل تلك الطريقة الصلفة المتعالية!

_ عفوا! لا تحتاج للمواجهة لتتخلص مني، إذا كنت أضايقك فتصرف و كأنني غير موجودة، اليخت به أناس كثيرين غيري، ولا أظن أنني أطاردك أو حتى سعيت للحديث معك.

_ لا أستطيع أن اتجاهل وجودك، بيننا حديث لم يكتمل، ما ألقيتي به نحوي من قبل لازال مبعثرا حولي بفوضى لا أفهمها، ويحتاج من يقوم بجمعه وإلقاءه بعيدا، فهو لا يخصني ووصل إليَ بطريق الخطأ.

نظرت إليه بتحدي:

_ أجيد التصويب، ما وصلك هو لك بالتأكيد.

ابتسم وهو يقول:

_ أرى أمامي الآن الغرور متجسدا في هيئة إمرأة.

كانت ابتسامته جذابة ورائعة ولكن عبارته أثارت غضبها وهمت بالانصراف دون كلمة، فأمسك بيدها من الخلف.
كانت حركة مفاجأة جعلتها تلتفت بقوة وتواجهه ولم تلحظ أن

زوجها الآن ينظر إليها ويتابع ما يجري بينهما في صمت وتركيز.

_ ما هذا التهور؟! كيف تسمح لنفسك بأن تمسك يدي بهذه الطريقة؟!

_ عفوا ولكن يبدو أنكِ اعتدتِ على الرحيل دون إكمال المناقشة، وأنا لم أعتد بعد على هذا، لا أعرف كيف تكونين عالمة وباحثة وأنتِ تهربين دائما في منتصف المناقشة بهذا الشكل!

_ ما علاقة عملي بك؟ وما أهمية نقاشنا من الأساس؟! وما الذي يمكن أن نقوله بعد هذا؟!

_ تكثرين الأسئلة وكلها في حقيقتها سؤالا واحدا. أنتِ تخصصك الأنثروبولوجيا، والذي هو علم الإنسان. وها أنا إنسان يقف أمامك وينتظر أن تدرسيه.

لم تتمالك نفسها من الضحك عندما قال هذا، وعادت إلى حافة اليخت لتخفي ضحكتها في مياه البحر وتعطي ظهرها للحاضرين، فلم تشأ أن يراها أحد وهي تضحك هكذا.

وبرغم أن ضحكتها هي سخرية من كلامه إلا أنه طرب لها وأعجبه نغمتها.

وأخيرا بعد أن خفتت ضحكتها قالت:

_ لم أكن أعلم أنك تجيد المزاح

قال ببساطة:

_ ولكنني لا أمزح.

نظرت إليه بدهشة:

_ لا أظن أنك بتلك السذاجة التي تتحدث بها! تتحدث عن علم الإنسان وكأنه علم تنجيم أو تحليل نفسي! ولا أظن أنك تريد أن أعطيك درسا وأشرح لك ما هو الأنثروبولوجيا.

_ أريدك أن تعطيني درسا في شيء واحد فقط

_ ما هو؟

_ كيف أثبت لكِ أن كل ما قلتهِ عني في المرة السابقة خاطئ

_ ما أهمية ما أقوله بالنسبة لك؟

_ أهميته أنه يقلل من قيمتي، وهذا مالا أسمح به.

_ ولماذا تريد أن تقلل من قيمة المعجبين بك والذين منحوك ذاك النجاح وتلك الشهرة!

عقد حاجبيه بغضب:

_ قلت لكِ لم يمنحني أحد شيئا، صنعت نفسي ولم يصنعني أحد. لا تظني أن تلك الشهرة جاءتني على طبق من ذهب. سافرت عدة بلاد حتى استقررت هنا، عشقت إسبانيا وأجوائها وقررت أن تكون هي نقطة انطلاقي، كان الأمر شاقا جدا، كنت أرسم وأدور بلوحاتي ولا يهتم بها أحد ومن يرغب في شراءها يعرض ثمناً بخساً جدا أعتبره إهانة، وأرفض بيعها. حتى قررت أن أسوق نفسي وأكون وكيل أعمالها ومؤسستها الإعلامية ومعجبيها أيضا.

قمت بعمل موقع على الإنترنت، واشتركت فيه بحسابات وهمية كثيرة، وانتحلت عدة شخصيات وأرسلت من خلالها

مقالات ورسائل إعجاب ونقد فني لأعمالي وأرسلتها للمواقع الإلكترونية التي تهتم بفن الرسم وللصحف، و قمت بعمل خطط لألتقي بالنقاد وأصادقهم ليكتبوا عني، حتى أنني لجأت لإلقاء نفسي أمام سيارة أحدهم، والارتطام بآخر في الطريق ونشرت صوراً للوحاتي في كل مكان، اسمي العربي ساهم أيضا في لفت الأنظار إليَ ولكنه كان عيبا عند البعض ممن يكرهون العرب، ولكنني لم أهتم.

وبدأ موقعي الإلكتروني في الانتشار وتزايد أعداد المشتركين فيه، وقمت بعمل مسابقات نقديه بين متابعيني كلفتني الكثير، حتى اضطررت في إحدى المرات أن أبيع جيتاري الذي أهداني إياه والدي وأنا في أول عام لي بالمرحلة الثانوية لأرسل المكافئة المالية للفائز الأول.

كنت أذهب إلى الكليات الفنية وغيرها وألتقي بالطلاب وأدعوهم لزيارة مرسمي، بذلت جهدا خرافيا ولم أكن أهدأ أو أستريح حتى ذاع صيتي وتعرف الناس على أعمالي وعرفوا قيمتي الحقيقية وتوقفت حينها عن تسويق نفسي، فشهرتي أصبحت تتكاثر ذاتيا وتنمو بشكل تلقائي، ووصلت إلى ما أنا عليه الآن.

ثم تأتي أنتِ وبكل بساطة وتقولين أن الناس هم من صنعوني! لم يقدم لي أحد يد العون إلا بعد أن كتبت إسمي بجهدي وعرقي في عيونهم.

كان يتحدث بغضب وانفعال ، كانت عيناه تلمع وأوداجه تنتفخ ولكنه حرص على أن يظل صوته خافتا لا يسمعه غيرها، وهي كانت أثناء حديثه تنظر إليه، تتأمله..

انبهرت بما قاله. لم تتوقع أن يكون عانى بهذا الشكل أو أن يكون بهذا الذكاء! أنهى كلامه وهي لازالت تنظر إليه وحين انتهى ووقف ليلتقط أنفاسه ويسمع ردها على تلك الخطبة العنترية قالت بهدوء:

_ ما قلته لا ينفي ما قلته أنا، أنت سعيت لتعريف الناس بك لأنك تعلم أنك بدونهم لا شيء.

شعرت أنها تسرعت بتلك الكلمة الأخيرة.

ما كان يجب أبدا أن تقول له أنه بدون الناس لا شيء ..هذا جارح جدا. ندمت لأنها قالت هذا ولكن لم يمهلها هو فرصة للاعتذار أو التراجع وقال بصوت مكتوم ولكنه يحمل الكثير والكثير من الغضب:

_ لا قيمة للناس في نظري، لم يربت عليَ أحد وأنا في ضعفي، ولكنهم مدوا أيديهم لعناقي بعد أن وصلت إلى القمة وحدي. أنا وحدي يوسف العلي واستطيع الاستغناء عن كل الناس وأقبل التحدي الذي عرضتيه عليَ سابقا لأثبت لكِ أنني لا أحتاجهم لأحيا وأن موهبتي وحدها هي كل ما أحتاجه وهي مصدر سعادتي.

_ ما تحديتك به كان كلاما نظريا افتراضيا، فلا أنت ستستطيع التنازل بإرادتك عن شهرتك، ولا معجبيك سيتوقفون عن الإعجاب بك لمجرد أنك اختفيت عن أنظارهم بعض الوقت، الفن يدوم ويبقى حتى وإن رحل أصحابه عن عالمنا.

_ استطيع التنازل عنهم والبقاء وحيدا أنا ولوحاتي، لكن مسألة توقفهم عن الإعجاب بأعمالي بالفعل فوق إرادتي. ولكن هذا خارج إطار تحديكِ لي.

_ الشق الأول وحده لن تستطع تنفيذه فدعنا من ذلك الحوار الغير مجدي.

_ تسخرين مني أليس كذلك؟

تنهدت بضيق فهذا الحوار أصبح يسير في اتجاه خاطئ تماما ولتنهي هذا الجدال الفارغ قالت له:

_ حسنا فلتريني ثقتك بنفسك ولتبتعد عن عالم الشهرة والأضواء ولتكتفي بلوحاتك ولنرى هل ستتحمل أن تعيش دون أن تسمع هتافات المعجبين وتصفيقهم أم لا.

_ أوافق

نظرت إليه بعدم تصديق فأكمل:

_ نعم أوافق وللمدة التي تختارينها

_ لمدة عام كامل.

فكر قليلا فظنت أنه تردد فابتسمت هازئة، وهي تنتظر تراجعه ولكنها فوجئت به يقول:

_ بل عامين

_ عامين ؟!!!!

_ نعم ولكن بشرطين

_ ما هما؟!

_ الشرط الأول هو أن تكوني جائزتي

_ ماذا تقصد؟!

_ أنتِ تطلبين مني أن ابتعد عن الأضواء وأن اتنازل عن شهرتي وأجمد نشاطاتي بل و حياتي كلها، هذا تحدي كبير يستلزم جائزة كبرى. وأريدك أن تكوني تلك الجائزة الكبرى

نظرت إليه بغضب وقالت:

_ مستحيل

_ لماذا مستحيل؟ ألستِ واثقة من أنني لن أستطيع أن أفعل هذا؟ هل تقرين بخطأ كلامك الآن؟

_ المنطق نفسه خاطئ، مستحيل أن أعرض نفسي كجائزة ولو من باب المزاح، لست عاهره لأفعل هذا ولا اسمح لك أن تطلب مني هذا . ما قلته الآن أعتبره إهانة لا أقبلها.

وتركته قبل أن يضيف كلمة أخرى، وابتعدت عنه وانضمت إلى زوجها وجلست بجواره وهي تومئ للجالسين بالتحية فقام بتقديمها إليهم وتقديمهم إليها، لم تع هي من هم أو اسمائهم فدمها كان يغلي وروحها تختنق من الغضب .
"كيف سمح لنفسه بأن يعرض عليَ شرطًا كهذا؟" هذا هو السؤال الذي أخذت تقلبه في رأسها يمينا ويسارا ثم فطنت لأمر لم تنتبه له في ثورة غضبها، وهو أنه بالتأكيد يتلاعب بها ويركل بكرة التحدي في ملعبها، فكما هي واثقة من أنه لن يقدر على البعد عن بؤرة الاهتمام وحياة الشهرة ومعجبيه عاما كاملا وخاصة النساء منهم، فهو واثق أنها سترفض

شرطه التعجيزي هذا، وأنها ستتراجع عن هذا التحدي حتى لا تنفذه وهكذا يقف أمامها كرابح منتصر دون أن يخوض المباراة، ويظل محتفظا بكامل غروره وثقته بنفسه وتبدو هي في صورة المخطئة المتخاذلة ضعيفة الرأي. رفضها لقبول الشرط معناه ببساطة أنها ليست على ثقة من التحدي الذي شهرته في وجهه. وأن كلامها عنه يحتمل الخطأ لهذا خشيت من فوزه في التحدي فتراجعت عنه.

ما وصلت إليه بتفكيرها أثار غضبها أكثر وتخيلته وهو يبتسم هازئا منها. وبدون تفكير ودون أن تنتبه إلى أن أحد الجالسين كان يخاطبها قامت فجأة واتجهت مرة أخرى حيث كان يقف يوسف بجوار صديقه الملياردير وآخرون.

كان اندفاعها غير محسوب وليد لحظة الغضب ولم تدر بنفسها وهي تقف وراءه وتقول له " أوافق "

التفت بوسف وهو في كامل دهشته وكذلك نظر إليها بفضول من يقفون معه. نظراتهم إليها أيقظتها من نوبة الغضب فشعرت بخجل هائل وتوردت وجنتاها خجلا، رؤيتها بهذا الشكل الخجول جعلها تبدو كطفلة تقف أمام والديها بعدما ارتكبت خطأ ما. لم يتمالك يوسف قلبه من الخفق وهو ينظر إلى هذا الجمال الحيي الخجول..

وبلباقة وذكاء قال بصوت مرح و مسموع لمن حوله:

_ يسعدني طبعا أن تقبلي أن تتحديني في لعبة الشطرنج التي اقترحتها عليكِ، ظننتك رفضتِ أن تلاعبيني خوفا من مهارتي.

فابتسم الحاضرون وقال أحدهم:

_ أنا أعرف الأستاذة إيزابيلا رأيتها مرة وهي تلعب الشطرنج ومتأكد من أنها ستهزمك يا يوسف.

وقال آخر:

_ نريد أن نرى هذا التحدي، ابدأوا الآن.

وضحك ريكاردو وقال:

_ نعم سآمر الخدم بأن يعدوا طاولة التحدي وسأجعلكما تلعبان برقعة الشطرنج الخاصة بي وسأحضرها فورا.

جرى كل شيء سريعا وإيزابيلا تنظر إلى يوسف وهي لا تصدق أن الأمر جرى على هذا النحو ولكنها شعرت بالامتنان له لأنه انقذها من هذا الموقف الحرج الذي وضعت نفسها فيه.

يوسف خطر في ذهنه لعبة الشطرنج لأنه جمع كافة المعلومات المتاحة عن ايزابيلا في الأيام القليلة الماضية، ومن ضمن تلك المعلومات التي وصلت إليه عنها كانت حول حبها للعبة الشطرنج وبراعتها فيها، وأنها خاضت مباراة هامة تناولتها الصحف مؤخرا مع أحد لاعبي روسيا الدوليين في تلك اللعبة. ولهذا كان من ضمن خططه التي وضعها في خياله هي أن يتحداها في لعبة الشطرنج إن لم يحظ بفرصة كافية للحديث معها، ولكن كل ما حدث من حوار بينهما على حافة اليخت لم يخطط له أبدا، والحوار اتجه بينهما دون قصد منه لطريق وعر صعب أرهقه السير فيه و تخبط في

الكلمات ولم يحسن التصويب. ولهذا عندما هرعت مبتعدة عنه اسقط في يده وشعر أنه فقدها وأن خارطة طريقه إليها قد احترقت. ولكنه فوجئ بعودتها.

نعم فوجئ وكاد يصرخ من الفرحة..

تحلقت الجموع حول الطاولة التي تم اعدادها في منتصف اليخت والتي تم تجهيزها برقعة شطرنج ثمينة من العاج الحقيقي، وتم وضع ساعة ايقاف ليتم استخدامها مع كل حركة من أحد الطرفين. وأيضا تم اضافة كأسين من عصير الليمون الطازج كما طلبت إيزابيلا لتهدئة أعصابها. وجلس كلا من إيزابيلا ويوسف متقابلين وبدأ التحدي..

كانت مباراة قوية بين خصمين قويين، الحركات مدروسة وتعبر عن ذكاء واضح لكليهما.

وضعت إيزابيلا كل تركيزها في اللعب وحرصت على ألا تنظر إليه أو إلى عينيه خاصة. ولكنه لم يكن بمثل ذكائها فاختلس بضع نظرات إليها أثرت على تركيزه فقام بحركة وزير خاطئة تسببت في وضع ملكه في حصار كامل من قواتها ولم يتبق سوى أن تتقدم بالحصان لتقول له أجمل عبارة للفائز وأسوئها للخاسر (مات الملك)

ابتسمت هي في سعادة وصفق الحاضرون بإعجاب وتنهد يوسف في يأس وضيق فلم يعجبه أن تهزمه إمرأة حتى ولو كان شغوفاً بها.

فحياها برأسه وقام متجها إلى مطعم اليخت ليشرب شيئا وليبتعد عن نظرات الفوز التي تتألق في عينيها وتكاد تحرقه بها.

جلس على البار وطلب كأسا من النبيذ الأحمر، وأخذ يشربه في ضيق واضح وبطء شديد. ثم سمع صوتا يقول له:

_ أنت عربي ومسلم وأعلم أن المسلمين لا يشربون الخمر، فلماذا تشربه ؟

نظر لمن يحادثه فوجد أنه البروفسيور بيدرو زوج ايزابيلا. فقال بصوت حاول جعله هادئا جدا:

_ تعودت عليها، ولكن ربما أتوقف عنها يوما.

هز بيدرو رأسه في تفهم وقال وهو يجلس على المقعد المجاور له:

_ من أي بلد أنت؟

_ من مصر

_ ولماذا تركتها؟

_ أمي ليست مصرية، لهذا عندما توفي والدي سافرت معها إلى تركيا حيث موطنها الأصلي، وبعد أن أتممت مرحلتي الجامعية توفيت والدتي لم أجد أحدا حولي سوى نفسي فقررت أن أحملها وأرحل لأصنع لها كيانا وجذورا.

_ وهل فعلت؟

_ يبدو أنك لا تعرفني!

_ بل أعرفك، وأعرف أنك رسام شهير، ولكني أسأل عن جذورك التي قررت أن تزرعها، هل زرعتها؟

_ أعتقد أن شهرتي جذور كافية لي.

_ اعتقد لا

_ ماذا تقصد؟

_ أقصد أننا لا نصنع جذورنا، بل هي التي تصنعنا، فنحن ثمارها.

ثم أومأ برأسه تحية له وعاد من حيث أتى، وترك يوسف يفكر في ما قاله ومغزاه ولماذا قاله له هو بالذات!

ولم يجد تفسيرا سوى أنه رآه يكلم إيزابيلا وأن هذا كله كان تحذيرا له.

عاد بيدرو إلى سطح اليخت وبحث بعينيه عن زوجته ووجدها تجلس وسط مجموعة من الضيوف يتبادلون حديثا باسما، فاقترب منهم وحياهم وجلس بجوار زوجته واشترك معهم في الحوار.

بعد قليل بدأ الحفل الموسيقي بعزف رائع لأحد الفرق الكلاسيكية، استمتع الجميع بالعزف ثم بدأ البعض يرقص على انغام الموسيقى الهادئة ودعا بيدرو زوجته للرقص فابتسمت له وقامت لترقص. وقف يوسف من بعيد يشاهدهما ثم طلب إحدى النساء للرقص وقرر أن يقضي وقتا جميلا برغم كل ما حدث.

ورأته إيزابيلا وهو يراقص تلك المرأة ورغما عنها شعرت بالغيرة..

وبعد فترة الرقص والمرح أتى وقت الطعام، واستأذنت ايزابيلا من زوجها لتذهب إلى الحمام، كان يوسف يراقبها طوال الوقت من بعيد ، وعندما لمحها تبتعد عن زوجها تتبعها حتى هبطت السلم المؤدي إلى قلب اليخت ورآها وهي تدلف إلى الحمام فوقف قريبا من الباب في انتظار خروجها.

بعد عدة دقائق خرجت إيزابيلا فوجدت يوسف يقف جانبا وعاد لقلبها خفقانه فخفضت عينيها واتجهت إلى الدرج لتصعد فناداها يوسف أن تقف، التفتت إليه وهي تتظاهر بالغضب.

فقال بهدوء:

_ بيننا حوار لم يكتمل.

_ يبدو أن حواراتنا كلها لا تكتمل.

_ لكن هذا الحوار علينا انهائه، قلتِ أنكِ موافقه على الشرط الأول.

عقدت يديها على صدرها وقالت هازئة:

_ وهل يوجد شرطا ثانيا ؟

_ نعم، أترغبين في سماعه؟

_ ها، قل، أخبرني

_ بما أنني سأختفي عن الانظار لمدة عامين، فمن حقي أن تكون عودتي ذات صدى مدوي، أريد عندما ينتهي عقدنا بفوزي طبعا أن أروي ما تم بيننا من اتفاق لوسائل الإعلام سيكون هذا مصاحبا لعرض كل ما رسمته طوال تلك الفترة . سيكون اتفاقي معكِ بمثابة دعاية كبيرة للمعرض الذي سأقيمه للوحات التي سأرسمها خلال هذين العامين .

نظرت إليه بدهشة أولا، ثم انفجرت في الضحك .

نظر إليها باستهجان وصمت. انتهت من ضحكتها و قالت:

_ تعلم أن ما تطلبه من المستحيلات، فلماذا تطلبه؟!

_ كان الشرط الأول أيضا من المستحيلات ولكنك وافقتِ عليه في النهاية.

_ نعم صحيح، وأخطأت حين وافقت

_ مهلا عزيزتي، هل تقرين بأنكِ ستخسرين التحدي لهذا تنسحبين؟

_ بل أقر بأنك مجنون وتحدي المجانين غباء.

_ ولكنكِ وافقتِ. ما الذي تخشينه طالما أنكِ واثقة من الفوز؟ لم أكن أعلم أنكِ بهذا الجبن.

_ أنت لا تعرفني على الأطلاق. ومع هذا فأنا أقبل التحدي بشروطك تلك. ولكن ما الذي سيضمن لي التزامك؟ فربما تخرج وتقابل معجبيك بل وتبيع لوحاتك سرا دون أن أدري.

_ المسألة سهلة جدا، عليكِ مراقبتي والبقاء معي طوال تلك الفترة.

قالت بدهشة:

_ ماذا؟! مستحيل طبعا

_ تكثرين من كلمة مستحيل عزيزتي. سأكون تحت عينيكِ، في البيت الصغير الملحق بقصرك.

_ وكيف علمت به ؟!

_ أعرف عنكِ كل شيء.

_ ولكن زوجي يعيش معي في هذا القصر، ما الذي سأقوله له عنك؟!

_ لن يعرف بأمري، لن يعرف بوجودي في هذا البيت الصغير إنسان غيرك، وهذا دورك أنتِ. إذا أردتِ أن تتأكدي من التزامي بالاتفاق، فعليكِ أن تراقبينني بنفسك.

_ أشعر بأن كل هذا جنون وغير عقلاني بالمرة. ولكن أستطيع أن أجعلك موضوعا لبحث شيق.

_ أنا بحث؟!

_ نعم. ما تنوي فعله تجربة فريدة تستحق الدراسة بغض النظر عن نتائجها. فلا أظنك ستتحمل حتى انتهاء المدة وستنتهي التجربة سريعا. ولكن الشواهد منها ستكون كثيرة وتستحق التأمل والدراسة.

نظر إليها بغضب مكتوم ولكنه لم يشأ أن يدخل معها في جدال جديد.

_ متى نبدأ؟

_الأمر يحتاج لبعض الترتيبات، ولا أستطيع اخفائك عن زوجي، سيعلم بوجودك بطريقة أو بأخرى، لهذا فأفضل طريقه هي أن أخبره أنني اتفقت معك على إجراء تلك التجربة لغرض بحث ما، دون ذكر لشرطك اللعين طبعا.

ابتسم في مرح وقال:

_كما تشائين، أنتظر منكِ اتصال تخبرينني به بموعد بدء التجربة.

ثم غمز بعينيه ولوح لها بيديه واتجه إلى الدرج وصعد إلى سطح اليخت، فلقد سأم أن تتركه هي كل مرة، لهذا رحل هو قبل أن ترحل هي.

الفصل الخامس

_ ما بك؟

_ الأمر يزداد سوءا.

_ كيف؟

_ أشعر بأنه قد بدء يفقد عقله وأنا مثله.

_ وما العمل؟

_ هل يهمك أمرنا؟

_ قلت لك لا أحب أن أكون وحيدة

_ لن تكوني وحيدة، سأظل دوما معكِ..

*****

كان يوسف يجلس على أرض مرسمه يبكي، لا يدرِ سبب بكاءه، أصبحت انفعالاته خارج نطاق تحكمه.

يقفز بين المشاعر المختلفة كعصفور عجز جناحيه عن الطيران. وكانت هذه هي إحدى تلك اللحظات التي جرى فيها نهر دمعه دون جسر يمنعه أو سد يحتويه..

سمع طرقات على الباب فلم يجب، الطرقات استمرت وهو لازال مطأطئ رأسه ويبكي بحرقه

كانت الطارقة هي بريسيلا الخادمة التي خصصتها إيزابيلا لخدمته واختارتها تحديدا لأنها بكما، كانت تسمع ولكنها لا تستطيع التكلم وهذا ما أرادته ايزابيلا، فمن ناحية لن تتحدث مع أحد خارج القصر عن وجود يوسف في هذا البيت، ومن ناحية أخرى يوسف لن يستطع التحدث معها وأخذ أي معلومات أو إجراء أي اتفاقات و حتى لن يجد من يسليه ويتحاور معه ليخفف عنه عناء تلك الأيام الثقيلة، هي لم تشأ أن ينجح، فنجاحه معناه سقوطها بين يديه، لهذا اتخذت كل التدابير اللازمة لإفشاله. فالمنزل لم يكن مجهزا بأي وسائل اتصال بالعالم الخارجي، لا حاسوب ولا هاتف أو حتى نوافذ مفتوحة فقط بعض الكوات المرتفعة للتهوية. أخبرته أن النوافذ المفتوحة مخاطرة كبيرة. فلو لمحه أحد ما من خلال النافذة فسيشاع الخبر وسيهرع الجميع لرؤيته في سجنه الاختياري. يومها اعترض على كلمة سجن، ولكنها هزت كتفيها في لا مبالاة وقالت "لا أجد له تسمية أخرى"..

عندما اتفقا على اليخت وتركها وعاد للانضمام إلى صديقه ريكاردو وعادت هي إلى زوجها، كانت نظرات زوجها لها غير مريحة ولكنه لم يتفوه بشيء، هي تعرفه جيدا، وتعرف أنه يريد أن يقول شيئا ولكنه كعادته ينتظر الوقت المناسب، أو يفكر في ما سيقوله جيدا. وتعلمت أن تنتظر، فلن يخبرها بما يدور في رأسه حتى يرغب هو في قوله. ظلت الرحلة مستمرة طوال الليل، وازدادت صخبا قبيل الفجر، ولكن ايزابيلا حرصت على أن تبقى على بعد مسافة معقولة دائما من يوسف خشية إثارة الشك في نفس زوجها، وخاصة أنها قد قررت أن تخبره بجزء من الاتفاق الذي تم بينها وبينه، الجزء المتعلق بإقامة يوسف في البيت الصغير الملحق بقصرهما والذي كان يستخدم قديما لسكن الخدم. وبالطبع لم تكن لتخبره بشرط يوسف المستحيل. والذي مازالت تراه مستحيلا وممتنعا عن التنفيذ لأنها على يقين من عدم قدرة أي إنسان على أن يسجن نفسه لمدة عامين بإرادته، فما الحال مع شخصية نرجسية متعالية كشخصية يوسف!

بالتأكيد لن يتحمل شهرا واحدا.

يوسف فكر كثيرا في هذا التحدي قبل عرضه عليها.
استعرض كل النقاط الايجابية والسلبية فيه، وقارنها ببعضها فوجد أن الإيجابيات والفوائد أكثر.

فحقا سوف يُحرم من حياته الصاخبة الحرة المنطلقة ونظرات المعجبين التي تحيط به في كل مكان، وسيحرم من حريته ونور الشمس ورؤية القمر وليالي السمر على شواطئ اسبانيا الرائعة وحفلاتها التي لا تنتهي. ولكن في المقابل

سيستفاد كثيرا من اختفاءه. فأولا ستكون ايزابيلا ملكاً له في نهاية الأمر. وثانيا سيملأ خبر اختفاؤه كل وسائل الإعلام وسيكون لغزا يتم نسج القصص والحكايات عنه مدة عامين حتى يظهر هو في النهاية كاشفا عن سر غيابه بتلك القصة الغريبة التي ستجذب أنظار الجميع إليه وتجعله في بؤرة الاهتمام لمدة طويلة وستثير خيال الكتاب وربما يتم عمل فيلما سينمائيا كبيرا عنه، هذا فضلا عن إعجاب النساء بجرأته وشجاعته لخوض تجربة كهذه.

وثالثا وأخيرا سيقضي تلك الفترة في رسم العديد من اللوحات التي ستكون فيما بعد توثيقا لفترة اختفائه وأساسا لمعرض ضخم مضمون نجاحه مائة في المائة وسيجعله متربعا على عرش فن الرسم لفترة طويلة جدا وربما سيجعله خالدا في التاريخ.

كان يوسف شخصية متفردة في ذاتها، فموهبته تدل على أنه فنان عبقري، وعقله وطريقة تفكيره التجارية تدل على أنه رجل أعمال بارع. وقلما يجتمع في شخص واحد مزاج الفنان وعقل التاجر. ولهذا استطاع أن ينال من الشهرة والنجاح ما فاق به أقرانه أو حتى كبار فناني الرسم الذين لم يعرفهم الناس وينالوا شهرتهم المدوية إلا بعد طعنهم في السن أو موتهم.

وكلما تضخم رصيده في البنوك وتضاعف عدد معجبيه تضخم غروره، وهذه هي مشكلته الأساسية وعيبه الكبير.

بعد انتهاء الرحلة وعودة الجميع إلى منازلهم ظل يوسف الذي ودع ايزابيلا بعينيه من بعيد وهو يشعر بضيق لرحيلها وكأن وجودها وحده حتى بدون أن يتبادلان كلمة واحدة كان يسعده، وهي بدورها شعرت بنفس الاحساس، ولكن الجميل دائما هو أننا نستطيع أن نخفي الكثير من مشاعرنا حتى نستطيع الاستمرار، فبعض تلك المشاعر ظهورها قد يهدم ما قضينا عمرنا في بناءه. والكبرياء هو أحد تلك البناءات التي نحرص على حمايتها.

انتهت الرحلة وكلا منهما يحتفظ بكبريائه، وربما هذه هي الغنيمة الوحيدة التي خرجا بها من تلك الرحلة الشائكة.

عادت ايزابيلا وبنود الصفقة التي عقدتها مع يوسف تطرق رأسها بقوة، ووجه يوسف يطرق قلبها بقوة. وبين ضجيج الطرقات كانت هي تدور وتدور وتضع يديها على أذنيها من شدة الألم. فالندم بدأ هو أيضا يجد له بابا في عقلها ليطرقه..

جلس يوسف مادا قدميه أمامه عاقدا يديه خلف رأسه شاخصا ببصره إلى البعيد بعد أن خلا اليخت إلا منه ومن ريكاردو صديقه.

اقترب منه ريكاردو وهو يحمل زجاجتين من العصير البارد ومد له يده بواحدة، أخذها منه يوسف وشكره وهو لازال في حالة شرود. جلس ريكاردو بجانبه وهو ينظر لنفس تلك النقطة الوهمية التي ينظر إليها يوسف وقال له:

_ هل كانت رحلة ناجحة؟

_نعم كانت رحلة ممتعة.

_أعلم، فكل رحلاتي ممتعة، ولكن أسأل عن مدى نجاحها بالنسبة لك.

_نعم إلى حد ما.

_ما الذي حدث بينكما؟ لاحظت نظراتكما، كان بها شيء من الغموض، ليست نظرات عشاق ولا حتى أعداء!

_ربما هي نظرات ترقب وتفكير.

_نعم كانت تبدو كذلك، وهذا أوحى إليَ بأنكما اتفقتما على شيء.

ابتسم يوسف وهو يرفع الزجاجة إلى فمه ويرتشف منها رشفة قبل أن يقول:

_أنت ذكي يا صديقي وقوي الملاحظة، نعم لقد اتفقنا على شيء.

وجه ريكاردو نظره إليه وهو يسأله باهتمام:

_وما هو هذا الاتفاق؟

أراح يوسف ظهره إلى الوراء وهو يميل الزجاجة في يده وينظر إليها، ثم رفع بصره إلى ريكاردو وقال له ببطء:

_اتفقنا على أن أكون سجينها لمدة عامين.

رفع ريكاردو حاجبيه في دهشة! وظل على تلك الحالة لثواني فلم يستوعب ما قاله يوسف وانتظر منه تفسيرا وتوضيحا لتلك الكلمات الصادمة. ولم يبخل يوسف عليه بهذا وقص عليه كل شيء من أول لقاءه بإيزابيلا وحتى اتفاقهما العجيب.

لا يدر يوسف لماذا روى لصديقه كل هذا، ربما لأن السكرة قد ذهبت وجاءت الفكرة والتي هي على شكل سؤال مخيف

"هل حقا سأستطيع الصمود لمدة عامين كاملين؟"

لو استطاع الصمود سيفوز بالكثير، ولكن هل لديه القدرة على هذا الصمود؟ هذا ما بدأ عقله في وضعه في بؤرة الاهتمام بعد أن كان سؤالا جانبيا لم يلتفت إليه عقله من قبل ولم يفكر فيه بهذه الجدية. أخذته عزة النفس وتخيل نشوة النصر والمكاسب التي ستعود عليه دون اهتمام حقيقي بقدرته هو على تحمل هذا السجن الانفرادي تلك المدة الطويلة.

أيقظه صوت ريكاردو المندهش من أفكاره:

_ لم أكن أعرف أنك بهذا التهور والغباء!

_لست غبيا، مكاسبي من هذا التحدي ستكون كبيرة.

_ولكن في المقابل ستفقد عامين من عمرك بين جدران كئيبة موحشة، شخص مثلك يتقلب بين ذراعي الحياة كيفما شاء، كيف له أن يرضى بأن يقضي عامين من عمره تحت أقدامها! تراجع يا صديقي فهذا السجن سيقتلك. أنني أشعر بالاختناق من مجرد تخيل الفكرة. صدقني لن تحتمل هذا. أعلم كيف يكون احساس السجين، ليس شيئا جيدا على الإطلاق.

نظر إليه يوسف باهتمام عند تلك النقطة وسأله:

_وكيف تعرف احساس السجين؟

ابتسم ريكاردو وهو يربت على كتف يوسف ويقول:

_هناك الكثير الذي لا تعرفه عني يا صديقي.

ثم أشار إلى يخته الفخم وقال:

_هل تظن أن كل هذا قد ورثته دون تعب وتضحية؟ لقد عانيت الكثير ومررت بالكثير حتى حصلت على تلك الحياة الفارهة. وكان السجن جزءا من الثمن الذي دفعته للحصول عليها.

_أنا أيضا عانيت كثيرا لأصل إلى ما وصلت إليه، وربما هذا التحدي الأخير سيكون الأكثر معاناة والأكبر جائزة.

_هذا إن نجحت فيه. هل حقا ستستطيع التحمل؟ عليك أن تجيب على هذا السؤال قبل أن تقدم على تلك الخطوة الرهيبة.

_ أرى أنك قد تحملت سجنا اسوأ من قبل، وها أنت تجلس بجانبي في استرخاء بعد ان جنيت مكاسبك منه.

_سجني لم اختره، كان مفروضا عليَ ولم يكن من خياراتي أبدا. ولكن أنت وبكامل إرادتك تختاره! هذا سيجعلك تفكر في الرحيل كل يوم ألف مرة، رغبتك في الحرية قد تفوق رغبتك في الثمن الذي ستقبضه مقابلا لها.

_فلأجرب لن أخسر شيئا، فسجني مفتاحه في يدي، إن أردت الانسحاب في أي وقت سأنسحب .

_ أتمنى أن تنسحب في الوقت المناسب.

قال يوسف بعصبية:

_لماذا تصر على أنني لن أنجح؟ أنت لم تر سوى يوسف المرفه الشهير الناجح ولم تر يوسف في بداياته وهو يأكل الحديد ويسير على الجمر. أملك من الإرادة ما يجعلني أصعد جبلا ويدي موثقة.

ضحك ريكاردو وهو يضرب على ظهر يوسف بقوة ويقول:

_حسنا يا صديقي فلتقم بمغامرتك وأتمنى لك التوفيق .

_شكرا لك يا ريكاردو، كنت دائما داعما قويا لي. أنت الوحيد الذي أثق به، لهذا حكيت لك هذا، ولا أحتاج أن أطلب منك أن تجعل ما رويته لك سرا بيننا.

هز ريكاردو رأسه متفهما وهو يقول:

_نعم بالتأكيد يا يوسف، لن أخذلك في هذا أبدًا.

ابتسم له يوسف في ود حقيقي، ثم تنهد وعاد إلى تفكيره والسؤال الحائر الذي يقفز في رأسه بلا توقف "هل حقاً سأستطيع الصمود ؟!"

****

كانت الطرقات مستمرة على الباب ويوسف مستمر في بكاءه وجلسته الحزينة على أرض المرسم، ولم تستطع بريسيلا فتح الباب، لأنه كان موصدا من الداخل، كما أن يوسف حذرها من الدخول إلى المرسم لأي سبب، ومنذ أصبحت في خدمته لم تدخل غرفة المرسم بناء على أوامره، فتلك الغرفة من المحرمات، يقضي فيها ساعات طويلة، وعليها أن تنتظر خروجه منها إن كانت تريد أن تقدم له شيئا أو تسأله عن شيء يحتاجه. احتارت ماذا تفعل! فمنذ الأمس وسيدها يوسف لم يظهر ولم يخرج من مرسمه! وهي تخشى أن يكون قد أصابه مكروه. أوصتها سيدتها ايزابيلا عليه، وأمرتها بأن تقوم بكل شئونه وأن تطمئنها عليه دائما وأن تخبرها بأي شيء يخصه. هي تأتي إليه كل يوم من القصر، تحمل طعامه وملابسه النظيفة بعد غسلها، وتقوم بتنظيف المنزل ثم تمكث حتى المساء لتلبية أي مطلب له، ثم تعود إلى القصر لتبيت فيه. هكذا اعتادت منذ شهور، وهكذا سار الأمر الذي لا تفهمه ولا تعرف لماذا يقبع هذا الرجل سجينا في ذلك البيت الصغير! ولماذا لا يخرج أو يزوره أحد؟! وما هي علاقة سيدتها ايزابيلا به! وما كل هذا الغموض الذي يحيط بوجوده هنا والذي حرصت سيدتها ايزابيلا على أن يظل على غموضه! أسألتها عنه تدل على اهتمامها الشديد به وبكل ما يفعله، حتى طعامه وشرابه تسأل عنه، وهل يأكل جيدا أم لا؟ وهل يبدو عليه الراحة أم التعب؟ هل يبتسم.. ؟ كل تلك الأسئلة كانت تسألها لها بشكل دائم وبصفة دورية، حتى سئمت السؤال والإجابة، تتخاطب مع سيدتها بلغة الإشارة، فمنذ فقدت صوتها لمرض أصاب حنجرتها وهي

صغيرة وهي لا تملك من وسيلة للتعامل مع الآخرين سوى يديها ونظرات عينيها، تعلمت لغة الإشارة في مدرسة خاصة لهذا الغرض أرسلها إليها والديها، كانت طفولتها تعيسة، من لا يملك صوتا هو في الحقيقة لا يملك حلما، توقفت أحلامها عن البث، إحساسها بالنقص جعلها تزوي طموحاتها وتضعها في ركن قصي، بعيدا عن متناول يدها، فقدت رغبتها في التعلم وفي ممارسة الحياة، نشئت بطيئة التواصل، خجولة التعاطي مع رغبات الحياة، منطوية الروح. وبعدما فقدت أبويها في حادث طريق، أصبحت وحيدة تماما بلا سند أو بارقة أمل في حياة حقيقية، فقنعت بحياة الخدم، تلك الحياة التي يعيشها البعض في زاوية غير مرئية ولا محسوسة، لا أحد يشعر بتلك الكيانات المهمشة، التي تعيش معهم تحت سقف واحد، وبرغم قرب المسافة وكثرة الاحتكاك إلا أن بينهم ملايين السنوات الضوئية التي يتوه فيها الاهتمام أو الفهم. لا أحد يفكر كيف يشعر خادمه أو ما الذي يؤلمه أو ماهي أمنياته، لكن الخادم عليه أن يوفر كل وسائل الراحة لسيدة، وأن يراقب مزاجه، وأن تنحصر كل أحلامه في أن يكون سيده في مزاج رائق حتى لا يغضب منه أو يعاقبه على أي خطأ تافه. يقولون أن العبودية انتهت، ولكن الحقيقة هي أن اسمها فقط هو الذي تغير. عانت بريسيلا كثيرا وهي تنتقل من بيت إلى آخر، تحملت الكثير من القسوة ونظرات الازدراء، وكثير من الغضب على أخطاء صغيرة. حتى أهدت إليها الأقدار ايزابيلا.. تلك السيدة الطيبة تعتبرها بريسيلا هدية من السماء. تعاملها بحنان وطيبة لم تجدهما إلا من أبويها، فقدت هذا الدفء يوم أن فقدتهما في ذلك الحادث

المشؤوم. وعلى الرغم من أن بريسيلا تقترب في العمر من إيزابيلا، إلا أنها كانت تشعر دائما أنها بجوار تلك الروح الراقية والقلب الكبير طفلة. وما اسعدها أكثر أن إيزابيلا تجيد التحدث بلغة الإشارة.

اختارتها ايزابيلا لتكن في خدمة هذا السيد الجديد الذي يقبع في ذلك البيت الصغير، ولا تدري لِمَ اختارتها برغم وجود ثلاثة غيرها في القصر! ولا تدري لِمَ هذا الأمر كله يبدو بتلك الغرابة، وهذا السيد يبدو غريبا! ولكن عليها أن تطيع وتنفذ الأوامر وتقوم على خدمته ونقل أخباره إلى سيدتها إيزابيلا. في البداية كان يبدو مرحا باشًا وكان يعاملها بطيبة واحترام، لهذا شعرت بالارتياح له، ولكن بمرور الوقت بدأ الحزن يزحف إلى وجهه، وبدأ يتصرف ببعض العصبية، يأكل القليل ويشرب الكثير ويختفي بالساعات في تلك الغرفة الممنوع عليها دخولها مهما كانت الأسباب، حتى أنه لم يسمح لها بتنظيفها، ومنذ أن نظفتها أول مرة قبل وصوله، لم تنظفها ثانية برغم مرور تلك الشهور التي اقتربت من العام!
اختلست مرة النظر إليها، عندما حملت الغداء إليه في أحد الأيام . دخلت البيت ولم تجده، فوضعت صينية الطعام على المائدة، وبحثت عنه في غرف النوم والحمام والمطبخ.
وعندما لم تجده علمت أنه في تلك الغرفة الغامضة، فسارت إليها لتطرق عليه الباب وتنبهه إلى الطعام حتى لا يبرد، فوجدت الباب مواربا للمرة الأولى، فعادة يغلقه من الداخل، ولكن يبدو أن تلك المرة نسيَ غلقه. اقتربت ببطء وهدوء من الباب، كان الفضول قد استبد بها لمعرفة ما يدور في تلك الغرفة الكبيرة، وما الذي يفعله هذا السيد بالساعات داخلها!

هي رأت الغرفة من قبل، فهي من قامت بتنظيفها قبل وصوله إلى هذا المنزل، هي غرفة كبيرة، ذات باب خشبي عتيق، تحتوي الغرفة على درجتين عريضتين هما بداية الغرفة، تهبط منهما فتجد مساحة خالية تتراوح بين الستة أمتار عرضا وطولا، سمعت أن تلك الغرفة كان أصحاب القصر قديما يستخدمونها كزنزانة يتم فيها سجن العبيد الآبقين وتعذيبهم. فهذا القصر كان تابعا لعائلة من الأمراء الإسبان، ويمتد عمره في عمق التاريخ حتى القرون الوسطى عائلة السيد بيدرو تمتلك هذا القصر وتتوارثه جيلا بعد جيل، حتى وصل إلى ملكيته، وتزوج فيه السيدة إيزابيلا بعد أن تم طلاقه من زوجته الأولى منذ سنوات.

جاءت بريسيلا إلى هذا القصر لتخدم فيه، وهي تسمع تلك الحكايات عن القصر وأصحابه وتاريخه، يرويها الخدم لبعضهم، وكلما التحق بالقصر خادم جديد، يشعر الخادم الأقدم بأن عليه واجبا مقدسا في تعريف الوافد الجديد بالقصر وتاريخه وأصحابه، ولا ينسى طبعا أن يروي تلك القصص التي عاش فيها بعض أفراد تلك الأسرة العريقة، وأهمها طبعا قصص الحب والزواج والطلاق وحتى الانتحار، الذي كان له نصيبا من تلك الأسرة على مدار تاريخها، يتداولون تلك الحكايات ربما ليثبتوا لأنفسهم أن المال لا يحقق السعادة، وأنك عندما تصبح ثرياً لا يعني هذا أنك أصبحت سعيدا، فالسعادة معنى آخر لا يلتحف بريش النعام ولا يرتدي عقود الالماس ولا يثيره لمعان الذهب، هو معنى خاص ينبع من الداخل ويتسلل خارجا من خلال كل فتحات الحواس، فيغير

زوايا الرؤية ويلون الحياة بألوانه الخاصة، ويصنع جسورا مخملية تسير عليها الروح لتتواصل مع الحياة بشغف..

دخلت بريسيلا متسللة إلى الغرفة وقلبها يخفق بشدة خوفا من رد فعل سيدها يوسف إن رآها وهي تنظر داخل تلك الجدران المحرمة، مدت رأسها أولا في فرجة الباب فلم تلمحه، فتجاسرت على أن تدخل بباقي جسدها، ولكن بهدوء شديد. فوجئت بكمية اللوحات والأوراق والألوان الممتلئة بهم الغرفة بشكل فوضوي، وللحظة نسيت قانون التحريم والمنع الذي سنّه سيدها فنظرت بانبهار إلى بعض اللوحات الملقاة على ظهرها أو الموضوعة جانبا، كانت اللوحات كلها عبارة عن رسم مبهر ورائع لسيدتها ايزابيلا وليوسف هذا نفسه. كانت اللوحات متقنة وكأنها صور ملتقطة بكاميرا عالية الجودة! وقفت للحظات تتأملها ولم تستيقظ إلا على صوت يوسف وهو يقول بحدة:

_ ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟!

ورأته يخرج من تحت بعض اللوحات المتراكمة والذي يبدو أنه كان يلتحف بها وهو راقد على الأرض وكأنها غطاء !

اضطربت ولم تجد ما تقوله خوفا منه ومن نظراته الغاضبة فأشارت إلى فمها علامة الطعام ثم اشارت خارجا ليفهم أن الطعام في انتظاره خارج الغرفة. اقترب منها يوسف ولازالت نظرة الغضب بعينيه، ووقف على مقربة مسافة صغيرة منها وقال:

_ قلت لكِ منذ أول يوم جئت فيه هنا أنه ممنوع عليكِ وعلى أي أحد آخر دخول تلك الغرفة، سأغفر لكِ هذه المرة، ولكن تذكري أنني لا أغفر مرتين.

هزت رأسها باضطراب وخوف علامة الموافقة والفهم، ثم خرجت مسرعة وانتظرته بجانب مائدة الطعام وهي تلهث من الخوف. خرج يوسف وذهب إلى الحمام وغسل يديه ثم جلس يأكل في هدوء، وبعد أن انتهى عاد إلى تلك الغرفة دون أن ينبس ببنت شفه.

منذ هذا اليوم وهي فقدت فضولها حول تلك الغرفة وفقدت اهتمامها بها، فلم تعد بذلك الغموض الذي أثار خيالها، فلقد علمت بما يفعله فيها، وأنه يقضي الساعات الطويلة تلك في رسم نفسه ورسم سيدتها إيزابيلا! وما لم تعلمه أنه في تلك الليلة بدأ في رسم صورة لها أيضا وفي عينيها تلك النظرة الفضولية التي رمقت بها كهفه وهي ذات النظرة التي كانت تخيف انعكاس إيزابيلا دوما!

وعلى الرغم من روعة تلك اللوحات إلا أنها لم تمحِ من ذهنها غرابة هذا الرجل وغرابة حياته وما يفعله!

لهذا في اليوم الذي قضاه وحده في مرسمه لم يزد عن أن يكون بعض تلك الغرابة، ولكن مرور اليوم بكامله دون أن يخرج جعلها تخشى من أن يكون قد حدث له مكروه، لهذا في اليوم التالي، طرقت باب تلك الغرفة، ولم يمنعها عدم استجابته من الاستمرار في الطرق . كان بكاء يوسف في ذلك اليوم بحرقة لم يشعرها من قبل ، كان يبكي دون توقف ودون إرادة ودون سبب واضح، جاءته حالة لا يعرفها، بعد

أن مزق ذلك البورتريه الذي كان يرسم فيه وجه إيزابيلا جاءته نوبة البكاء تلك واستسلم لها، كغريق فقد كل رغبة له في الحياة أو أمل في طوق نجاه. حتى سقط مغشيا عليه..

بعد فترة من الطرق، هرعت بريسيلا إلى القصر لتخبر سيدتها بالأمر. كانت إيزابيلا لازالت في فراشها، بعد سهرة قضتها في بيت صديقتها احتفالا بعيد ميلادها. عادت في وقت متأخر، صعدت إلى غرفتها، استبدلت فستانها الأسود الأنيق بقميص مريح وردي اللون، ازالت عن وجهها مساحيق التجميل، ثم خرجت إلى الشرفة، لتمارس طقوسها المعتادة في تأمل البيت الذي يعيش فيه يوسف منذ عام كامل. عام كامل وهو في ذلك الكهف وحده، لم تتخيل أبدا أن يستطيع المكوث كل تلك المدة! حقا هي لم تقدره حق قدره، ولم تعِ صلابته ولم تعطي لإرادته حقها. كل يوم يمر منذ بدء تلك التجربة العبثية هو بمثابة مسمار يدق في نعش روحها. لم تعد تعلم من السجين فيهما. كان الأمر في بدايته غريبا ولكنه مقبولا طالما أنها على يقين من أنه لن يتحمل سوى أيام قليلة فقط وسيرفع رايته البيضاء ويعلن انسحابه غير المشروط. ولكن الأيام تمر والحياة تمضي بالجميع وهو قابع في كهف وحدته بعيدا عن عينيها مقيما في قلبها محتلا لكل خلية تفكير في عقلها. لم تدرِ حين وافقت على ذلك التحدي الأحمق أنها وافقت ضمنيا على توقف الحياة بها. فقدت الكثير بفقدها لوجوده خارج تلك الحدود المميتة. مسجون هو بإرادته داخل تلك الجدران الباردة، ومسجونة هي دون إرادتها داخل حدود تلك الحياة الخالية من يوسف والخائفة من فوز يوسف وانتصاره! صراع عجيب أصبحت تعيش فيه

ما بين شوقها إليه وخوفها من انتصاره، تموت تلك الروح التي بداخلها ببطء..

نعم هي تحبه، ولكنها ترفض أن تكون له جسدا تم خسارته في مقامرة سفيهة. نعم تحبه ولكنها تلعنه ألف مرة لأنه ينظر إليها على أنها مجرد جسد استعصى عليه فتحايل على امتلاكه بلعبة قذرة وتحدي عقيم. تشعر بالغضب من نفسها لأنها وافقت على هذا الاتفاق، حاولت نفسها أن تقدم أسباب براءتها بأنها لم تتوقع أبدا أنه سيصمد، كان الأمر أشبه بالنسبة لها بلعبة معروفة كل نتائجها والتي لا تخرج عن قيمة واحدة وهي الصفر.

كانت على يقين من أنه لن ينهي حل المعادلة وسيفشل في كتابة القيمة الصحيحة، وسيكون الصفر هو جائزته كمهزوم.

لكن.. مر عام، والصفر يقترب منها هي. عام آخر وستكون قربانا لإله أسطوري، صنع لنفسه فوزا من قلب المستحيل، ونهش بصموده كل مجد لها وكل حياة كانت ستكون لها.

وبرغم غضبها وحنقها وخوفها من انتصاره عليها، ظل ذلك القلب الساذج على حبه وعشقه له! كان يشتاق إليه بقوة. طوفان من الحنين لملامحه ولصوته كانا يغرقانها كل يوم، ولا نجاة ولا مفر..

زوجها لم يرض عن تلك التجربة، حينما أخبرته بها هاج وماج، وثار في وجهها كبركان ثائر. لم تفهم سبب غضبه الشديد هذا، فهي لم تخبره بحقيقة ذلك التحدي. أخبرته فقط بأنها تجربة طلبها منها يوسف حين علم أنها باحثة في علم الإنسان، وبررت طلبه بأنه فنان ذو مزاج مجنون، أراد أن

يخضع لتلك التجربة ليستخدمها في دعاية ضخمه لمعرضه القادم، وأنها وجدتها فرصة لتدرس تأثير الانعزالية الاختيارية على الشخصية الإنسانية وعلى موهبتها وقدرتها على التواصل فيما بعد، كما أنها ستبين السلوك الفردي للسجناء وخاصة أنه سجين بإرادته، كلمات كثيرة ومبررات متعددة ألقتها على مسامعة بغية إقناعه وتهدئته. ولكن يبدو أنه كان يفهم ما لم تقله هي، كان يشعر بأن الأمر يتجاوز تلك الحجج الواهية والكلمات الرنانة والتبريرات الساذجة. وأن هناك سر يقبع هنا في ذلك الصدر الذي طالما وضع رأسه عليه بحثا عن الهدوء والراحة، وها هو الآن يصبح محملا بأسرار تسبب له ضوضاء في روحه وتنهش قلبه نهشا..
انتهى حوارهما، أو الأصح شجارهما بتركه القصر وإقامته في غرفة بفندق. لم يرغب في أن يظهر في صورة صاحب القصر وأنها لا تملك أن تستضيف فيه من تشاء فهي أيضًا ضيفة فيه. عندما طلق زوجته الأولى لم يسمح لها بأخذ القصر، أعطاها ما رغبت من مال، ولكن القصر هو تاريخ عائلته وإرثه الذي لا يمنحه لأحد، ولكن أمام إيزابيلا لم يستطع أن يتواجه معها بتلك الحقيقة، ترك هو القصر حتى تأتيه معتذرة وآسفة وتعلنه بنبأ انهائها لتلك الحماقة. ولكنها لم تفعل!

ولم يدر ماذا يفعل! هل يذهب إليها ويطردها هي وعشيقها؟

نعم عشيقها، فهذا هو ما لم يستطع أن يواجه به نفسه في البداية، ولكن عدم مجيئها معتذرة وتلك الليلة التي على اليخت تخبره بقوة أن هذا اليوسف ما هو إلا عشيق لزوجته،

ثعبان يلف ويدور، تجذبه رائحة الفرائس الجميلة فيضع كل الخطط الممكنة لاقتناصها واسقاطها في شباكه.

فهل سقطت إيزابيلا ؟!

هذا هو السؤال الذي لم يستطع الإجابة عليه بجرأة، أو بموضوعية، فزواجه بإيزابيلا كان زواجا أختاره القلب وصدقه العقل. ربما هو ليس ذلك الرجل الذي يهيم عشقا في حب زوجته ليلا ونهارا، ولكنه الرجل الذي لا يسمح لإمرأة أخرى بأن تشارك زوجته في قلبه واهتمامه، لهذا لم يكن يرى نساء على الأرض غير إيزابيلا، هي كل نساء الأرض وحوريات الأساطير بالنسبة له، حتى وإن لم يخبرها بهذا أو يظهره لها بشكل واضح. إلا أنها بالتأكيد تعرفه، وتعرف أنه لا يهتم بأي شيء في هذا العالم سوى عمله وزوجته وولديه، ربما يأخذه العمل كثيرا منهم ، ولكنهم بالتأكيد يعلمون بحبه لهم، صحيح أن ولديه يقيمان مع زوجته الأولى ولا يراهما إلا على فترات متباعدة، إلا أنه لا يبخل عليهما بأي أموال يطلبانها. هم الآن في سن الشباب ولديهما اهتمامات كثيرة ولهذا لا يظن أن بعده عنهما يسبب لهما أي مشكلة نفسية.

هكذا كان دائما يطمئن نفسه ويخبرها أنه يفعل الصواب دائما وليس عليها أن تقلق فأحبائها بخير.

ولكن إيزابيلا الآن تهدم هذا السلام الذي كانت تعيش فيه نفسه، الآن عليه أن يعيد التفكير في هذا السلام المزعوم، وهل حقا أحباؤه يعلمون بحبه لهم وليس بحاجة إلى أن يُظهر لهم حبه بشكل أكبر؟

عندما خرج غاضبا لم تحاول إيزابيلا منعه، لأنها لم تفهم سبب ثورته، ورأت أن رد فعله مبالغا فيه جدا، كانت هي الأخرى في حالة غضب، كلماته كانت قاسية وأسلوبه أهانها لم تعتد منه على تلك المعاملة، منذ زواجهما والتفاهم بينهما هو الطريق الذي يسيران عليه معا دون أدنى انحراف، ما الذي حدث اليوم ليجعل عجلة القيادة تنحرف من بين أيديهما وتنقلب عربتهما بهذا الشكل!

تشعر في داخلها أنه يشك في علاقتها بيوسف، وأنه لم يصدق ما قالته حول تلك التجربة، التصرف الوحيد الملائم الآن هو أن تقوم بإلغاء هذا التحدي وتعلن انسحابها وتذهب إلى زوجها وتخبره وتعيده إلى المنزل. ولكن هل تستطيع أن تفعل هذا حقاً؟

هي لا تستطيع، ولا ترغب. هذا ما عليها أن تعترف به لنفسها، هي لا ترغب في أن تظهر بهذا الضعف أمام يوسف هي لا ترغب في أن ترى زهوة الانتصار في عينيه.

عن نفسها تتمنى انهاء هذا الأمر كله، ولكن الأمور خرجت عن سيطرتها بشكل كامل. وبلا إرادة منها بدأ التحدي..

اتصلت هي بيوسف لتخبره بأن البيت قد تم إعداده لاستقباله، وأنه إن كان لازال مصمما على خوض تلك التجربة فليأتي.

_ بالتأكيد أنا مصمم، سآتي بعد غد، هناك بعض الأمور التي يجب عليَ ترتيبها وتسويتها قبل رحيلي عن عالمي.

_ كما تريد، في انتظارك بعد غد.

_ هل أخبرتِ زوجك؟

ترددت قليلا في الرد ثم حسمت أمرها وقالت:

_ زوجي اعترض ولم يوافق وترك القصر غاضبا.

تمنت بعد أن أخبرته بهذا أن يتراجع هو، أن يقول بأنه لا يرضىَ بأن يتسبب في هذا الصدع في علاقتها بزوجه، ولكن يبدو أن صوت أمنياتها لا أحد يسمعه، فحياتها أضحت كالفراغ .

والصوت لا ينتقل في الفراغ..

_ هذا جيد، هكذا نبدأ التجربة في هدوء.

_ عن أي هدوء تتحدث؟! وهل زوجي كان سيسبب لجلالتك أي إزعاج محتمل؟!

_ لا أقصد هذا، وعفوا لأسلوبي الذي أوصل لكِ ما أريد قوله بطريقة خاطئة. أنا قصدت أنه لن يثير كثير من الأسئلة ويزعجك بالسؤال عني باستمرار، فلا أظن أنه سيتقبل حقيقة وجودي على بعد أمتار منه دون فضول أو تطفل.

قالت بغضب:

_ زوجي ليس فضوليا أو متطفلا، إن المتطفل الحقيقي هو الذي يريد أن يعيش في بيت رجلا آخر رغما عنه.

_ ...

لم يرد، لم تفهم هي لماذا لم يرد! كانت عبارتها مستفزة، وكان الرد الملائم لها هو الانسحاب ولكنها فوجئت به يقول:

_ موعدنا بعد غد، سلام إيزابيلا.

وأغلق الهاتف ! هكذا بدأ هذا الجنون ...

قبل مجيئه أعدت كل شيء، وكان عليها أن تحرص على ألا يسبب وجوده خللا في حياتها. ولكن غياب زوجها صنع هذا الخلل، الذي أكمله وجود يوسف على بعد أمتار منها ولا تستطيع أن تراه أو تكلمه.

عندما حضر إلى القصر جاء متنكرا، لم تتوقع هي هذا. كان يرتدي قبعة كبيرة وجاكتا طويلة وشعره أصبح لونه أحمر ونبتت له لحية خفيفة وعلى عينيه نظارة سوداء. ضحكت هي من مظهره هذا، الذي يبدو كمخبر خاص في إحدى الحلقات البوليسية. ولم يبالِ هو بضحكها، أخبرها فقط بأن أمتعته كثيرة ويحتاج لمن يساعده في نقلها من السيارة إلى البيت.

_ ما الذي يوجد في تلك الأمتعة؟

_ تسألين وكأنك ضابط أمن في أحد المطارات.

_ فلتعتبرني كذلك، اتفقنا أن لا تحمل معك هاتفا أو حاسوبا أو تلفازا أو أي شيء يربطك بالعالم الخارجي.

_ نعم، وأنا ملتزم باتفاقنا. هذه الأمتعة بها بعض ملابسي وأوراقي وكثير من اللوحات الفارغة والأوراق والألوان، وكل ما أحتاجه طوال هذين العامين.

ابتسمت هازئة وهي تقول:

_ هل تظن حقا أنك ستتم العامين؟ أعتقد شهرا واحدا سيكون كدهر بالنسبة لك وستخرج مستسلما قبل أن ينتهي.

نظر إليها وابتسامة تحدي في عينيه:

_ سنرى

هزت كتفيها بلا مبالاة وهربت من عينيه ونادت على حارس البوابة وطلبت منه نقل أمتعة يوسف إلى داخل البيت الصغير وسارت هي معه حتى وصلت إلى باب البيت وأعطته مفتاحا وقالت له:

_ هذا هو مفتاح سجنك، تستطيع الخروج وانهاء هذا العبث في أي وقت تشاء.

_ لست سجينا، أنا أعقد صفقة عمري، فلتعتبريني في رحلة عمل.

_ المهم أن تعتبر نفسك كذلك، ما تظنه سهلا ستكتشف بعد فترة أنه أصعب شيء مررت به في حياتك. بعض التجارب تهدمنا من الداخل، وتنتهي وقد تركت فينا جروحا غائرة لا يشفيها زمن أو تناسي.

_ وبعضها يرفعنا إلى قمم الجبال.

_ لا أظنك ستجد جبالا هنا، ومع هذا تفضل..

فلتبدأ الصعود.

اعطته ظهرها وهمت بالعودة إلى منزلها، فأمسك بذراعها، فالتفتت إليه بدهشة وغضب:

_ هل جننت؟!

_ لا، ولكن لم يحن أوان انصرافك بعد، ألن تدخلي معي لتريني المنزل من الداخل وتعرفينني بتفاصيل حياتي فيه؟

_ لا توجد تفاصيل كثيرة، ستمكث هنا وقد خصصت لك فتاة لتخدمك وتقوم بكل طلباتك من طعام وشراب وتنظيف.
أمرت كما اتفقنا بغلق كل النوافذ بأقفال خاصة وتم عمل كوات للتهوية بديلا عنها، كل من في القصر يعلم أنك قريب لي غريب الأطوار، ستعيش في هذا البيت فترة لظروف خاصة تمر بها. وطلبت منهم كتمان أمر وجودك. أعتقد أنهم يظنون بعد كلامي عنك أنك مجرم هارب من العدالة أتيت لتختفي عن أعين الشرطة هنا.

وابتسمت، كانت ابتسامتها جميلة جدا، خفق قلبه لها، فابتسم بدوره، اعجبها أن يبتسم معها، ثم مد يده لها بهاتفه كما اتفقا لأنه ليس مسموحا له أن يمتلك شيئا يربطه بالعالم الخارجي. أخذته منه ثم أدارت ظهرها وسارت مبتعدة، وهي تلوح له بيدها مودعة دون أن تلتفت. ظل يتأملها حتى غابت عن عينيه، ثم أخذ نفسا عميقا ودخل إلى سجنه المختار.

تجولت عيناه سريعا بين أرجاء البيت، بسيطا جدا ولكنه أنيقا ونظيفا، كان من الواضح أن كل أثاثه جديد، اعتنت إيزابيلا فعلا بكل شيء، وأعدت له منزلا مريحا وجميلا، أعجبه اهتمامها هذا وشعر بسعادة وهو يتخيل أنها فعلت هذا بدافع الحب.

نقل الحارس كل أمتعة يوسف فمنحه هذا الأخير مبلغا من المال فشكره وانصرف، وبعد دقيقتين جاءت فتاة وحيته بهزة من رأسها واتجهت إلى أمتعته وحملت إحدى الحقائب وسارت في اتجاه غرفة النوم. نادى عليها يوسف ليوقفها.

فاستدارت إليه متسائلة، فقال لها اتركي كل شيء كما هو، سأقوم أنا بترتيب أشيائي كما أريد

هزت رأسها علامة الفهم ، فسألها:

_ ما أسمك؟

أشارت له بيدها إشارات لم يفهمها، ولكنه فهم أنها بكماء لا تستطيع الكلام. مرت في خاطره إيزابيلا وهي تقول له أنها اعتنت بكل شيء فأصابته نوبة من الضحك لم يستطع التحكم فيها، وبريسيلا تنظر إليه بحرج، ظنت أنه يسخر من خرسها ولكنه أخيرا تمالك نفسه، واعتذر لها وقال بصوت لطيف ومهذب:

_ أنا آسف جدا، ضحكي ليس له علاقة بكِ، لقد تذكرت موقفا قديما هو الذي جعلني أضحك الآن . هل تستطيعين الكتابة؟

هزت رأسها علامة الإيجاب. فابتسم في ارتياح وأخرج من جيبه قلما ودفترا صغيرا ومد يده بهما إليها وطلب منها أن تكتب اسمها. فأخذت منه الورقة والقلم وكتبت بخط هزيل

" بريسيلا " .

كانت الأيام التالية لهذا اليوم تتسم بالاستكشاف والترتيب وتمهيد حياة ملائمة لمزاجه الخاص، وأهم ما استطاع عمله هو اتخاذه لتلك الغرفة الكبيرة كمرسم له، وصنع لها قفلا وأمر بريسيلا بعدم الدخول إليها تحت أي ظرف، كان يرغب في ألا يشاهد أحد لوحاته، أو أن يعلم بما يفعله فيها خشية أن

يتم تسريب خبر وجوده أو أن تتم سرقة اللوحات أو تصويرها وإذاعة خبرها. كان حريصا جدا على ألا يعلم أحد بتجربته تلك كما تسميها إيزابيلا قبل انتهائها.

الفصل السادس

_ ما بك؟!

_ أشعر بدوار وضعف، أشعر بالتلاشي.

_ كيف هذا! هل حقا هو أنت؟

_ نعم أخبرتك بهذا من قبل، كل ما يشعر هو به أشعر به أنا، والآن هو يتلاشى.

_ هل ستختفي؟

_ لا أعرف، ما أشعر به صعب وصفه.

فراغ يفصلني عن كل شيء، وكأنني أغوص في بحر ظلام كبير لا نهاية له.

_ تماسك، افصل نفسك عنه، اعد له روحه ولتحتفظ لنفسك بوجودك.

_ لا أستطيع، هو من يمنح ويمنع، لست سوى انعكاسا وصدى لحقيقته ووجوده هو.

_ وما العمل؟!

_ ....

_ لماذا لا تجيب؟!!

_ ....

هرعت بريسيلا إلى غرفة إيزابيلا، لتخبرها بغياب يوسف ومكوثه في مرسمه منذ يومين.

كانت إيزابيلا نائمة في فراشها، ايقظتها بريسيلا بهزة بسيطة على كتفها، ففتحت عينيها بتثاقل، فوجدت بريسيلا تحدثها بالإشارة وتخبرها بخبر يوسف. امتلأ قلبها بالخوف، وقفزت من فراشها، بدلت ملابسها على عجل وركضت حتى وصلت إلى بيت يوسف وهي تلهث، وجدت الباب مفتوحا فهرعت إلى الداخل حتى وصلت إلى باب المرسم، كان الباب مغلقا من الداخل طرقت الباب ولا مجيب، أشارت لها بريسيلا بأنها طرقته كثيرا وهو لا يجيب ويجب كسر الباب، فأمرتها إيزابيلا بأن تهرع إلى حارس البوابة وتأتي به ليكسر الباب. ركضت بريسيلا حيث الحارس ووقفت إيزابيلا أمام الباب وقلبها لا يتوقف عن الدق بقوة ولسانها لا يتوقف عن التوسل إلى ربها بألا يصيبه مكروه. كل تلك الشهور وهي تتمنى أن يخرج، أن يُعلن رفضه لسجنه وعودته للحياة ولكنه لم يفعل، ما الذي حدث الآن!!

عاد الحارس فأمرته بكسر الباب، حاول كسره عن طريق ضربه بقوة كتفه ولكن لم يفلح، فذهب وعاد بفأس صغير وقام بضرب الباب عدة ضربات في موضع القفل فأنفتح. فأسرعت إيزابيلا بالدخول. لأول وهلة فوجئت بعدد كبير من اللوحات في كل مكان وما استرعى انتباهها هو أن كل اللوحات التي وقعت عينيها عليها كانت تمثل صورتها هي وهو، أو هي بمفردها. أفاقت من تلك المفاجأة سريعا وبحثت بعينيها عنه، فوجدته نائما على الأرض محنيا على نفسه في وضع الجنين، فألقت بنفسها عليه تهزه وتقيس نبضه وتنادي باسمه، ولكنه لم يجيبها أو يتحرك، شكرت ربها أنها وجدت نبضا في عروقه، أشارت للحارس ليحمله ويذهب به إلى غرفة النوم حتى تستدعي الطبيب، وأمرت بريسيلا بأن تأتي لها بهاتفها من غرفتها ، هرعت بريسيلا لتنفذ الأمر وحمل الحارس يوسف وأرقده على فراشه ، فطلبت منه أن يذهب إلى عمله في حراسة البوابة وعندما يأتي الطبيب يأتي به إلى هنا فورا في صمت ولا يخبر أحدا بما حدث. خرج الحارس، وبقيت إيزابيلا بمفردها مع يوسف النائم في غيبوبته. كانت تشتاق إلى ملامحه، كانت تلك الشهور الكئيبة عقابا لها وتجويعا لقلبها، تحاملت هي على نفسها حتى لا تُظهر ضعفها، وتحامل هو على نفسه حتى لا يُظهر ضعفه، وغرقا هما الاثنان في بحر من الاشتياق لا نهاية له..

والآن هو راقد أمامها، يتنفس ببطء وذهنه عالقا في مكان ما بعيدا عنها، ليتها لم تره أبدا، ليتها لم تعرف الحب معه ولا هزمتها رايات عشقه.

عادت بريسيلا بالهاتف فشكرتها، وحملته بلهفة وطلبت طبيبها الخاص .

جاء الطبيب وبعد أن أتم كشفه على يوسف طمئنها بأنه بخير ولكن يبدو أنه يعاني من الإرهاق وضعف التغذية وهذا ما سبب له حالة الإغماء. نظرت هي إلى بريسيلا بعتاب، فخاطبتها الخادمة بلغة الإشارة مدافعة عن نفسها ومذكرة إياها بأنها أخبرتها من قبل بأنه يأكل القليل جدا من الطعام. وأنها لم يكن بيدها شيء. كتب له الطبيب على بعض الفيتامينات والمقويات، وحقنه في ذراعه بمادة مقوية ثم أخبرها بأنه سيستعيد وعيه بعد قليل ويجب أن يأكل جيدا بانتظام ليستعيد عافيته. وأمر بمنع كل أنواع المشروبات الروحية عنه. ثم انصرف، ومن بعد رحيله انصرفت بريسيلا بناء على أمر إيزابيلا لتحضر حساء الدجاج والخضر الذي طلبت منها اعداده ليوسف ولترسل أحد الخدم ليأتي بالأدوية التي وصفها الطبيب، وبقيت إيزابيلا وحدها معه. أحضرت منشفة نظيفة وبللتها ببعض الماء وجلست بجواره ومسحت بها وجهه ورقبته، فعرقه كان غزيرا بسبب حالة انخفاض الضغط التي أصابته وتسببت له في الاغماء. بعد أن انتهت جلست تتأمله وتتذكر كل ما مر بها منذ عرفته، وكيف انقلبت حياتها رأسا على عقب وأنتفض قلبها بين ضلوعها معلنا سقوطه في حبه. تنهدت بحزن ثم نهضت وخرجت من غرفته وذهبت إلى المرسم، لتعيد النظر في

لوحاته ولتتأملها على مهل. سارت ببطء داخل الغرفة، جالت بعينيها بين لوحاتها، حتى وقفت أمام آخر لوحة كان يرسمها والتي تقف هي فيها معه تحت سماء زرقاء، ينظران إلى بعضهما، في عينيه نظرة عتاب وفي عينيها لا مبالاة! تضج اللوحة بالحياة..

كل تفصيله فيها تأخذ اللب من جمال ابداعها ودقة رسمها، وكأنها صورة فوتوغرافية، وهذا ما كان يميز دائما ابداعات يوسف، إلا أنه في هذه اللوحة تغلب على نفسه وأكتمل إبداعه بشكل مثير للدهشة!

أخذت تتأمل الصورة، نسيت الأرض التي تقف عليها وما حدث منذ لحظات، أخذتها تفاصيل اللوحة كلياً، ولولا أن التنفس عملية لا إرادية لنسيت أن تتنفس..

******

_ يوسف هل تسمعني؟

_ هذه أول مرة تناديني فيها باسمي!

_ وهذه أول مرة أشعر فيها بما أشعر به الآن.

_ بماذا تشعرين؟!

_ بالحياة.. بالامتزاج مع كيان آخر يمدني بطاقة لا أفهمها تسري بداخلي وتتسرب لعقلي وقلبي.

_ أصبح لكِ عقلا وقلب! لقد حدث إذًا.

_ ما الذي حدث؟!

_ أصبحتِ انعكاسا حقيقيا لها، ألا تشعرين بها؟

_ نعم، هي بداخلي، أشعر بامتزاجنا.

_ الآن تفهمين كل ما أخبرتك به سابقا ولم تصدقيني فيه.

_ ما الذي أتى بها إلى هنا؟ ليتها لم تأتِ.

_ جاءت لتنقذني وتنقذه.

_ تذكرت..! أين كنت؟ ناديت عليك كثيرًا ولم تجب!

_ كنت هناك حيث اللا شيء. ثم عدت حين ناديتني باسمي.

_ لا أحب ما أشعر به الآن، فهو مخيف.

_ وما هو؟

_ لن أخبرك.

_ حتى وأنا بهذا الضعف؟ تعلمين أنني انتظرتك كثيرًا.

_ وأنا كذلك.

_ تعترفين الآن؟

_ نعم أعترف.

_ تعترفين بماذا؟

_ أُحبك..

_ ليتها أتت منذ زمن، لا تتخيلي كيف أن سعادتي بكِ تكاد تجعلني أركض.

_ ليت الخيال حقيقة، لكنت ركضت معك.

_ عندما يركضان هما سنركض نحن..

_ هل حقًا سيفعلان؟ هل حقًا ذلك الحب ولد ليعيش أم هو توأم الموت!

_ توقفي عن تشاؤمك، لا تفسدي عليَ روعة تلك اللحظة.

_ تلك الروعة هي المخيفة، أخاف أن أفقدك.

_ لن تفقدينني أبدا.

"******

عادت إيزابيلا إلى غرفة يوسف، كانت تنزع قدميها نزعا في كل خطوة، وكأنها تسير في رمال متحركة. لم تتخيل أن يقضي عاما كاملا من عمره في رسمها! هل هذا جنون فنان أم جنون عاشق؟!

هذا السؤال ظل يتردد صداه داخلها. لمحته يتململ في فراشه فاقتربت وجلست على حافة الفراش وهي تنظر إليه. كم اشتاقت لتلك الملامح وذاك الوجود! تنهدت في صمت ولكن يبدو أن صوت تنهدها قد صك أسماع قلبه ففتح عينيه.

التقت نظراتهما للحظات، كان ينظر إليها ولم يستوعب بعد حقيقة وجودها بجواره، عقله لم يصل إلى درجة الوعي الكامل فظن أنها صورتها الخيالية التي لا تفارقه أبدا. ولكنه شعر بلمسة يدها على يده. هذا حفز كل خلايا الانتباه في عقله وجاهد ليصل لوعيه الكامل. وكانت بالفعل هي..

_ كيف حالك؟

_هل أنتِ حقا هنا؟!

ابتسمت في حنان وهي تقول:

_نعم.

_ لماذا لم تأتِ قبل اليوم؟

_اتفاقنا ينص على أن تكون معزولا بشكل كامل عن الناس وأنا من الناس.

_لهذا اخترتِ لي بريسيلا؟

هزت رأسها في خجل علامة الايجاب، فتنهد هو ولم يتكلم.

_ما بك؟

_أنتِ قاسية جدا.

_أنت من قسى على نفسه ورضي لها بهذا الوضع الغريب.

_الجائزة تستحق.

_ لا شيء يستحق أن تفقد حريتك من أجله .

_ نحن من نضع معايير وقوانين كل شيء ونفعل ما نراه صائبا.

_ لا أظن ما فعلته صوابا، انظر إلى حالك وما وصلت إليه وستعرف أن ما فعلته كان غباءَ.

_ولكنني أثبت أنكِ مخطئة بحقي، وأنني قادر على أن أكتفي بنفسي عن الجميع، وأنني من صنع نجاحي وأحصل بإرادتي على ما أريد.

_ لم تثبت شيئا. لست الآن سوى رجلا هزيلا وضعيفا ويائسا. ما الذي أوصلك إلى تلك الحالة مهزوما فاقد الرغبة في الحياة؟! هذا هو ما تسببه العزلة وتصنعه الحماقات.

_ ....

لم يجب فتنهدت، وقالت له بصوت آسف:

_أنا آسفة، ولكن رؤيتك بهذه الحالة أوجعت قلبي.

_وهل لديكِ قلب ليشعر؟ لو كان لديكِ قلب لسألتي عني طوال تلك المدة، لكنتِ جئتِ لزيارتي.

قالت بسرعة:

_إن اتفاقنا..

قاطعها غاضبا وهو يحاول أن يعتدل في فراشه بصعوبة ليجلس:

_ تبا لاتفاقنا، هناك عدل لكل شيء، وأنتِ لم تعدلي معي.

أجابته بغضب مماثل:

_عن أي عدل تتحدث وأنت تعقد معي صفقة دنيئة لتملكني بها؟ تريدني أن أكون جاريتك وأن تنال شهرة مدوية على أكتاف خسارتي والتشهير بي وإهانة زوجي! أين العدل في قوانينك يا سيدي؟! لا تنتظر مني عدلا؛ أنت من صنع تلك الحفرة وأنت من سقط فيها، وها أنت وقبل انتهاء المدة تعلن هزيمتك وضعفك وعدم قدرتك على المواصلة! عزلتك كادت تقضي عليك لأنك بدون جمهور يصفق لك، افتقدت معجبيك ونسائك، افتقدت حياة الترف والسهر. كل ما قلته عنك كان

صحيحا، وأنت مجرد معاند ومكاب، ترفض أن تعترف بخسارتك.

كان يسمعها وقلبه به مائة حرب وألف معركة. صمد عاما كاملا، حرم نفسه من كل شيء، عزل نفسه عن الحياة كلها، حتى ينالها، ويصنع لنفسه مجدا لم يصنعه أحد من قبله. وها هي بكل بساطة تقول له "أنت خاسر"!

هتف صارخا وجسده كله ينتفض:

_توقفي.. توقفي. لا أسمح لكِ بأن تفعلي هذا، لن أسمح لكِ بتحطيمي. شهور وأنا أعاني الوحدة ويعذبني الشوق إليكِ ويحرقني الحنين لحياتي السابقة، أيام وليالي عشتها وحيدا لا أكلم أحدا ولا أسمع أحد ولا أرى سوى بريسيلا، رؤيتها هي الشيء الوحيد الذي يجعلني أتأكد بأنني على قيد الحياة وأن كل ما أنا فيه حقيقة. نعم ندمت..

ندمت على تلك الصفقة الغبية، لم أكن أتخيل أنني سأعاني بهذا الشكل. ربما لوِ قمتِ بزيارتي من آن لآخر لتحملت أكثر ولكنك تركتني وحدي، تنهشني الوحدة قطعة قطعة وتتآكلني الليالي الموحشة ببطء. صنعت لنفسي عالما آخر ليس به سوى طيفك، عشت معكِ في خيالي، عشرات الأفكار التي كانت تراودني لأصنع منها لوحات رائعة امتزجت وتجسدت في ملامحكِ وجسدك، ولم تعد يدي تطاوعني على رسم غيرك، أنا وأنتِ وألف حزن..

بكيتك وبكيت نفسي حتى نسيت لِمَ أبكي! اختلطت كل الأشياء وغامت الرؤية. كنت بالأمس سأعلن لكِ انسحابي من تلك اللعبة، رسمت وجهك سعيدا بالفوز، كنت سأرسله لكِ

لتفهمي أنني أعلن لكِ ولنفسي فوزك، وأنني خسرت صمودي أمام شوقي، نعم اشتقت لكِ حد الموت، وليس للموتى كبرياء، فلم أعد أملك القدرة على معاندة قلبي الذي يستصرخني كل يوم ليراكِ، ليكن بقربك.

أنتِ المقيمة على مسافة أمتار ما أبعدك! ما أطول الطرق التي بين قلبينا برغم قرب أجسادنا! قاسية أنتِ حد السيف والزيف، كمشنقة للحياة وفي حبك ألف موت.

كان يتكلم وكأنه لا يراها.. يخاطب خيالا ويبكي له ومنه. لم تشعر بنفسها و بدموعها وهي تنساب على وجنتيها، ولكنها شعرت بالألم وهو يشق قلبها نصفين. لم يخطر ببالها أنه يمكن أن يكون قد أحبها، وأن يكون هذا الحب مخلصا لدرجة الانكسار التي تراه عليه الآن! كانت تظن أنها فقط العاشقة المشتاقة وأن هذا البعيد كالنجوم المضيء كالشمس المرتفع كالسماء، الزاهي ك كوكب متفرد غارق في عشق ذاته يمكن أن يعشقها!

كانت تتمنى فقط أن تراه، أن تكلمه، أن تجلس بالساعات أمام فنه مشدوهة. كيف لها أن تصدق الآن أن هذا الطاووس بكل غرورة يمكن أن يقع في حبها وأن يتعذب بهذا الحب! كلمة أحبك ماجت داخلها، كانت تريد أن تنطلق، وبمجرد أن وصلت لسانها وقبل أن تقولها.. عادت بريسيلا وهي تحمل صينية الطعام والأدوية، فمسحت إيزابيلا دموعها سريعا، ونهضت لتحمل عنها الصينية ووضعتها أمام يوسف وهي تقول له بحنان:

_يجب أن تأكل، نستطيع أن نكمل حوارنا بعد أن تسترد صحتك.

نظر إليها وكل عينيه حب، فمدت يدها بملعقة الحساء وهي تنظر إليه مشجعة ليشربها ففعل.

وظلت تطعمه بيديها حتى أكتفى، ثم أعطته الدواء وأشارت لبريسيلا بأن تأخذ الصينية، وأن تنتظرها في القصر.

خرجت بريسيلا، فقالت إيزابيلا:

_هيا سأساعدك لتذهب إلى الحمام، يجب أن تغتسل وتنعش جسدك ببعض الماء الدافئ.

نهض معها مستسلما كطفل صغير يسير بجوار أمه.

****

وقف بيدرو ساهما في شرفة غرفته، مر شهر كامل منذ ترك منزله وبدأت إيزابيلا تلك التجربة المزعومة . لم يتوقع أبدا أن تفعل إيزابيلا هذا وأن تدير له ظهرها! كيف تغيرت بهذا الشكل؟ منذ خمس سنوات وهما يعيشان في هدوء وتوافق، كيف يظهر شخص كهذا الرسام المختال ويسرق منه أجمل ما في حياته؟! هل يتركها له بهذه البساطة؟

هذا هو ما كان يفكر فيه بجدية، ووجد أنه لا يستطيع أن يتركه يأخذها منه، ليس طبعه طوال حياته الاستسلام، وبالتأكيد لن يفعل الآن..

ارتدى ملابسه وخرج من غرفته واتجه إلى موظف استقبال الفندق وطلب منه أن يجهز له حسابه، فسوف يترك الفندق اليوم في المساء. ثم خرج من بوابة الفندق واستقل سيارته واشعل محركها وانطلق بها وفي عقله كانت الأفكار تتصارع وصل إلى مقر عمله، حيث جامعة غرناطة. أوقف سيارته وارتجل منها وعبر بوابة الجامعة وسار حتى وصل إلى مكتبه، جلس ووضع حقيبته ثم قام بإجراء مكالمة:

_ ديفيد أريدك فورا، تعالى إلى مكتبي أريدك في أمر هام.

_ سأكون عندك بعد نصف ساعة.

_في انتظارك.

أغلق الهاتف ورجع بظهره إلى الوراء وهو يفكر في ما هو مقدم عليه وكيف سينهي تلك اللعبة التي لم يختارها.

بعد نصف ساعة بالضبط كان ديفيد يدق الباب ويستأذن بالدخول، فأذن له بيدرو.

دلف ديفيد إلى داخل المكتب، وتقدم إلى حيث يجلس بيدرو خلف مكتبه العتيق، وقال بتهذيب:

_أنا في خدمتك أستاذي.

ابتسم له بيدرو ثم قال وعلامات الجدية ترتسم على وجهه:

_تفضل اجلس، ما أريده منك يحتاج إلى بعض الحديث والتوضيح.

جلس ديفيد وهو ينظر إلى استاذه باهتمام .

ديفيد كان أحد طلبة بيدرو النبهاء، لاحظ بيدرو ذكائه واتقاد أفكاره ونبوغه فقربه منه، كان يستعين به لمساعدته في اجراء بعض البحوث أو البحث عن بعض المراجع. وله فيه مآرب أخرى، مثل أن يوكل إليه بمهمة مثل تلك المهمة التي يريده بشأنها اليوم.

_ أريدك أن تأتيني ببعض المعلومات.

_ في خدمتك أستاذي، ما طبيعة تلك المعلومات؟

_ يوجد رجل يعيش في بيت صغير ملحق بقصري، أريد منك أن تنقل لي كل ما يحدث داخل ذلك البيت الصغير.

بيدرو رجل تفكيره علمي، لا يتحرك إلا بناء على معلومات مؤكدة، لهذا وقبل أن يقوم بتلك الخطوة التي يفكر فيها، كان يريد أن يتأكد من أن إيزابيلا تخونه مع هذا الرجل العربي.

_ عفوا ولكنني لا أفهم! طالما أنه يعيش في بيتك فأنت تعرفه! هل تريدني أن أزرع كاميرات في هذا البيت لترى كل ما يفعل؟ أم تقصد أن أرى شيئا محددا هناك وأخبرك به؟

_ في الحقيقة نعم، أنا أعرف من هو ولكن لا أعرف ماذا يفعل في هذا البيت، زوجتي هي من أسكنته فيه، وأريد أن أعرف سبب وجوده، وهذا ما سأفهمه لو عرفت كيف يقضي وقته فيه.

لم يشأ أن يخبره مباشرة بشكه في زوجته, وبأن هذا البيت ربما يكون وكرا للعشاق، أبت كرامته أن يذكر هذا وفضل

أن يأتيه مساعده بتلك المعلومة ليكن تأكيدها ليس مجالا للشك.

_ حسنا، سأفعل. ولكن كيف سأدخل القصر ومن ثم هذا البيت؟ هل ستسمح لي بالدخول أم عليَ أن أتسلل داخله دون أن يراني أحد؟

_ يعجبني فيك ذكائك وتحديدك لكلماتك. ستضطر يا عزيزي إلى أن تتسلل إليه، لا أستطيع مساعدتك بأي شكل، فأنا لا أقيم حاليا في القصر لأسباب ستعرفها لاحقا.

ليس من عادة ديفيد أن يجادل كثيرا أو أن يلح في طلب تفاصيل لا يريد أستاذه أن يبوح بها، لهذا اكتفى بما قاله له بيدرو ونهض مستأذنا ليستعد لمهمته وينفذها على أكمل وجه كما تعود. وهذه أول مهمة يكلفه بها أستاذه بعيدا عن مجالهم العلمي ولا يريد أن يخذله فيها.

ومنذ خرج من مكتب بيدرو وهو يفكر كيف سيفعل ما أمره به!

ذهب إلى القصر وتجول حوله بحثا عن طريقة لدخوله. كان القصر يقع في منطقة نائية نوعا ما، أقرب بيت له على بعد ألف متر تقريبا. وهذا ما يجعل وجوده حول القصر مريبا، فليس واردا أن يتواجد حوله إلا من يقصده.

سور القصر مرتفع، هذا يجعل عملية تسلقه شبه مستحيلة، يبدو كقلعة محصنة في وجه أعدائها، وعلى هؤلاء الأعداء أن يلجؤوا للحيلة وليس للألعاب البهلوانية إن أرادوا الدخول

إلى تلك القلعة. وهذا ما فكر فيه ديفيد وهو يتجول بحذر حول سور القصر. حتى جاءته الفكرة المناسبة، فسار عائدا من حيث أتى لينفذ خطته ويستعد لها.

عاد إلى بيته، وجلس أمام حاسوبه وفتحه وبدأ ينقر بضعة كلمات في باحث الإنترنت، عن أماكن بيع كاميرات مراقبة ومستلزماتها. وأدوات قياسية خاصة بمهندسي الغاز الطبيعي وزيهم الخاص. حصل على عناوين أقرب المحلات إليه، وتوجه إليهم مباشرة، فهو كالعادة متحمسا لتنفيذ ما يُطلب منه.

حصل على ما يريد ثم لجأ إلى صديق من أولئك الأصدقاء الذين يتعاملون مع كل أصناف البشر ويعرفون كل دروب الحياة وتعرجاتها وأبوابها الخلفية، وطلب منه مساعدته في الحصول على بطاقة عمل خاصة بشركة الغاز، بالطبع كانت البطاقة ستكون مزيفة ولكن لن يكشفها أحد من الأشخاص العاديين وهو المطلوب، حصل على البطاقة في اليوم التالي، ارتدي الزي والصق بصدره بطاقة العمل، وأصبح مجهزا بكل ما يحتاجه وعاد إلى القصر. ترجل من سيارته في الشارع الخلفي للقصر خشية أن يراها أحد، فلم يتسنى له الحصول على سيارة خاصة بشركة الغاز. لهذا كان الأمر يتطلب بعض المهارة الكلامية للتغطية على هذا النقص. حمل صندوق أدواته واتجه إلى بوابة القصر وهو يرتدي الزي الرسمي للعاملين بمثل تلك الشركات.

أوقفه الحارس وسأله عن سبب قدومه:

_ جئت لمعاينة توصيلات الغاز بهدف الصيانة الدورية

_ هل جئت على قدميك ووحدك؟!

_ سيارة الشركة تقوم بتوصيل كل منّا إلى المكان المخصص معاينته وفق خطة تنظيمية محددة، ولكن السيارة تعطلت في الشارع الخلفي، فاضطررت للسير حتى هنا. هل تسمح لي بالدخول فالوقت يمر ويجب أن تتم المعاينة والصيانة اليوم لتقديم التقرير غدا.

_ حسنا تفضل.

دخل ديفيد بخطوات ثابتة وعبر البوابة، وسار نحو باب القصر الداخلي وهو يتجول بعينيه ليدرس المكان جيدا وليبحث عن مكان البيت الذي يعيش فيه ذلك الرجل الغامض لمح البيت يقبع على شماله بعد حوض زهور نادرة، تصرف بحكمة وظل محتفظا بخطواته نحو باب القصر لأنه يعلم أن الحارس يقف عند البوابة ونظراته مسلطة على ظهره. طرق الباب بالمطرقة الحديدية التي تدلى منه وأنتظر دقيقة، فُتح الباب وظهر رجل خمسيني خمن أنه الخادم، عرفه بنفسه وطلب منه أن يوصله إلى المطبخ لمعاينة أنابيب الغاز وتوصيلات الموقد. سمح الخادم له بالدخول وسار أمامه حتى أوصله إلى المطبخ وأدخله إليه ووقف على الباب في انتظار انتهائه من المعاينة. هذا لم يمنح ديفيد فرصة للتصرف بحرية، فأضطر إلى التظاهر بالمعاينة من واقع مشاهداته لمثل تلك الأعمال ذات مرة. ثم أعتدل وقال للخادم:

_ أريد أن أفحص الأنابيب الخارجية.

أشار له الخادم إلى باب داخلي للمطبخ وقال له:

_ هذا الباب سيصل بك إلى خلف القصر حيث توجد الأنابيب الرئيسية.

شكره ديفيد وفتح الباب وخرج منه وأغلقه خلفه وأصبح وحيدا خارج القصر وقريبا من البيت الهدف.

اقترب بحرص منه وهو يتلفت حوله ليتأكد بأنه لا أحد يراه. دار حول البيت بحثا عن منفذ للدخول إليه. ولدهشته وجد البيت مغلق النوافذ بشكل محكم وبدون زجاج بل نوافذ خشبية فقط! رفع رأسه وتأمل البيت جيدا فأكتشف وجود كوات للتهوية على أماكن مرتفعة يصعب الوصول إليها، حتى وإن استطاع التسلق فهي صغيرة ولا تسمح بعبور جسده!

لم يكن أمامه سوى أن يدخل البيت من الباب، وبنفس الوسيلة التي دخل بها من بوابة القصر وإلى القصر. أخذ نفسا عميقا ثم توجه مباشرة إلى باب البيت وطرقه. ولكن لم يجيبه أحد! ظل يطرق وأخيرا فُتح الباب عن فتاة نحيفة ذات وجه طويل سوداء الشعر ورقيقة الملامح كانت هذه الفتاة هي بريسيلا . ابتسم لها وقال كذبته المعتادة: "جئت لمعاينة أنابيب الغاز والتوصيلات الخاصة بالموقد"

الفتاة لم ترد عليه ولكنها اكتفت بهز رأسها علامة الفهم، ثم تنحت جانبا لتسمح له بالدخول. دلف ديفيد إلى داخل المنزل تجول بعينيه بشكل سريع والفتاة تسير أمامه إلى المطبخ. وصلا إلى المطبخ فأشارت له الفتاة بالدخول، ثم تركته وانصرفت. وقف حائرا: "لماذا لا تتكلم هذه الفتاة؟ وأين هذا الرجل الذي أخبرني أنه يقيم هنا وحده؟!" لا يهم هذا الآن

عليَ أن أزرع الكاميرات كما طلب مني أستاذي وأنصرف دون أن أثير الشك" .

فتح الحقيبة التي يحملها على ظهره، أخرج منها ثلاثة كاميرات دقيقة من أحدث الكاميرات والتي تسجل صورة وصوت والتي تعمل فقط عند وجود حركة أو صوت وتدور ٣٦٠ درجة، ويتم التحكم فيها من على بُعد عن طريق حاسوب متصل بهذه الكاميرات عن طريق شبكة الإنترنت. قام بزرع واحدة في المطبخ في المصباح المتدلي من سقفها بالاستعانة بمقعد صعد عليه، وألصق الكاميرا على الهيكل الخارجي المعدني للمصباح . ثم هبط سريعا واعاد المقعد إلى مكانه، وخرج متحسسا خطواته خارج المطبخ وهو يبحث بعينيه عن الفتاة، وعندما لم يجدها صعد على المائدة ووضع كاميرا أخرى على الثريا الكبيرة المدلاة من سقفها. قفز إلى الأرض عندما سمع خطوات قادمة، كان القادم رجلا طويل القامة عربي الملامح ووسيم، يرتدي معطف أبيض يبدو أنه خاص بالرسامين فبقع الألوان كانت منتشرة فيه بشكل عشوائي، ولكنه لم يتعرف عليه، ديفيد قضى سنوات حياته في القراءة والبحث العلمي وتحصيل العلم ولم يهتم يوما بأي نوع من الفنون. نظر يوسف إليه في تساؤل! فسارع ديفيد بالإشارة إلى البطاقة المعلقة على صدره وهو يقول:

_ جئت لمعاينة أنابيب الغاز وصيانتها.

_ وماذا تفعل هنا؟ أظن أن مكان عملك هو المطبخ.

_ نعم ولكنني خرجت أبحث عن الآنسة التي فتحت لي الباب لأسألها عن أي مشاكل تواجهها في الموقد وهل تشم رائحة تسريبا للغاز أحيانا أم لا.

هز يوسف رأسه علامة الفهم، وقال بهدوء وهو يشير إلى غرفة في نهاية الرواق:

_ بريسيلا ربما الآن في غرفة النوم لتنظفها، أطرق الباب وأسألها، ولتعلم أنها بكماء فحاول أن تتعامل معها بالإشارة قدر الإمكان، هي تجيد تلك اللغة.

ثم أعطاه ظهره واتجه إلى مرسمه دون أن ينطق بكلمة أخرى وترك ديفيد واقفا في ردهة المنزل. هذا الشخص أثار فضول ديفيد "بالتأكيد هذا هو الضيف الغامض، ولكن من يكون؟"

تبقت كاميرا واحدة وكان من المفترض أن يضعها في غرفة النوم، ولكن هذه الفتاة في الغرفة تنظفها، فكيف سيخرجها منها ليدخل هو ويزرع الكاميرا! هذا ما فكر فيه وهو يتجه حيث أشار له يوسف. وصل إلى الباب وطرقه وانتظر. فتحت بريسيلا الباب ونظرت إليه مستفسرة عن سبب طرقه.

فقال بابتسامة مهذبة وجذابة:

_ لقد انتهيت من فحص الأنابيب والموقد، ولكن هل تسمحين بإشعال الموقد وتجربته أمامي لأطمئن ولتتأكدي أن كل شيء على ما يرام؟

هزت بريسيلا رأسها علامة الموافقة وتنحى ديفيد جانبا ليسمح لها بالمرور وسار خلفها حتى المطبخ، وقف بجانبها

وهي تُشعل الموقد، فقال لها أنه يجب أن يظل مشتعلا خمس دقائق على الأقل، وإن لم تشم رائحة الغاز فهذا معناه أن التوصيلات جيدة.

أطاعت بريسيلا ما أمرها به ووقفت منتظرة مرور الخمس دقائق وحمل هو حقيبته وهو يقول:

_ لن أرهقك معي، أعلم أين باب الخروج، لو شعرتِ بتسريب اتصلي بنا وسنأتي فورا لإصلاحه.

وحياها برأسه وخرج من المطبخ، ولكنه لم يتجه إلى باب الخروج، بل هرول مسرعا إلى غرفة النوم، وصعد على الطاولة الصغيرة التي بجوار النافذة المغلقة بقفل، وهذا ما أثار دهشته بشدة ولكنه سارع بلصق الكاميرا في تجويف حافة النافذة العلوية المزخرفة. فلم تكن ظاهرة أبدا إلا لعين متفحصة ودقيقة. انتهى سريعا وحقيبته على كتفه واتجه بخطوات خفيفة ولكنها مهرولة نحو باب الخروج وفتحه وفي ثانية واحدة أصبح خارج هذا المنزل الغريب. ولكنه لم يلحظ بريسيلا التي وقفت على باب المطبخ ورأته وهو يتجه إلى الباب خارجا من غرفة النوم، ولم تجد تفسيرا لما كان يفعله فيها سوى أنه ربما يكون قد سرق شيئا. فاتجهت إلى الغرفة ونظرت فيها متفحصة ولكنها وجدت كل شيء في مكانه، وهذا ما جعلها في حيرة..

عاد ديفيد إلى أستاذه وهو في قمة السعادة لأنه استطاع أن ينفذ مهمته على خير وجه، كان متلهفا لرؤية نظرة الرضا في عينه، فمنذ أن أصبح هو الطالب المقرب له ومساعده تولد داخله شعورا بالفخر والتميز، وحرص دائما على أن

يكون عند حسن ظن استاذه، وأن يفعل كل ما يأمره به دون أسئلة كثيرة وبإتقان شديد.

لم يجده في مكتبه فسأل عنه وعلم أنه في قاعة المحاضرات يلقى إحدى محاضراته، فجلس منتظرا في مكتبه. وفتح حقيبته وأخرج شريحة إلكترونية دقيقة هي التي سيتم استقبال ما تبثه الكاميرات التي قام بزرعها عليها عن طريق الإنترنت وعلى أستاذه أن يقوم بتركيبها في حاسوبه ليتصل بتلك الكاميرات. تأكد منها وفحصها جيدا، ثم وضعها على المكتب وجلس بهدوء ينتظر عودة بيدرو.

في ذلك الوقت وبعد أن انتهت بريسيلا من عملها داخل منزل يوسف، خرجت متجهة إلى القصر لتحضر له الغداء كما تعودت، ومازال مشهد خروج هذا الشاب من غرفة النوم لا تفارق ذهنها، وعزمت على أن تخبر سيدتها بعد عودتها من عملها.

إيزابيلا كانت في تلك الساعة تجلس مع زميلتها تيلدا، كانتا في نقاش عن أحد الكتب الخاصة بتخصصهما والذي اهدته ايزابيلا لها. كانت العلاقة بينهما جيدة، وأفضل ما تكون بين صديقتين. تيلدا شخصيتها تختلف كثيرا عن ايزابيلا، فهي مرحة جدا ومتفائلة دائما وأقل في الذكاء من إيزابيلا، ولكنهما بشكل ما يكملان بعضهما، وكلتاهما تجد الجزء المفقود من شخصيتها في الأخرى، وهذا ما جعل صداقتهما تستمر من أيام الدراسة في الجامعة وحتى الآن، كانتا تتحاوران في محتوى الكتاب ولكن تيلدا شعرت بأن أفكار

إيزابيلا في مكان آخر حيث أنها كانت تطلب من تيلدا أن تعيد كلامها مرة أخرى قبل أن ترد عليها، لهذا توقفت، فاستيقظت ايزابيلا على صمت صديقتها و نظرتها:

_ ما بكِ؟ لماذا تنظرين إليَ هكذا؟!

_ منذ فترة وأنا ألاحظ تغييرا عليكِ، ظننته إرهاقا في البداية بعد تلك الفترة التي قضيتيها في بحثك الأخير. ولكن أشعر الآن بأن هناك شيء ما لا أعرفه يشغل رأسك ويحرمك من راحتك.

تنهدت إيزابيلا وعادت بظهرها للوراء، ولم تشعر برغبة في الإنكار، فهذه هي صديقتها تيلدا التي تعرف عنها كل شيء وتفهمها أكثر من نفسها وتثق بها والأقرب إلى قلبها.

_ نعم تيلدا، هناك ما يشغلني. ولكن للأسف من الصعب أن أبوح لكِ به.

_ ولِمَ؟!

_ الأمر جنوني بشكل لا استطيع وصفه أو الكلام عنه، كما أنه يحوي سرا لا يخصني وحدي، لهذا لا استطيع أن أشرح لكِ تلك الدوامة التي أعيش فيها.

نظرت تيلدا إليها بقلق.. هذه أول مرة ترى صديقتها بهذه الحيرة وهذا الحزن، كانت دائما كالقطار الذي يسير دون توقف أو التفات، باستثناء وقوعها في حب هذا الرسام مؤخرا! وأشتعل المصباح في عقل تيلدا، بالتأكيد الأمر يتعلق بهذا الرسام الشهير الذي تعلقت به إيزابيلا منذ شهور.

_ هل الأمر متعلقا بيوسف الرسام؟

هزت إيزابيلا رأسها في إقرار حزين ويائس.

_ لا بد أن تروي لي كل شيء.

_ صعب عزيزتي، تلك القصة لا تُروى.

_ يبدو الأمر غامضا جدا، وهذا يزيد في شغفي لمعرفته.

ثم بطريقة مسرحية جلست على ركبتيها وأخذت تتوسل لإيزابيلا بأن تخبرها، فضحكت إيزابيلا رغما عنها وهي ترى تيلدا كطفلة لحوحة ولم تملك سوى أن تستسلم وتروي لها كل شيء بالتفصيل.

كانت إيزابيلا تروي وعلامات الدهشة ترتسم على وجه تيلدا كان الأمر بالفعل غير قابل للتصديق، ولكن لأن إيزابيلا هي من ترويه، فلم تملك سوى أن تصدق، فهي تعلم أن إيزابيلا مستحيل أن تكذب أو تمزح في أمر كهذا.

انتهت إيزابيلا من حكايتها وصمتت في انتظار تعليق صديقتها على ما روته.

_ لو أحدا آخر غيرك روى لي تلك الأحداث ما صدقته.

كم مر عليه الآن وهو في سجنه الاختياري هذا؟

_ حوالي شهر، ثلاثون يوما وهو يقبع في ذلك البيت. كنت أتوقع أن لا يتحمل أسبوعين، ولكنه حتى الآن صامد.

_بالتأكيد هو مجنون.

_نعم، أظن هذا.

_وأنتِ مجنونة أكثر منه لتقبلي بتلك الصفقة الغريبة! ما الذي ستجنيه أنتِ من هذا سوى التشهير بكِ وامتلاك هذا اليوسف لكِ! أي فكرة غبية جعلتك توافقين على هذا الاتفاق المهين؟!

_ الحب عزيزتي، حبي له جعلني ضعيفة فاقدة للتفكير السليم، مسلوبة إرادة الرفض. عندما أنظر في عينيه أنسى نفسي، أشتعل كجمرة، أذوب كقطعة ثلج. لا تتخيلي ما يفعله بي وجوده، حتى وهو قاطن في ذلك البيت على بعد أمتار مني أشعر به وأشتعل وأذوب في نفس الوقت. لم أعد أنا إيزابيلا القوية ذات التفكير العلمي المنظم. أصبحت تلك الفتاة العاشقة، التي دخلت مصيدة الحب بقدميها وقبلت أن تأكل الطُعم وأن تكون فريسة. عزائي الوحيد هو أن هناك أملا كبيرا في ألا يستطيع الصمود، هذا ما جعلني أوافق من البداية، يقيني بأنه لن يصمد ولن يستطيع البقاء طوال تلك المدة هو ما غرر بي لأخضع إرادتي له وأغيب عقلي وأوافق.

_ نعم. أنا مثلك أظن أنه لن يستطيع إكمال فترة العامين، فهي فترة طويلة جدا جدا، ولكن ماذا لو نجح وأتمها؟ لا أظنك على استعداد لمواجهة نجاحه وتنفيذ بنود الاتفاق.

_لا عزيزتي، لست على استعداد لأي شيء من هذا. زوجي لن يتحمل أمرا كهذا ولا التشهير به وبزوجته، هو سليل تلك الأسرة العريقة كيف تصبح زوجته جارية متعة لرجل عربي؟ هو يكره العرب بشدة ويراهم جميعا إرهابيين ولم ينسَ احتلالهم لبلادنا تلك القرون الطويلة البائدة. لن يتوقف

الإعلام عن تناول ذلك الاتفاق والتعرض لسمعتنا أنا وزوجي.

_وطبعا الرابح الوحيد سيكون يوسف. هو المنتصر الصامد الرابح، سيزداد شهرة وثروة وستكون لوحاته الأغلى والأشهر لفترة طويلة. وربما تكون تلك القصة هي أيقونة الحب وملهمة الكثيرين.

_عن أي حب تتحدثين؟ هو لا يحبني، يريد فقط أن يمتلكني أن يكسر كبريائي الذي رفضه، وأن يركع عقلي لإرادته، ويثبت أنه السيد ويعيد تاريخ أجداده المحتلين، يريدني جارية بلا كرامة بعد أن أهنت كرامته وجرحت نرجسيته.

_ ولماذا فعلتِ هذا وأنتِ بالفعل تحبينه؟

_لأن الحب ضعف، لم أرد أن أكون أبدا ضعيفة. قاومت مشاعري لأظهر له بتلك الصورة المتعالية، تتهافت النساء حوله، وأنا لست كأولئك النساء. ولا أرغب في أن يراني مثلهن.

_ ولن تكوني مثلهن أبدا، اذهبي الآن واطرديه من بيتك، انهي تلك المهزلة اليوم. لا شيء يجبرك على الاستمرار في تلك الصفقة الغبية.

_لا استطيع، هذا يعتبر انسحاب، والانسحاب معناه فوزه. وستكون الجائزة من حقه حينها أيضا.

شعرت تيلدا بالغضب، فضربت الأرض بقدميها وهي تصرخ:

_ما هذا العبث ؟! ما الذي بيده ليجبرك على إعطائه تلك الجائزة؟ ولماذا أراكِ بهذا الاستسلام الغريب؟

_اهدئي يا تيلدا، لا ترفعي صوتك المعهد مليء بالفضوليين ولا أريد أن يعرف أحد بهذا الأمر . كما أن ثورتك لا معنى لها، فلقد شرحت لكِ كل شيء وعليكِ أن تتفهمي الموقف الآن .

_أي موقف؟ لماذا تتمسكين بهذا الاتفاق؟

_لأنني لا استطيع التراجع عنه.

_لماذا؟!

_لأنني وقعت عقد اتفاق معه على تلك الصفقة في مكتب أحد المحامين.

فغرت تيلدا فاهها ببلاهة وسقط فكها لأسفل وصارت ملامحها عجيبة، فالمسألة بالنسبة لها أضحت خارج نطاق العقل بشكل كامل.

_كيف توقعين عقدا كهذا؟ هل جننتِ؟

تنهدت إيزابيلا في حزن ورفت دمعة صغيرة على جانبي عينيها وهي تؤمن على كلام صديقتها:

_نعم جُننت .

_متى حدث هذا؟

_بعد عودتنا من رحلة اليخت التي حكيت لكِ عنها، واتفاقنا على هذا الأمر، وبعد أن جهزت البيت لاستقباله، وحتى تلك

اللحظة كان الأمر إلى حد ما مسليا فبالنسبة لي لم يكن يعدو أن يكون لعبة ستنتهي سريعا، اتصلت به وأخبرته بانتهائي من إعداد كل شيء، فطلب مني أن نوثق اتفاقنا خشية تراجعي وطرده كما قلتِ أنتِ الآن. كان يعد لكل شيء عدته رفضت في البداية، ولكنه استفزني كعادته بأن قال لي "هل تخشين الخسارة؟ أم أنتِ واثقة من فوزي عليكِ؟! "

أمام تلك الكلمات المستفزة وكبريائي اللعين وافقت ، وذهبت معه إلى أحد المحامين الذين أثق بهم وعقدنا الاتفاق وتركناه معه، ولكن طلبت اضافة شرطا ووافق عليه بسهولة.

_وما هو هذا الشرط؟

_أن أحصل على ملكية نصف لوحاته إن خسر الاتفاق وانسحب قبل مرور تلك المدة.

_ هذا شرط قوي جدا، واحسنتِ إن أضفتهِ، هكذا يكون لتلك الصفقة فائدة. إن فعلا انتصرتِ أنتِ عليه. ولكن لا زلت لا أفهم ما الذي يمنعك من طرده وإلغاء ذلك العقد؟ وكيف رضي المحامي بكتابة مثل هذا الاتفاق العجيب؟!

_ ذلك المبلغ الكبير الذي منحه له يوسف جعله يوافق دون تفكير، ولا أستطيع إلغاء العقد، لأنه سيقوم بإرسال نسخ منه لكل وسائل الإعلام في حالة انسحابي وتراجعي عن الاتفاق. هذا مكتوب في العقد كشرط جزائي. هي دائرة مغلقة عزيزتي، فلا ترهقي نفسك بمحاولة إيجاد أي حلول، يوسف أذكى مما تظني وأعد لكل شيء عدته.

قالت هذا وتنهدت، وأعادت رأسها إلى الوراء وأغمضت عينيها، وغرقت في أفكارها.

جلست تيلدا تتأملها، شعرت بألم لحزن صديقتها، وحيرة من عبثية هذا الأمر كله، وعجزها عن مساعدة إيزابيلا العزيزة جعلها تشعر بالغضب الشديد.

ولكنها لم تشأ أن تزيد من ألمها فلاذت بالصمت.

الفصل السابع

دخل بيدرو غرفة مكتبه فوجد ديفيد يجلس في انتظاره، فحياه وجلس على مقعده وراء المكتب، وهو يسأله عن الأخبار.

قال ديفيد بفخر:

_فعلت كل ما أمرتني به، الآن تستطيع أن ترى وتسمع كل ما يحدث في ذلك البيت دون أن يعلم أحد.

_هل أخفيت الكاميرات جيدا؟

_ نعم فعلت، اطمئن، لن يتم كشفها.

_ هذا جيد، شكرا لك ديفيد وشكرا لذكائك واجتهادك.

ابتسم ديفيد في سعادة. أخرج بيدرو دفتر شيكاته من جيب معطفه وكتب فيه مبلغا من المال واعطاه لديفيد، الذي اتسعت عيناه فرحة بهذا المبلغ، ولكن بعد لحظه أعاده لبيدرو وهو يقول:

_شكرا لك أستاذي، لا أريد مالا، يكفيني رضاك عني.

_هذا حقك يا ديفيد، تكلفت مصاريفا كثيرة لتتمم تلك المهمة كما أنك تستحق مكافئة على مجهودك الرائع هذا. خذ ولا تخجل، هذا حقك صدقني.

مد ديفيد يديه بخجل وأخذ الشيك واستأذن في الانصراف فأوقفه صوت سيده حين قال:

_أخبرني قبل أن تنصرف ما الذي رأيته هناك ومن قابلت في هذا البيت.

_لم أقابل سوى هذا الرجل الغامض الذي كلمتني عنه وفتاة من الخدم لا تتكلم.

هز بيدرو رأسه متفهما، فلقد علم أنه يقصد بريسيلا. فسأل على استحياء:

_هل قابلت إمرأة أخرى هناك؟

_لا. لم أقابل سوى هذين الذين أخبرتك عنهما.

_حسنا ديفيد، شكرا لك وتستطيع الانصراف. نظر بيدرو إلى الشريحة الصغيرة الموضوعة أمامه، ثم نهض وحملها وحمل حقيبته وخرج من المكتب ومن ثم الجامعة كلها، وتوجه إلى غرفته بالفندق. قام بفتح حاسوبه الشخصي بعد أن ثبت به الشريحة، وفتح التطبيق الخاص بالكاميرات وظهر يوسف وهو يجلس على المائدة ويتناول غدائه في هدوء. لم تظهر الكاميرتان الآخرتان شيئا، فتأكد أن يوسف وحده في البيت. ظل يتأمله برهة وهو يأكل، ثم نهض وتوجه إلى الحمام، أخذ دشا وبدل ملابسه ثم اتصل بمطعم الفندق يطلب غدائه . وألقى نظرة على يوسف قبل ان يذهب إلى فراشه

ليتمدد قليلا قبل وصول الغداء. فوجده انتهى من طعامه ولكنه ظل جالسا دون حراك مما أثار فضول بيدرو فجلس يشاهده في صمت. ظلا على تلك الحالة حتى سمع بيدرو طرقا على الباب فنهض ليفتحه. كان القادم هو النادل يحمل الطعام الذي طلبه بيدرو. تناوله منه ووضعه على الطاولة والتفت في نظرة أخيرة نحو يوسف فوجده مستمرا في تلك الجلسة الحزينة!

مرت الأيام وبيدرو يقضي الساعات وهو يراقب يوسف، ولا يرى أحدا يزوره غير بريسيلا. كان يتوقع أن يجد إيزابيلا معه، كان يظن ان هذا البيت هو عش غرامهما، وأن ما أخبرته به عن تلك الصفقة الغريبة ليس سوى خدعة لتبرير وجود عشيقها بقربها. ولكن ما رآه من خلال تلك الكاميرات لم يتوقعه أبدا. فلقد رأى رجلا وحيدا تخدمه فتاة بكماء، الصمت يدوي في ذلك المكان والحزن يخيم بظلاله على كل شيء. كأنه يشاهد قبرا ويرى روحين غريبين يسيران فيه. لاحظ أن يوسف يقضي ساعات طويلة بداخل تلك الغرفة التي لم يضع ديفيد بها كاميرا، لم يكن يعلم ماذا يفعل يوسف داخل تلك الغرفة الغامضة ، حتى رآه مرة يخرج منها حاملا فرشاة ولوحة صغيرة قام بتعليقها على الحائط، زاوية الرؤية لم تمكنه من معرفة ما تحتويه تلك اللوحة، ولكنه فهم أن تلك الغرفة ماهي إلا مرسم خاص ليوسف، يقضي فيه الساعات ليرسم. وتذكر ما قالته له إيزابيلا من أن يوسف ينوي بعد تلك العزلة الاختيارية إقامة معرض كبير، يعرض فيه اللوحات التي رسمها خلال تلك الفترة، مر شهر آخر، وروتين حياة يوسف لم يتغير، ما بين حجرة النوم ومائدة

الطعام والحمام والمرسم يقضي أيامه. "أي حياة تلك التي اختارها هذا المجنون لنفسه؟!" هذا ما تردد في ذهن بيدرو وهو يختم شهر المراقبة التعس هذا، يعود من عمله فيقضي ساعات بائسة في مراقبة هذا البائس حتى كاد أن يصاب باكتئاب من تلك الساعات المملة. الشيء الوحيد الإيجابي في هذا هو أنه لم ير إيزابيلا مرة واحدة تدخل إلى هذا البيت طوال هذا الشهر الحزين. ومر شهر قبل أن يبدأ بيدرو في مراقبة يوسف، وها هو الشهر الثاني يمر. فيبدو حقا أن ما أخبرته به إيزابيلا حقيقة وأن هذه تجربة حمقاء يقوم بها هذا المجنون وأنه قد ظلم إيزابيلا ولم تخنه مع هذا العربي الغبي لهذا عزم على الذهاب إليها ومصالحتها..

كانت إيزابيلا تجلس في غرفتها تقرأ كتابا كعادتها قبل النوم سمعت طرقا على الباب:

_ من؟

فُتح الباب وظهر بيدرو.. شعرت بالدهشة لظهوره المفاجئ ولكن نظرة ترحاب حقيقية وإحساس بالراحة ظهرا على وجهها، فلقد اشتاقت لوجوده حقا، سئمت وحدتها طوال هذين الشهرين، كما أن غضبه منها واحساسها بالذنب تجاهه مع هذا القناص المنتظر في البيت الصغير، وقلبها الذي يئن حبا ليوسف وعقلها الرافض لكل ما يحدث جعلوها تعيش على فوهة بركان من الحزن والقلق والخوف، حتى أوشكت على الانهيار. عودة بيدرو أعادت لها بعض اتزانها، ووجوده منحها بعض أمانها المفقود، وابتسامته الحانية أشعرتها بالدفء. سالت منها دمعه فرحة دون إرادتها وفتحت ذراعيها

في صمت، فاقترب منها وجلس على حافة الفراش وعانقها في شوق "يا الهي! كم أحبك إيزابيلا وكم اشتقت إليكِ!" .

ظلا دقائق متعانقين دون كلام، لا حاجة بهما للكلمات الآن، ما يحتاجانه هو هذا الدفء الذي افتقداه طوال تلك الأيام الباردة.

وأخيرا رفعت إيزابيلا رأسها ونظرت إليه بحب وهي تقول له:

_ سعدت جدا بعودتك عزيزي، البيت موحش بدونك.

_ اشتقتِ إليَ حقا؟

_ وكيف لا اشتاق وهذا أول خصام بيننا منذ تزوجنا.

_ لقد كنت غبيا، لم أصدقك وظننت أن..

نظرت إليه باهتمام وقالت:

_ وما الذي جعلك تغير رأيك؟

احتار ولم يدر ماذا يقول وأخيرا قرر مصارحتها:

_ تأكدت من أن يوسف في هذا البيت وحده وأنكِ لا تزورينه فيه أبدا.

قالت بحذر وهي تتذكر ما أخبرتها به بريسيلا من أن هناك أحد الأشخاص ادعى مجيئه لصيانة أنابيب الغاز ولكنها رأته يخرج من غرفة نوم يوسف، فقامت إيزابيلا يومها بالاتصال بشركة الغاز وتأكدت بأنها لم ترسل أحدا!

_ كيف تأكدت؟

_ طلبت من ديفيد أن يضع كاميرات مراقبة في هذا البيت، ورأيت يوسف وحده وبريسيلا تقوم بخدمته، ولا أثر لكِ هناك.

نظرت إليه إيزابيلا بدهشة وغضب، فلم تتخيل أن يفعل بيدرو هذا، وأن يتجسس على يوسف بهذه الطريقة المهينة. أو بالأصح يتجسس عليها هي. شعرت بغضب يجتاحها فقالت بحنق:

_ وما أدراك أننا لا نتقابل هنا في القصر؟

تردد في أن يرد على هذا السؤال المباشر ولكن من تردده فهمت هي:

_ فهمت. لك عيون هنا أيضا تخبرك بكل ما يجري. مَن مِن الخدم يتجسس عليَ ويخبرك بما يحدث في القصر؟

_ عزيزتي لا داعي لهذا التحقيق، ما فعلته سيفعله أي زوج محب، لم أكن لأسمح لأحد بأخذك مني، وكان عليَ أن أتأكد فتلك التجربة الغريبة لا يستوعبها العقل بسهولة. كيف لرجل في شهرة يوسف هذا وغناه ووسامته وعلاقاته المتعددة يقبل أن يحرم نفسه من كل تلك المتع والحياة المرفهة ويعزل نفسه بإرادته في ذلك البيت الصغير! كيف لي أن أصدق هذا ببساطة دون أن أتأكد؟

كل ما قاله كان مقنعا، ولكنها قالت بعناد:

_ كان يكفيك أنني قلت لك هذا، كان لا يجب أن تفقد ثقتك بي أبدا، وأن تعرف أنني لا أقبل على نفسي أن أكون إمرأة خائنة.

نعم هي لا تعتبر نفسها خائنة، حبها ليوسف تسلل إلى قلبها دون إرادتها، وهل لنا مع القلوب إرادة!

ولكنها قاومت هذا الحب بكل قوة، ولن تسمح لنفسها بأن تكون أحد فرائسه، بالتأكيد يوسف لن يفوز عليها، لازالت أمامه شهورا طويلة، لن يستطيع أبدا تحملها. لن يفوز ولن تصبح خائنة. وهذا القلب العربيد ستلجمه وستشد وثاقه إلى عقلها، ولن تتركه يهوي بها إلى آتون الرزيلة بأي شكل، فلا بيدرو يستحق أن تخونه، ولا هي يليق بها أن تكون خائنة، ولا يوسف هو الرجل الذي من أجله تضحي النساء، فهو لا يعرف من الحب إلا اسمه، ومن النساء إلا أجسادهن.

استيقظت من أفكارها على يد زوجها وهي تمسح على شعرها ويقول بحنان:

_ نعم أنتِ على حق، اعتذر منكِ حبيبتي. كنت مخطئا فسامحيني.

شعرت بالصدق في كلماته، ولم تشأ أن تطيل العتاب، فهي سعيدة بعودته، وعليها ألا تفسد تلك السعادة، صحيح هي تحب يوسف ذاك الحب الذي سلبها عقلها وقلبها، ولكن حبها لزوجها حبا آخر، هو حب الانتماء والأمان والرفقة الدافئة، لن تجد تلك المشاعر أبدا مع يوسف، لا أمان مع زير نساء ونرجسي الطباع. عشقها له أهوج مجنون، وعلى عقلها أن يعمل بكل طاقته حتى لا يتركها في ذلك المستنقع أو تحت وطئت ذلك السيل العرم من المشاعر الخاطئة.

تنهدت وقالت بصوت حاني:

_ حسنا عزيزي، لننسى كل ما مضى، ولنعود لحياتنا الجميلة.

_ وماذا عن هذا العربي؟

_ ماذا عنه؟

_ هل سيبقىَ هنا؟

_ المدة التي اتفقنا عليها لم تنتهي بعد، مر شهران فقط.

_ إيزابيلا، هذا الاتفاق يجب إلغائه، فهو خطر من كل النواحي.

_ كيف؟!

_ لقد راقبت هذا الرسام، واضح جدا أنه بدأ يدخل في طور اكتئابي حاد. لا أحد يتحمل تلك العزلة، حتى أن الوحيدة التي يراها ويتعامل معها بكماء. لا يوجد إنسان يتحمل هذا، ماذا لو انتهت تلك التجربة بانتحاره؟

هل سيصدق أحد أنه مات منتحرا وهم لا يعلمون طوال تلك المدة أنه مختفي في بيتنا؟ ربما يظنون أننا قمنا باختطافه ثم قتله. لماذا ندخل أنفسنا في تلك المتاهة؟ لا مكانتي تسمح بهذا ولا مكانتك. علينا أن نحمي أنفسنا قبل أن تتسبب تلك التجربة المجنونة بكارثة.

كلماته أخافتها كثيرا.. لم تهتم من كل ما قاله سوى بعبارة واحدة وهي "أن يوسف بدأ يدخل في مرحلة اكتئاب وأن احتمالية انتحاره ممكنة". هل يمكن لها أن تتحمل موته؟ في

تلك اللحظة لم تفكر في يوسف كمنافس ومبارز وقناص، كل هذا الخوف الذي اجتاحها كان للحبيب يوسف..

ماذا لو بالفعل تلك العزلة سببت له حالة نفسية أدت إلى انتحاره أو موته؟ هذا الاحتمال لم يخطر لها أبدا من قبل. لم يلتفت إليه أحد سوى زوجها صاحب العقلية العلمية التي تحسب لكل شيء حسابه. هي كانت مثله قبل أن يسلبها حبها ليوسف هذا التركيز وتلك القدرة على تقييم الأمور من كافة جوانبها. عليها الآن أن تتأكد أن يوسف بخير، وأن تنهي ذلك التحدي الأحمق إن تأكدت بخطورته عليه بأي شكل، ولو على حساب كبريائها. فهو من أوقعها في ذلك الشرك القاسي .

ولكن كيف لها أن تتأكد وأن تراقبه وأن تتدخل في الوقت المناسب؟

هل تفعل مثل زوجها وتتجسس عليه؟ لا تظن بأن أخلاقها تسمح لها بفعل هذا. وسيلتها الوحيدة هي بريسيلا، عليها أن تمدها بكل شيء عنه وأي تغيير يطرأ عليه ، واي علامات للانهيار تجتاحه. لتتدخل لإنقاذه في الوقت المناسب. ولكن هل سيمنحها القدر تلك الفرصة وهذا الوقت المناسب؟!
فلتدعو ربها ألا يحدث ما تخشاه فهي لا تتحمل عواقبه أبدا.

_ أين ذهبتِ بأفكارك؟

_ عفوا ولكن أفكر في كل ما قلته.

_ وما النتيجة التي وصلتِ إليها؟

_ لا شيء سوى أن أجعل بريسيلا تكثف مراقبتها له وأن تبلغني بأي تغييرات تطرأ على عاداته.

_ هل ستستمري في تلك التجربة؟

_ مراقبة سلوكه وأي تغييرات تطرأ عليه من صميم مشاهدات التجربة وملاحظاتها.

_ أخبرتك بمخاطر ما تفعلينه ومازالتِ مصممة عليه؟!

_ ليس بيدي أن أنهيه، هذا اتفاق بيني وبينه. هذه دراسة بشرية وليست لعبة.

لم يتمالك نفسه من الغضب وقال بصوت عالٍ وهو ينهض ويواجهها ويلوح بيده في عصبية:

_ تضحكين على نفسك، لن تخرجي من هذا إلا بخسارة، هذه مغامرة، منذ متى أصبحتِ بتلك الروح المغامرة التي لا تتحسس موضع قدميها قبل أن تخطو خطوة واحدة للأمام، أو تقوم بحساباتها كاملة قبل أن تتحرك؟ هناك شيء لا أفهمه يسيطر عليكِ، هناك شيء يجذبك للقاع ولن أسمح لكِ بهذا السقوط.

أجابته بنفس الغضب وذات العصبية:

_ لست طفلة لتكلمني بهذه الطريقة، ولا أطلب منك حمايتي طوال عمري وأنا أعتمد على نفسي وأفعل ما يمليه عليَ عقلي.

قال بسخرية:

_ وأين هو هذا العقل؟! لم أعد أراه في رأسك.

أشعلتها عبارته فنهضت بعنف وواجهته بتحدي:

_ لن أسمح لك بإهانتي، أنا أعرف أبعاد ما أفعله، وأسيطر على كل أموري، ولا حاجة بي لنصائحك.

طبعا هي تكذب، وتعلم أنها تكذب. فلا هي مسيطرة على شيء ولا هي في غنا عن نصائحه.

تحتاجه إلى جوارها بشدة، ولكن كبريائها الارعن قام بدور الشيطان مرة أخرى وجعلها تتصرف بعيدا عن العقل بأميال حمقاء.

فوجئ هو بهدرها هذا، وطوفان الغضب الذي قذفته به. شيء ما تغير فيها، شيء ما يحدث! هوة عميقة يتم حفرها ببطء لتفصل بينهما، تلك التجربة بشكل لا يفهمه استبدلت إيزابيلا بامرأة أخرى لا يعرفها!

لم يشأ أن يطيل جدالها، لحظة المصالحة انقلبت لحربا غريبة لا يفهمها، لهذا آثر الانسحاب من غرفتها، ولكنه نوى ألا يترك القص، لابد أن يكون بالقرب، ليتدخل في الوقت المناسب، فالواضح أنه أصبح الوحيد الذي يفكر جيدا في هذا البيت، إيزابيلا توقف عقلها عن التفكير الصحيح وفقدت ذكائها.

قال وهو يخرج من الغرفة:

_ سأعود بحقيبتي إلى القصر، من فضلك أبلغي ماريو بأن يعد لي الغرفة الشرقية لأقيم فيها.

ثم خرج وأغلق الباب وراءه، وتركها وحيدة حائرة.

اتجهت إلى الشرفة بخطوات متثاقلة، نظرت إلى حيث يسكن يوسف، وتنهدت بحزن..

****

_ ألم أخبرك أن الحب مؤلم؟ ليتها لم تأتِ، ولم تبثني تلك الروح العاشقة.

_ كل ما أخبرتك به حقيقة، قلت لكِ أننا انعكاسا لهما، وبأن نظرة الإعجاب التي ينظرون بها إلينا تمنحنا جزءا من روحهما، وأنها إن أتت ستشعرين بكل ما تشعر به، كل هذا

ظهر لكِ صدقه، وأقول لكِ الآن أن حبنا ليس مؤلما في النهاية وعليكِ أن تصدقينني.

_ لم تصدق في قولك من قبل أنني لا أحبك، أقصد هي لا تحبه، عندما أتت ونظرت إلينا، تحولت إلى طاقة نور تشع حبا، بهرني ذلك الضوء الذي تسرب منها إليَ. زرعت بداخلي نبتة خضراء، صارت تكبر وتكبر حتى احتلت كياني كله، جعلتني أشعر بالخوف، بالشوق، بالحنين، بألف إحساس متشابكة فروعة، وجذوره ضاربة في عمق قلبي.

_ هو لم يكن يعلم أنها تحبه، وما يعرفه هو أعرفه أنا وفقط. ليته علم بحبها قبل أن يسقط.

_ ليتك تبتعد، فأنت تحجب عني ضوء الحياة، لا أشعر بالحياة في هذا الحب، لا أجد سوى الألم والخوف.

_ لم نصل إلى النهاية بعد، سنسعد في النهاية صدقيني..

****

عاد بيدرو إلى الحياة في قصره، ولكن لم يعد كالسابق، كان هو وإيزابيلا كالغرباء؛ لا يتكلمان إلا في حدود وحسب الحاجة، هذا الشرخ في علاقتهما، لم يحاول أحدهما إصلاحه وكأن كلا منهما ينتظر رحيل يوسف ليعيدا بناء حياتهما من جديد. ولكن.. هل سيرحل يوسف؟!

الشهران أصبحا أربعة، والأربعة صاروا ثمانية واقترب أول عام من نهايته.. ويوسف مستمر في عزلته، ولكن ما لم تعلمه إيزابيلا هو أن يوسف كان بالفعل ينهار.

أثرت العزلة والحرمان عليه بشكل كبير، كان يبدو من الخارج بخير، ولكن داخله كان يتآكل ببطء في البداية ثم أصبح سريعا في الشهور الأخيرةً الساعات التي يقضيها في مرسمه أصبحت أطول، فترات نومه أصبحت أقل، وطعامه يكاد يصبح كطعام طفل صغير، بضعة لقيمات فقط يأكلهم دون مذاق ثم ينهض ليعود إلى مرسمه. أخبرت بريسيلا إيزابيلا بقلة طعام يوسف وتوقفه عن شرب الكحوليات. ولكنها لم تعلم بعذابه الداخلي لتخبرها به. ولم تخبرها أيضا بتلك المرة التي لم تفهمها! حيث فوجئت بيوسف يجلس إلى مائدة الطعام في انتظار الغداء، هذه كانت أول مرة ينتظر الغداء ولا تستدعيه هي! وضعت أمامه أطباق السمك والسلاطة والخبز وإبريق الماء وهمت بالانصراف، فأشار لها أن تتوقف، ثم أشار مرة أخرى نحو المقعد الذي بجواره لتجلس عليه . ترددت ولكنها لم تستطع الرفض فجلست بخجل. طلب منها أن تأكل معه فهزت رأسها علامة الرفض فترك قطعة الخبز التي بيده، وأعاد ظهره إلى الوراء ونظر إليها وابتسم.. ثم سمعته يقول:

_ لا تعرفين كم أتوق لأن يشاركني أحد أي شيء، ولو حتى أن يبتسم معي على لا شيء. لم أكن أتصور أن البشر بهذه الأهمية، وأن كل منّا وحده لا قيمة له. كصفر يحتاج إلى من يقف بجانبه ويجعل منه رقما ذا معنى.

فراغ.. كل ما أشعر به الآن هو الفراغ. أحاول أن أقنع نفسي أنني من اختار، وأن القرار قراري. ولكن أعلم بذلك الجزء الحقيقي المتبقي مني أن القرار ليس بيدي. أسير مقيد اليدين ومعصوب العينين، تم سلب وجودي وإرادتي، وأصبحت فراغا لا صوت له ولا هوية. أفكر في الخروج مائة مرة في اليوم، ولا استطيع! فقدت نفسي على باب ذلك البيت حين دخلت منه. فقدت يوسف.. ولكن بشكل لا أفهمه أنا سعيد بخسارته.

لم تفهم بريسيلا ما يقوله! لهذا فضلت ألا تخبر سيدتها به، فلم يكرر معها تلك المحادثة بعد أن رأى إمارات عدم الفهم على وجهها. فأشار لها أن تنصرف وقبل أن تغلق الباب وتخرج سمعت صوته يقهقه! فتوقفت دقيقة وصاغت السمع، فسمعته يعقب ضحكته ببكاء ونشيج! فشعرت بالخوف واتجهت بخطوات مسرعة إلى القصر.

فهي اصبحت تعلم بعد مرور تلك الفترة على وجود هذا الرجل هنا وخدمتها له أنه ليس طبيعيا، وبدأت تشعر بالخوف منه.

هكذا مرت الأيام بيوسف، بين مزاج متقلب وقلب حزين ووحدة قاتلة. حتى جاء هذا اليوم الذي انهار فيه من الضعف وقلة الطعام وعدم النوم. هذا اليوم الذي خطت فيه إيزابيلا بقدميها داخل بيت العزلة لأول مرة منذ إقامة يوسف فيه، رأت يوسف على أرض المرسم في حالة إغماء وضعف وهزال، فأمرت حارس القصر بحمله وأحضرت له الطبيب،

وعندما استرد وعيه، دار بينهما حوارا كله عتاب ولكن باطنه الحب..

عاونته على الدخول إلى الحمام ثم تركته وجلست في انتظاره.

عاد بعد دقائق ملتفا بمنشفة كبيرة، كان يبدو حقا كالطفل.. مستكينا وخجولا، لأول مرة ترى الخجل مرتسما على وجه هذا الطاووس! ولكن حالته تلك كانت كطعنة خنجر لقلبها.. لم ترد أبدا أن تراه بهذا الخجل أو ذاك الانكسار! أحبت يوسف القوي المعتز بنفسه الغارق في عشق ذاته. ولكنها لم تجد يوسف هذا أمامها الآن، كانت ملامحه وجسده ولكن روحه هناك، خارج هذا البيت، تركها على بابه يوم دخوله هذا السجن الانفرادي.

أجلسته على حافة الفراش، فتحت صوان الملابس وأخرجت له ملابس نظيفة، ساعدته على ارتدائها، ثم عاونته على أن يتمدد على الفراش. وهمت بالانصراف وهي تقول:

_ سأذهب لأعد لك كوبا من عصير البرتقال.

أمسك يدها لتبقى، فتذكرت يوم أن أمسك يدها لأول مرة ونهرته حين فعل ذلك، ولكنها هذه المرة لم تنهِهِ، وتركت يدها بين يديه وهي تقول بحنان:

_ عصير البرتقال يحتاجه جسدك لأن به فيتامين سي.

_ لا أحتاج سوى وجودك بقربي.

ابتسمت في خجل وجلست على حافة الفراش:

_ حسنا، سأجلس معك قليلا، ولكن ليس لمدة طويلة، لا أريد أن يعرف زوجي بوجودي هنا.

_ ألم تقولي أنه تشاجر معكِ وترك القصر؟

_ نعم قلت لك هذا ولكنه عاد بعد شهرين تقريبا، ثم تشاجرنا مرة أخرى ومن يومها ونحن كالغرباء، هو يبيت في الغرفة الشرقية وحده، لا نتحدث إلا نادرا.

_ أعتذر لأنني تسببت لكما في هذا الشقاق.

_ هل حقا أنت نادم؟!

_ في الحقيقة لا أعلم، لا أشعر إلا بشيء واحد هذه الأيام.

_ وما هو؟

_ أنني أعشقك..

_ ...

لم تستطع الرد، لم تقو حتى على التنفس، اختفت تلك الجدران من حولها، هجرت الأرض والمجرة كلها.. كانت هناك معه حيث لا وجود سوى لهما، ولا حدود لحبهما ولا شمس تشرق إلا من أجلهما.

كانت تلك اللحظة من اللحظات التي يعيش عليها العمر، يتغذى بها، ومن ذكرياتها يستمد قدرته على الحياة.

_ لِمَ لا تجيبي؟ أريد أن أعرف شعورك نحوي. عذبتني تلك الهواجس، شقت قلبي نصفين، جعلتني أتفتت شوقا وخوفا. من أي شيء صنع الله قلبك؟

من أي قوة تستمدين ذاك الكبرياء اللعين؟!

كانت تريده أن يتوقف، أن يترك يدها، أن يعيدها إلى الأرض أن يعانقها وينسيها كل ما فات. كانت تريد كل شيء ونقيضه فهو الفكرة الممتنعة على العقل، المستحيلة الوجود، هو ذلك الكيان المخيف الذي زلزل وجودها وهزم ثباتها وأحتل مملكة قلبها دون أدنى مقاومة. نعم لم يقاوم قلبها أبدا لكن عقلها قام بمائة حرب وألف معركة لإنهاء وجوده، لهزيمة حبه، لفرض شروطه ولإجباره على الانسحاب من حياتها. ولكن كل هذا التاريخ الحربي معه لم يجعلها تتوقف لحظة عن حبه ولم ترَ الانتصار يوما في معاركها ضده، وها هي تجلس بجانبه، يدها مستسلمة في يده. حتى وهو بهذا الضعف يملك أسطولا وبوارج وصواريخ نارية، أشعلت كيانها كله وجعلتها كمركب فقدت دفتها وتركت الأمواج تتلاعب بها واستسلمت للريح..

_ إيزابيلا.. يا جزيرة عشقي وأرض وجودي، لا تتركيني هكذا، أموت من صمتك كما متُ ألف مرة في بُعدك.

استجمعت جزءا ضئيلا من عقلها وقالت وهي تتمناه أن لا يستجيب لها:

_ أرجوك اتركني أرحل، وجودي هنا خطأ.

لن يغفر لي بيدرو هذا.

_ وهل تبحثين عن غفرانه أم عن حبه؟

ترددت في الإجابة! فأي إجابة منهما ستفتح عليها أبواب أسئلته الجهنمية، ولن تستطع غلقها أبدا.

_ هو زوجي، ومن حقه علىَ ألا أخونه.

_ وهل الحب خيانة؟

نهضت وسحبت يدها من يده وقالت بصوت حاولت قدر استطاعتها أن يكون قويا:

_ توقف. لا مزيد من تلك الأسئلة المستدرجة. يجب أن أنصرف الآن، سأرسل لك العصير مع بريسيلا.

وانصرفت مسرعة وهي حريصة على ألا تلتقي عينيها بعينيه حتى لا تضيع من نفسها..

عادت إلى القصر، نادت على بريسيلا واعطتها تعليماتها بخصوص يوسف، ثم صعدت إلى غرفتها وابدلت ملابسها واستعدت للذهاب إلى عملها وهي في حالة شرود تام وصورة يوسف شاخصه أمام عينيها طوال الوقت. تأخرت كثيرا على عملها في ذلك اليوم، ربما هذه هي أول مرة تتأخر فيها. استقبلتها تيلدا بعلامة استفهام كبيرة على وجهها فأجابتها إيزابيلا قبل أن تسأل:

_ يوسف مريض وكنت معه.

_ مريض! ما به؟

_ انقطع عن الطعام والنوم، فتسبب هذا في اصابته بالهزال والضعف.

_ واضح أنه ينهار نفسيا، وهذا هو سبب امتناعه عن الطعام.

_ نعم هذا صحيح .

_ هل هذا معناه أنكِ انتصرتِ عليه وانتهى هذا الاتفاق بفوزك؟

_ لا. لازال مصمما على أن يكمل المدة، مر عام ويصر على إتمام العام الثاني، ولا أظنه سيتمه وهو على قيد الحياة إن استمر بهذه الحالة النفسية السيئة. جل ما أخشاه أن يحاول الانتحار كما حذرني بيدرو.

_ تخافين عليه أم تخافين من عاقبة انتحاره في بيتك؟

_ بالتأكيد أخاف عليه. لا أظن إن أصابه سوء سأهتم بأي شيء يحدث بعد ذلك.

_ حبك له سيدمرك عزيزتي.

_ وحبه لي دمره.

_ حبه لكِ؟ هل اعترف لكِ بحبه؟!

هزت رأسها علامة الإيجاب ثم تنهدت ووضعت رأسها بين يديها، فاقتربت منها تيلدا واحتوتها بين ذراعيها، ولم تتكلم.

مرت أيام قليلة، كان يسترد فيها يوسف عافيته ببطء لكن وجود إيزابيلا بصفة يومية بجانبه ساعده كثيرا نفسيا على اجتياز تلك المرحلة الصعبة التي أوشك فيها على الجنون، وجودها ملأ هذا الفراغ الموحش الذي كان يعيش فيه، وبرغم أن تيلدا نصحت إيزابيلا بعدم زيارته لأن هذا سيشجعه أكثر على الاستمرار وعدم الانسحاب من الاتفاق، إلا أنها لم تستطع تركه وهو مريض، قللت فقط من الساعات التي تقضيها معه بساعة واحدة فقط يوميا. كانت بالنسبة له ساعة فرحة العمر، وبالنسبة لها أيضا..

كانا يقضيانها في الحديث في كثير من الأمور وتجنبا بناء على رغبة يوسف الحديث عن الاتفاق الذي بينهما. استجابت له وتغافلت عن ذكر هذا الموضوع. وكان موضوعها المفضل هو لوحاته التي رسمها لها، ومدى اعجابها بها. كانت تلك الفترة من أجمل الفترات التي مرت عليهما في حياتيهما، كان الحب يلون كل شيء بلون السماء. ويضيء في قلبيهما كل الأركان المعتمة. كانا يسيران على الأرض ولكنهما هناك، حيث تتعانق النجوم ويبتسم القمر. شيء واحد فقط كان ينغص على إيزابيلا تلك الأيام، وهو سلوك زوجها الذي أصبح غاية في الغرابة! عاد إلى غرفتيهما ذات يوم وهو يحمل حقيبته ويقول بابتسامة غامضة:

_ طالت فترة الفراق بيننا، اشتقت لكِ ولم أعد أستطيع مقاومة اشتياقي أكثر من هذا.

كانت عودته إليها مفاجأة هذه المرة، ولكنها تعودت منه على كثير من هذه المفاجئات. تلقفت هذا الفيض الغامر من شوقه ببعض الدهشة التي اخفتها قدر المستطاع، ولكنها لم تشعر بنفس الفرحة التي شعرت بها في المرة السابقة. ربما لأنها الآن ترى يوسف وتجلس معه وتحادثه. ولكن بيدرو ليس له ذنب في هذا كله وعليها أن تكون زوجة جيدة لزوجها الطيب.

ومرت الأيام على تلك الوتيرة حتى استرد يوسف قدر كبير من عافيته وصحته، وهنا كان يجب أن يبدأ بينهما حوارا تجنباه كثيرا:

_ أراك اليوم في صحة جيدة.

_ هذا بفضلك طبيبتي.

_ ما الذي تنوي فعله الآن؟

_ لا شيء.

_ ماذا تعني بهذا؟

_ معناه أنني لن أفعل شيئا أكثر مما أفعله الآن.

_ ألن تخرج وتعود لحياتك السابقة؟

_ هذه السابقة لم تكن حياة، بل كانت لا شيء. لا أشعر بأنني شيئا إلا بجوارك.

_ توقف عن تلك العبارات الطنانة، اتفاقنا لاغي، تم اختراق بنوده من كافة النواحي.

_ كيف حدث هذا ومتى؟

_ بوجودي هنا كل يوم، وبانهيارك الذي تعالجت منه. أنت لم تقو على الصمود كما اتفقنا، لم تنهار إلا لأنك علمت أن جمهورك هم أجنحتك التي تطير بها وتحلق

فوق الجميع.

_ أجنحة زائفة وهشة، لا أريد أجنحة، بل جذور.

_ لا تريد جمهورا ولا شهرة ولا مال ولا خلود؟!

_نعم.

_ ماذا تريد إذًا؟!

_أنتِ.

ابتلعت خفقات قلبها وقالت:

_ لا أظنني بهذه القيمة عندك، جعلتني جزء من ربحك إن فزت بتلك الصفقة. لست سوى جارية تريد الفوز بها أيها العربي لتعيد تاريخ أسلافك معنا.

_ هذا التاريخ لم نصنعه نحن، فلا يجب أن نتحاسب عليه، تبادلنا الأدوار فلا تنسي محاكم التفتيش وما حدث فيها.

همت بأن تقول شيئا فأسكتها بإشارة من يده وهو يقول:

_ لسنا الآن سوى رجل وامرأة وقعا في الحب. الحب هو الوطن الذي يضم الجميع، ولا يفرق بين سيد وعبد، قبيح وجميل، وطن حاكمه هو القلب وحكومته هي المشاعر وشعبه هم العشاق. لا يحق للشعب الكلام في حضرة الحاكم ولا الاعتراض على أحكامه.

_ أرفض تلك الديكتاتورية.

_ لا تملكين حق الرفض، وقعتِ في الحب وانتهى الأمر.

_ لا لم ينتهِ. هذا آخر يوم سآتي فيه إلى هنا، أمامك الاختيار مجددا، بين أن تخرج من هذا الكهف وتعود إلى حياتك البراقة، أو تركب رأسك وتستمر في تلك المهزلة وهذا التحدي الأحمق.

نظر إليها وابتسم في عند وقال:

_ سأركب رأسي.

عقدت ما بين حاجبيها في غضب وقالت:

_ ركوبا موفقا.. ولا تظن أنني سأنقذك مرة أخرى.

_ أعشق الغرق فيكِ.

لم تلتفت وانطلقت نحو الباب وكأنها تهرب من شبح ضعفها ووحوش رغباتها..

عادت إلى القصر، وبعد حوالي الساعة عاد زوجها هو أيضا وجدها تجلس في شرفة القصر وفي يدها فنجالا من الشاي ترشف منه على مهل. جلس قبالتها وهو يقول:

_ أرغب بشدة في فنجالا من الشاي بعد هذا اليوم المرهق.

قامت من فورها ووضعت يدها على كتفيه، ثم نادت على خادمها وطلبت منه اعداده.

وبدأت في عمل تدليك خفيف على كتفي زوجها، الذي تأوه براحة وشعر باسترخاء لذيذ من هذا التدليك المريح للعضلات والفقرات. بعد قليل كان فنجال الشاي أمام بيدرو وإيزابيلا تجلس على المقعد المقابل، ولا يجدا ما يقولانه لبعضهما. حتى كسر زوجها هذا الصمت بأن قال لها في هدوء:

_ ما رأيك في رحلة لفرنسا وبريطانيا؟

_ هذا لطف منك، ولكن للأسف لا أستطيع السفر الآن، لديَ عمل كثير. شكرا لك عزيزي.

هز رأسه متفهما ولاذ بالصمت مرة أخرى حتى انتهى من الشاي، ثم نهض وهو يقول أنه مرهق وسيخلد إلى النوم. بعد ساعتين كانت ايزابيلا تجلس باسترخاء وفي يدها كتاب

تحاول قراءته رغم حالة الشرود التي أصبحت تصيبها كثيرا تلك الأيام. فجأة سمعت هرجا ومرجا، فقامت فزعة واندفعت إلى الشرفة فرأت حديقة قصرها تعج بالشرطة! وواضح أن اهتمامهم كله منصب على البيت الذي يقيم فيه يوسف.
هرعت خارجة لتستجلي الأمر. فشاهدت يوسف وهو مقيد بين رجلين قويين من أفراد الشرطة ويخرجان به من البيت وعلى عينيه عصابة. كان الأمر أشبه بالكابوس ورفض عقلها تصديقه! فهرعت إلى قائدهم الذي ميزته من بينهم وسألته:

_ لماذا تقبضون عليه؟!

رد عليها بخشونة:

_ ومن أنتِ؟

_ أنا السيدة بيدرو. زوجة صاحب هذا القصر.

نظر إليها متأملا برهة ثم قال:

_ هذا الرجل تم القبض عليه بتهمة القيام بعمل إرهابي، وزوجك هو من قام بالإبلاغ عنه. بالتأكيد سيستدعونك للتحقيق وستعرفين هناك كافة التفاصيل.

ثم وجه لجنوده الأمر بالاتجاه إلى السيارات ومعهم يوسف، الذي لم يتكلم ولكن يبدو عليه الخوف.. لم تستوعب إيزابيلا ما قاله هذا الشرطي، فهرعت إلى زوجها النائم في القصر لتعرف ما الأمر، وكيف يقول على يوسف بأنه إرهابيا!!
وصلت إلى غرفة النوم فلم تجده فنادت على الخادم وسألته عن زوجها، فأشار لها نحو الغرفة الشرقية التي كان ينام فيها

أثناء خصامهما، هرعت إلى تلك الغرفة، امسكت بمقبض الباب وأدارته ولكن الباب لم يفتح! كان مغلقا من الداخل فأخذت في الطرق بقوة على الباب والغضب والخوف على يوسف قد بلغوا مداهما داخلها. فتح بيدرو الباب بعد خمس دقائق مرت عليها كدهر:

_ ماذا تريدين إيزابيلا؟

أزاحته ودخلت إلى الغرفة وهي تقول بحنق:

_ أريد أن أفهم لماذا أبلغت عن يوسف وقلت عنه أنه إرهابي بربك أخبرني كيف واتتك الجرأة على أن تفعل شيئا كهذا؟!

_ وكيف واتته الجرأة هو على أن يأخذك مني؟

_ لم يأخذني أحد منك.

_ بل فعل. لا تظني أنني لا أعلم ما يدور بينكما وهذا الاتفاق السخيف.

فوجئت بكلماته فقالت ببطء:

_أي اتفاق؟

فتح أحد الأدراج وأخرج فلاشه صغيرة وأمسكها بيده وهو يقول:

_سمعت ورأيت كل شيء، نسيتِ أنني زرعت كاميرات هناك؟ وذهبتِ أنتِ إليه عندما كان مريضا وتكلمتما كثيرا وأنا كنت المستمع والمصدوم.

فوجئت بهذا! نسيت بالفعل مسألة الكاميرات تلك، الآن هو يعلم باتفاقهما وسمع كل ما قالاه وعلم بحبهما. لهذا كان انتقامه بشعا بهذا الشكل.

تماسكت أمامه وقالت:

_هذا لا يعطيك الحق في أن تفعل ما فعلت، أن تتهمه بالإرهاب لهو عمل دنيء جدا.

ضحك، ضحك بصوت عالٍ وسار مزهوا بنفسه في أرجاء الغرفة، وحينها لمحت جهاز الحاسوب ورأت في الشاشة بيت يوسف، بالتأكيد كان يشاهد لحظة القبض على يوسف وهو يضحك هذه الضحكة المزهوة.

توقف عن الضحك وركز نظره عليها وهو يقول بغموض:

_هذا ليس مجرد اتهام عزيزتي، ستجد الشرطة كل الأدلة التي تدينه، يوسف انتهى، ومن الأفضل لكِ أن تكوني في صفي في المرحلة القادمة وإلا ستنتهين معه.

_عن أي أدلة تتحدث؟ يوسف ليس إرهابيا وأنت تعلم هذا.

قال بحقد وكراهية واضحة:

_ كل العرب إرهابيون ولصوص. أن نطهر أرضنا منهم لهو عمل وطني يستحق الاحترام.

_ما بك؟! كيف أصبحت هكذا؟!

أين العدالة في ما تقول؟! كيف يسمح لك ضميرك بأن تؤذي إنسان لم يسبب لك أي أذى!

رفع حاجبيه بدهشة وهو يقول:

_لم يسبب لي أي أذى؟ هل اغوائك والتشهير بي وبكِ ليس أذى؟ هل نسيت بنود هذا الاتفاق الحقير؟ هل نسيتِ أن شروطه أن تصبحي عشيقته ويعلن هذا الاتفاق وهذا معناه التشهير بنا وفضيحة مدوية لن ينساها الناس أبدا؟ أين كان عقلك عندما وافقتِ على اتفاق كهذا؟! أين إيزابيلا التي أحببتها صاحبة الشخصية الرائعة والعقل الراجح؟ من أنتِ أيتها المرأة الغبية الحقيرة الذليلة عاشقة هذا الحيوان!

لم تكن مجرد كلمات، كانت طعنات في روحها. شعرت بجسدها يهتز وبقلبها يتمزق ألما، لم تتخيل لحظة أن تقف أمام زوجها هذا الموقف، وأن يوجه إليها تلك الكلمات الجارحة المهينة القاسية. كادت أن تهوي أرضاً، ولكنها حاولت بما تبقى لها من قوة أن تبتعد، لم تقو على الرد أو الوقوف لتلقي مزيد من الطعنات، عليها أن تزحف بجراحها بعيدا لعلها تلتئم. جرت قدميها ولملمت أشلاء روحها وسحبت جسدها المترنح وخرجت من الغرفة في صمت..

يكفيها تلك المعركة اليوم، وعليها أن تتقبل الهزيمة، فالنصر أبعد ما يكون عنها. وظل هو واقفا بثبات وزهو المنتصر، ولكن لو تأملت روحه لوجدتها جريحة هزيلة وقلبه ممزق. فمعارك الانتقام لا يخرج منها منتصر، الكل مهزوم، والجميع خاسر.

عادت إيزابيلا إلى غرفتها وهي تسير كالأشباح..

فقدت في لحظة زوجها وحبيبها ونفسها. أي خسارة يمكن أن يتحملها القلب أكبر من هذا!

كانت تشعر بعدم قدرتها على التنفس، وبتوقف قلبها عن النبض، الحياة انتهت في لحظة، ولم يتبق سوى الجحيم لتعيش فيه.

ارتمت على الفراش، اغلقت عينيها، كانت تريد الموت أو النوم. أي شيء يفصلها لفترة عن كل ما حدث، لم تعد تحتمل البقاء على قيد الوعي.

خضع يوسف للتحقيق بعد وصوله إلى مقر الأمن الداخلي بساعات، تركوه فيها وحيدا مقيدا للتأثير سلبا على جهازه العصبي وقدرته على التركيز والمقاومة، الإرهاب جريمة كبرى ولا رحمة مع الارهابيين.

أجلسوه بعد عدة ساعات مريرة إلى طاولة وهو مقيد اليدين ومعصوب العينين، كان يتصبب عرقا وخوفا، لم يتعرض يوما للسجن، سجنه الاختياري كاد يحطمه، فماذا سيفعل في سجن حقيقي؟ كيف سيستطيع التحمل؟ كان يحاول أن يطمئن نفسه بأن كل ما يحدث هو كابوس، أو خطأ سيتداركونه بعد قليل ويتركونه يعود إلى إيزابيلا . نعم سيعود إليها، لا يريد أن يملكها كما تقول هي، بل يريد أن تحبه وأن يحبها، لم تعد تعنيه الشهرة ولا المال، إيزابيلا هي كل ما يريد. إن خرج من هنا سيهرع إليها سيجثو على ركبتيه، سيخبرها كم يحبها وكم هي جميلة..

_ ما اسمك بالكامل وعمرك وجنسيتك؟

_ يوسف محمود العلي، سبعة وثلاثون عام، مصري.

_ ما الذي أتى بك إلى إسبانيا؟ ومنذ متى وأنت تعيش فيه؟

_منذ عشرة أعوام تقريبا، وجئت لأبحث عن فرصة لأشهر موهبتي في الرسم.

_أوراقك تقول أنك قضيت أحد عشر عاما في تركيا!

_نعم، أمي تركية. وبعد وفاة أبي في مصر سافرت معها إلى تركيا، وجئت إلى هنا بعد وفاتها رحمها الله.

_ماذا كنت تعمل في تركيا؟

_لم أكن أعمل، أكملت دراستي فقط.

_ومن أين كنت تنفق؟

_من مال تركه أبي لنا، كما أن أمي كانت تملك بعض المال القليل الخاص بها.

_ألم تتعرف في تركيا على جماعات إسلامية؟

_لا لم يحدث.

_ألم تكن لك أي علاقة بجماعات إسلامية في مصر أو هنا في إسبانيا؟

_لا

_ كيف أصبحت في هذه المدة البسيطة بتلك الشهرة وبذاك الثراء؟ من كان يدعمك؟

_لم يدعمني أحد في بدايتي، كنت أدعم نفسي.

سمع يوسف ضحكة هازئة، كان يجيب على الأسئلة بطريقة آلية، خوفه الشديد جعله ينفصل عن أفكاره، فأصبح كالآلة يرد ويجيب دون تفكير. ليس لديه ما يخفيه، وليس بحياته أسرار، ما حاجته للتفكير في أي سؤال!

_ عندما بحثنا عن بداياتك هنا وجدنا منطقة غامضة وغير مفهومة! فجأة ظهرت وأصبحت حديث الناس، ولوحاتك جذبت الكثيرين في فترة قصيرة جدا، هذا لم يحدث لبيكاسو نفسه، فهل تشرح لنا كيف يمكن لمتشرد عربي أن يكون من أثرياء إسبانيا في أقل من ثلاثة أعوام؟

هذه هي الإجابة التي تردد يوسف في قولها.. عاد إليه جزء من عقله سريعا ليخبره بأن الإجابة على هذا السؤال ستكون ضده بشكل ما، ولكن لم يكن أمامه غير قول الحقيقة، يعلم أن الكذب على هؤلاء لن يجدي:

_في الحقيقة أنا قمت بخدعة صغيرة، أنشئت عشرات الحسابات الوهمية وكذلك بعض المواقع، وقمت بانتحال أسماء وهمية وحقيقية لإبداء الاعجاب بلوحاتي بهدف الترويج لها، كنت أريد أن أعرف الناس بموهبتي، ولم يعطني أحد تلك الفرصة، فصنعتها لنفسي. والناس تتأثر بآراء بعضها، لهذا كنت أنا هذا الجمهور الصغير الذي جذب الجمهور الكبير الحقيقي.

_أنت ذكي جدا، تجيد انتحال الشخصيات، وتفكر بطريقة عملية وحاذقة. ليست هذه عقلية فنان! الفنانون لا يملكون هذا

الذكاء التجاري. أم أن ما قصصته علينا الآن غير حقيقي، وورائك جماعة ما تدعمك، وهي من قامت بعمل تلك الحملات الترويجية لك؟

_قلت لك لا أعرف جماعات، أنا وحدي طوال حياتي.

_وماذا عن تلك الأوراق التي وجدناها في البيت الذي كنت مختفي فيه؟ والمواد المفجرة التي وجدناها في مرسمك؟ ولماذا كنت مختفي في هذا البيت؟

_أي أوراق وأي متفجرات؟

_أوراق هوية مزورة لشخصيات متعددة، ورسائل بعضها مشفر وبعضها صريح تتحدث عن مهام وعمليات إرهابية كنت تنوي تنفيذها.

صُعق يوسف بهذه المعلومات! وكأنهم يتحدثون عن يوسف آخر!!

_لا أعلم شيئا عن كل ما قلت.

_ولماذا إذًا كنت مختفيا في بيت الأستاذ بيدرو؟

_لم أكن مختفيا، كنت فقط أريد بعض العزلة لأرسم، أردت أن أبتعد قليلا لأعمل في هدوء.

_يقول السيد بيدرو بأنك طلبت من زوجته الاختفاء في بيتهم الصغير وعدم إبلاغ أي أحد بمكانك، وبرغم هذا كانت هناك شخصيات مريبة تزورك في هذا البيت! وأنه سألك عنهم في إحدى المرات فقلت له أنهم أصدقائك، وطلبت منه ألا يخبر أحد عنهم.

_لم يحدث هذا أبدا، ولم أتحدث مع السيد بيدرو إلا مرة واحدة على يخت صديقي ريكاردو.

_ولماذا يكذب السيد بيدرو في هذا؟

تردد يوسف للمرة الثانية في الرد، ثم حسم أمره وقال:

_لا أعرف.

_توجد رسائل غريبة على هاتفك بينك وبين أحد الأفراد تتحدثان فيها عن مهمة ستقومون بتنفيذها في الأسبوع القادم أحكي لنا عن تلك المهمة.

_أية رسائل؟ لم أحمل هاتفي معي طوال إقامتي في هذا البيت.

رفع ضابط التحقيق حاجبيه دهشة وهو يقول:

_حقا؟

وماذا عن هذا؟

وأخرج هاتف من حقيبة صغيرة أمامه، وفتحه وقام بإزالة العصابة عن عين يوسف، ففتح عينيه ببطء وألم بعد ساعات من غلقهما، وجد ضابط التحقيق يضع أمامه هاتفه الذي كان تركه مع إيزابيلا قبل دخوله بيت عزلته، شاهد رسائل مسجلة فيه، أخذ الضابط يقلبها أمام عينيه، تتحدث تلك الرسائل بالفعل عن عمل ما سيقوم به يوسف وبعض الأشخاص بعد أسبوع!

_لا أعرف شيئا عن تلك الرسائل، وكما قلت لك لم يكن هاتفي معي.

_ كان مع من إذًا؟

_ضاع مني ولا أعرف أين فقدته.

_ولكننا وجدناه في البيت الذي تقيم فيه حاليا!

شعر يوسف بالحيرة! والأسوأ أنه بدأ يشعر بأن هناك من نصب له مصيدة وأوقعه فيها وأعد كل تلك الأدلة ضده. وظل السؤال يلح في خاطره "من؟"

_لا أعرف شيئا، أرجوك أنا متعب وأحتاج إلى بعض الراحة وأن تفك قيودي تلك فهي مؤلمة.

نظر ضابط التحقيق في عينيه وقال ساخرا:

_وهل تظن أننا نهتم براحتك؟ شهرتك لن تحميك منّا، الارهابيون لا أحد يحبهم. ودع حب الناس لك، خبر القبض عليك واتهامك بالإرهاب بعد اختفائك الغامض لمدة عام أصبح في كل وسائل الإعلام في العالم، أصبحت خبرا في نشرات الحوادث وبرامج الفضائح وعناوين الصحف، الأدلة ضدك كثيرة وقوية، لم يتبق لك شيئا فاعترف أفضل لك وجنب نفسك أيام التحقيقات الطويلة والمملة والمؤلمة.

يوسف بعد تلك الكلمات التي سمعها لم يكن هنا.. كان هناك في غيبوبة الصدمة، وألم المفاجأة!

والضابط لم يرحمه واستمر التحقيق لساعات أخرى لم يستطع يوسف تحملها، وخاصة أنه لم يتعاف من مرضه إلا منذ أيام فقط، فسقط في حالة إغماء حقيقية اضطروا فيها لاستدعاء طبيب ومن ثم نقله إلى المشفى.

الفصل الثامن

_يوسف أين أنت؟ لماذا لا تتحدث معي؟ أين ذهب صوتك وأين روحك؟ قلت أنك لن تتركني!

_ .....

_ يوسف. انظر إلى هذا الرجل الذي دخل الآن! لماذا ينظر إلينا بكل هذا الغضب والكراهية؟! يوسف أجبني أنا خائفة.. إنه يقترب منـا، يمد يديه إلينا، سيمزقنا يا يوسف، استيقظ، أجبني، لا تتركني وحدي، وعدتني ألا تتركني..

_ .....

_ إنه يفصلنا.. يبعدني عنك.. امنعه.. لا أريد أن أكون وحيدة.. لا أريد أن أبتعد عنك. يوس.....

خرج بيدرو من مرسم يوسف بعد أن مزق كل اللوحات التي وجدها، وطئها بقدميه، كره كل ما تمثله وكره يوسف وكل ما يمثله، كره أن يسلبه قلب زوجته.

إيزابيلا لم تعد تحبه، كيف يمكن لرجل محب أن يتحمل خيانة زوجته له ورحيل قلبها لغيره؟

كان عليه أن ينتقم، أن يستعيد كرامته المهدرة، ولكن كيف له أن يستعيد قلب زوجته! هذا ما جعل عيناه تدمع وهو يخرج من هذا البيت المحمل بالحزن والألم منذ بناءه وحتى الآن. كان بيتا للعبيد، ثم معتقلا لتعذيبهم، كان ممتلئا منذ قرون

بالصراخ والألم والعذاب، ولم يتوقف فيه الألم حتى الآن، فليس فيه سوى أرواح معذبة ودموع لا تجف..

عاد بيدرو إلى القصر، وجد بريسيلا فناداها وسألها عن سيدتها، فأشارت له بأنها نائمة. تنهد في حزن.

هي نائمة منذ يومين. أتاها بالطبيب أخبره أنها تعاني من صدمة عصبية خفيفة، ستفيق منها سريعا.

لم يشأ أن يراها، قلبه ممتلئ نحوها بالغضب وتمنى أن يمتلئ بالكراهية أيضا . ليته يكرهها لينتقم منها كما فعل بيوسف. لكن كيف لقلب عاشق أن يكره من يحب..!

صعد إلى غرفته، عاد ليقيم وحده في الغرفة الشرقية، أصبح بينه وبين إيزابيلا ملايين الأميال وهي على بعد خطوات منه أي جحيم هذا!

بدل ملابسه وخرج من القصر، كان على موعد مع ديفيد ساعده الأيمن وتلميذه النجيب، قام ديفيد بكل ما هو مطلوب منه، استطاع بيدرو أن يحصل على مفتاح البيت الصغير من حقيبة إيزابيلا، وقام بعمل نسخة له، أعطاها لديفيد مع هاتف يوسف الذي وجده في أحد أدراج الغرفة، وقام بمساعدة ديفيد في تزييف تلك الرسائل وتحضير تلك الأوراق المزورة، وتسلل ديفيد إلى بيت يوسف ودس كل تلك الأشياء التي تثبت تورط يوسف في العمليات الإرهابية ومن ضمنها مادة "التي إن تي" المفجرة التي وضعها في أحد أوعية الألوان ووضعها في مرسم يوسف عندما لمحه يخرج من المرسم

ويتجه إلى الحمام حين كان يختبئ في المطبخ متحينا الفرصة ساعده كثيرا عدم اتزان يوسف وارهاقه فلم يكن قد تعافى بعد من مرضه ولكنه ظل يرهق نفسه في الرسم لساعات طويلة . ظل خلالها ديفيد كامناً في المطبخ حيث أخبره بيدرو بأنه يدخله نادرا جدا، وأن بريسيلا هي التي من الممكن أن تكتشفه في المطبخ، لهذا قام بيدرو بتعطيلها في ذلك اليوم حتى يقوم ديفيد بمهمته، والتي كانت تتلخص في وضع الهاتف والأوراق في غرفة نوم يوسف، ووضع مادة التي إن تي في مرسمه. لهذا اضطر إلى الانتظار أكثر من أربع ساعات حتى لمح يوسف يخرج من المرسم، فتسلل هو إليه ووضع تلك المادة وخرج بهدوء. وسهل له بيدرو الخروج من القصر كما سهل له الدخول بإلهاء الحارس ببعض الطلبات كما فعل مع بريسيلا.

كان لابد أن يلتقي بيدرو وديفيد بعد التخلص من يوسف للتأكد من عدم ترك أي أثر يدل عليهما، وليمنحه المكافأة التي وعده بها.

كان لقائهما في أحد المطاعم الراقية التي اعتاد بيدرو على ارتيادها. وجد بيدرو ديفيد في انتظاره، فجلس قبالته وهو يلقي عليه التحية، ابتسم ديفيد مرحبا بأستاذه. ثم قال بسعادة:

_ ما رأيك في أدائي لتلك المهمة؟!

_ رائع ديفيد أدائك رائع، كنت أعلم أنك ستؤديها بدقة كعادتك، لهذا فأنت تستحق ما وعدتك به. أخرج بيدرو ورقة مطوية واعطاها لديفيد الذي فتحها بلهفة وألقى نظرة فرحة عليها، وأخذ يشكر أستاذه بحرارة.

كانت هذه الورقة هي عقد تنازل له عن شقة راقية يمتلكها بيدرو بجوار الجامعة، ديفيد الذي عاش حياة فقيرة وفي بيت متواضع، لم يتمالك نفسه عندما وعده أستاذه بأن يمنحه تلك الشقة الفاخرة التي تساوي الملايين. وعلى الرغم من أنه يحب أن يسدي لأستاذه أي خدمة بدون مقابل، إلا أن المقابل هذه المرة كان لا يمكن رفضه، فوافق سريعا عندما عرض عليه أن يساعده في تدبير مؤامرة للتخلص من يوسف.
خاصة أنه أخبره أنه يقيم علاقة مع زوجته ولهذا لابد له من الانتقام منه. لم يكن بحاجة لكثير من الإقناع، ما قاله أستاذه يكفي لإدانة العرب كلهم وليس فردا واحدا منهم.

_ دعك الآن من كلمات الشكر، عليك أن تتأكد من أنك تخلصت من أي أثر أو دليل يقود إلينا، يوسف شخصية عامة وكما ترى فإن العالم كله يتحدث الآن عنه، واندفعت منظمات حقوقية وجاليات عربية وحتى مجموعات أوروبية للدفاع عنه، وهذا سيجبر المحققين بأن يكونوا في منتهى الدقة والنشاط والاهتمام بكل التفاصيل في تلك القضية.

_ اطمئن، لا يوجد خيط واحد يقود إلينا. اهتممت بكل شيء حتى من قاموا بعملية تزوير الأوراق لا يعرفوا شخصيتي الحقيقية أو ملامحي، ذهبت إليهم متنكرا.

_ هذا جيد. كن على حذر، ولا تخبر أحدا بأمر تلك الشقة ومارس حياتك بشكل طبيعي، ولا تتصل بي كثيرا إلا لضرورة ولا تتحدث مع أحد بهذا الشأن.

_ حاضر، كل ما أمرتني به سأنفذه.

_ عظيم. تناول مشروبك إذًا وتفضل بالانصراف، سأجلس وحدي قليلا لأفكر.

تجرع ديفيد ما في كأسه كله جرعة واحدة، والقى على أستاذه التحية، وأنصرف بخطوات سريعة وهو يحمل الورقة الثمينة في يده والتي تمثل عقد الشقة التي لم يكن يحلم بها.

جلس بيدرو وحده يفكر في خطوته القادمة، من الضروري أن تؤيد إيزابيلا أقواله، هذا سيقطع كل شك فيه، ولكن هل حقا ممكن أن تشهد إيزابيلا ضد يوسف؟

سمع فجأة رنين هاتفه، فتحه واستمع للطرف الآخر الذي كان خادمه يخبره باستيقاظ إيزابيلا، فقام مسرعا واتجه خارجا نحو سيارته، أشعل محركها وأنطلق نحو القصر.

شاهد وهو يسير بسيارته إحدى المظاهرات المدافعة عن يوسف، لم يكن يعلم أنه محبوب إلى هذه الدرجة إلا عندما وجد كل هؤلاء الناس يهبون للدفاع عنه وينكرون بشدة أن يكون يوسف إرهابيا. هذا الحب أخافه، ولكن الذي يخيفه أكثر هو رد فعل إيزابيلا، أخشى ما يخشاه أن تلقي بكل شيء عرض الحائط وتهرع لإنقاذ حبيبها وتكشف سبب وجوده في هذا البيت واختفاءه تلك المدة، حينها سيدور الشك حوله هو، فلا أحد مستفيد من اقصاء يوسف غيره. ولكن هل سيصدق الناس هذا الاتفاق العجيب بين هذا العربي وإيزابيلا؟

بالتأكيد لا، ليس معها دليلا عليه سوى كلامها والذي يمكن تفنيده بسهولة، ولكنها في النهاية مخاطرة. الأفضل هو ألا تبوح إيزابيلا بشيء، يجب أن تصمت حتى لو اضطر إلى..

عند تلك العبارة توقف حبل أفكاره، ففكرة تخلصه من إيزابيلا فكرة مخيفة، لا يستطيع حتى أن يتناولها في خياله. لا بد أن يقنعها بأن تكون معه وليس ضده، نعم لا بد.

وصل إلى القصر، وترجل من سيارته، ألقى نظرة خاطفة على البيت الصغير وهو يهرول مسرعا نحو القصر ويصعد إلى غرفة إيزابيلا.

وصل إليها وهو يلهث، طرق الباب فلم يجيبه أحد، ففتحه ببطء ولمحها وهي راقدة في فراشها، مستكينة وعينيها شاخصة لسقف الغرفة وممتلئة بالدموع.

دخل إلى حجرتها بهدوء، وجلس على مقعد قريب من فراشها، نظر إليها، ثم نظر إلى الأرض وقال:

_ سعيد جدا بعودتك. حدث الكثير أثناء غيبوبتك.

اتجهت بعينيها إليه ولكنها لم ترد.

_ لا وقت كبير لدينا، الشرطة تسأل عنكِ كل بضعة ساعات متلهفون ليسمعوا أقوالك، لا بد أن نتفق أنا وأنتِ في الأقوال حتى نعبر هذا الوقت العصيب بسلام.

انحدرت دمعة ثخينة على جانب عينها، لم تحاول مسحها وقالت له بهدوء:

_ جريمتك سيتم كشفها، لن تستطيع الإفلات بفعلتك.

_ لم أرتكب جريمة، هو من فعل. وأنتِ شريكة له في جرمه.

_ لماذا إذًا لم تنتقم مني مثلما فعلت معه؟

_ ومن قال أنني لم أفعل؟ أنظري لنفسك ولرقدتك تلك وستعلمين أنني فعلت.

_ لم أتخيل يوما أنك قادر على كل تلك الكراهية.

_ وأنا لم أتخيل يوما أنكِ قادرة على خيانتي.

_ لم أخنك. قلبي لا إرادة لي عليه.

_ هذا ما تقوله كل الخائنات.

كانت نبرة صوتيهما ترتفع، والغضب بدأ يجد طريقه إليهما مرة أخرى.

_ لماذا لم تنفصل عني بهدوء؟ لماذا لجأت لتلك المؤامرة الدنيئة؟

_ فقدك جريمة لا يتم الرد عليها إلا بجريمة.

_ لا تدعي الحب، لا أظن قلبك يعرف الحب، ما تشعر به تجاهي هو رغبة كبيرة في التملك، تعودت أسرتك على أن تملك كل شيء، ولا يسلبها أحد شيئا وأنت سليل هؤلاء المستبدون، رغبة التحكم في البشر تسري في دمائكم. وأنا لست ملكا لأحد.

ضحك ساخرا وقال متهكما:

_ وماذا عن تلك الصفقة التي كنتِ ستبيعين بها نفسك لهذا العربي؟

_ لم أقبل إلا لأنني كنت على يقين من أنه سيخسر.

_ ولكنه كان يريد أن يمتلكك، وتكوني جسدا مستباحا له، هل من يفعل هذا يعرف الحب؟ كيف أقنعتِ نفسك أنه يحبك وهو

يراكِ كصفقة! وكيف كنتِ ستتحملين إن قام بالإعلان عن هذا الاتفاق؟ لم أكن أتوقع أن تكوني بمثل تلك السذاجة.

_ نعم لم يكن يحبني في البداية، ولكنني على يقين الآن من حبه لي.

_ اسمعي جيدا، لا أريد أن أكرر ما قلته سابقا، عندما يسألك ضابط التحقيق، ستخبرينه أن يوسف هذا تقابل معنا على يخت ريكاردو وتكلم معنا، وعندما علم أن لنا بيتا صغيرا ملحق بالقصر طلب أن يقيم فيه، بحجة أنه يبحث عن العزلة لبعض الوقت، ولكننا لاحظنا دخول بعض الأشخاص ذوي الملامح العربية عنده ليلا، وهذا ما جعلنا نشك ونستريب في نواياه، فقمنا بالإبلاغ عنه.

هذه كانت أقوالي التي أدليت بها وأريدك أن تؤمني على أقوالي وتؤكديها. ولا تفكري في قول الحقيقة لأن الحقيقة ستؤذيني وتؤذيكِ.

نظرت إليه بألم وأغمضت عينيها ولم ترد. كاد أن يكرر كلامه، ولكنه شعر بعدم جدوى التكرار، واضح أنها تفكر في ما قاله وتراه وجيها ويستحق التفكير. تركها وذهب إلى غرفته ليستريح، فهو متعب جدا من كل شيء. وهي بقيت وحدها في غرفتها حتى سمعت طرقا على الباب، فأمرت من بالباب بالدخول ففتح الباب وظهر الوجه الذي كانت تحتاجه في تلك اللحظة فعلا.. وجه تيلدا الحبيب.

دخلت تيلدا وهي تبتسم كعادتها بوجهها الدائري المريح وابتسامتها العذبة وبحنان عينيها الجارف. تعانقتا في ود.

وجلست تيلدا على المقعد الذي كان يجلس عليه بيدرو منذ قليل وسألت إيزابيلا عن أخبارها:

_ لست بخير. أخبريني ماذا حدث في هذين اليومين الذين غبت فيهما عن الوعي.

_ العالم كله يتحدث عن يوسف، وانقسم الجميع بين مدين له ومدافع عنه، وعادت فوبيا الإسلام في التسلل والمدافعين عن الحريات في مواجهتها، ومعجبي يوسف لا يتوقفون عن التظاهر والتحدث في وسائل الإعلام دفاعا عنه. والتحقيقات لازالت سارية.

_ تعلمين طبعا أن يوسف بريء.

_ حقا؟

_ نعم. بيدرو هو من أبلغ عنه بعد أن دس له أدلة مزيفة على إرهابه، لقد اعترف لي بكل شيء.

_ ولماذا اعترف لكِ؟

_ حتى أؤيده في ادعاءاته وأقواله، يخشى أن أقول لهم شيئا عن اتفاقي مع يوسف وحينها سيتم ضحت كل تلك الأدلة وسيظهر بيدرو كمتهم أول في هذه المكيدة.

_ حتى ولو تم الكشف عن الاتفاق الذي بينكما فالأدلة ضد يوسف قوية، لا يوجد دليل على أن بيدرو هو الذي قام بنصب تلك المصيدة ليوسف.

_ بل يوجد. ديفيد مساعد بيدرو دس كاميرات مراقبة في بيت يوسف ولقد رأته بريسيلا منذ شهور وأخبرتني بتسلله

لغرفة يوسف، ومن يدس كاميرات يمكن له أن يدس أدلة ملفقة على الإرهاب، كما أن الدافع لفعل ذلك موجود وهو أنا.

_ لماذا دس ديفيد هذا تلك الكاميرات؟

_ أراد بيدرو أن يعرف هل أخونه مع يوسف أم لا.

هزت تيلدا رأسها علامة الفهم وقالت:

_ كيف يقدم بيدرو على عقد تلك المؤامرة ضد يوسف دون أن يخشى كشفك للحقائق كلها؟

_ لأن كشفي لتلك الحقائق معناه فضيحة مدوية لي، إن علم الناس باتفاقي مع يوسف سأصبح خبرا رائجا في كل وسائل الأعلام، وسينقلب الكثيرون ضدي، لا أعتقد سيقف أحد بجانبي، فهو اتفاق سخيف وأحمق بكل المقاييس. كما أنني برغم كل شيء لا أستطيع الاضرار ببيدرو، لا استطيع إلقاءه في السجن، فعل ما فعل من أجلي. أنا من قضيت على كل من أحبهم بغبائي.

ربتت تيلدا على كتف إيزابيلا في حنان وقالت:

_ هوني على نفسك عزيزتي، استردي صحتك أولا، ثم خذي قرارك الذي ترينه صائبا.

سالت دمعة على وجنة إيزابيلا وهي تقول:

_ لم أعد أعلم ما الصواب وما الخطأ. أنا ضائعة تماما يا تيلدا، غارقة وكل شيء حولي غارق.

_ أشعر بما تشعرين به، عليكِ الاختيار الآن بين زوجك وحياتك وبين يوسف. إما أن تصمتي لتنقذي زوجك وسمعتك أو تتكلمي لتنقذي يوسف وتهدمي المعبد فوق رأسك ورأس بيدرو.

سالت دموع إيزابيلا، وشاركتها تيلدا البكاء، حزنا على رفيقة الروح والعمر التي تتعذب أمامها وهي عاجزة عن فعل شيء لمساعدتها.

في اليوم التالي جاء استدعاء رسمي لإيزابيلا للمثول أمام ضابط التحقيق لاستكمال التحقيقات، كان هذا الاستدعاء بمثابة مقصلة تم إعدادها لإعدامها، لم تشعر يوما بمثل هذا الخوف والذعر، ما الذي ستقوله! هذا ما قضت الساعات تفكر فيه دون نتيجة، الاختيار صعب والحقيقة ذابحة فأين المفر..؟!

جاء موعد ذهابها للتحقيق، لم تتعاف بشكل كامل ولكن لا تظن أنها ستتعافى أبدا، فماهي مقدمة عليه يفوق قدرتها على تجاوزه.

ارتدت فستانا بسيطا، وصففت شعرها بطريقة بسيطة أيضا ثم ألقت على نفسها نظرة في المرآه وتنهدت بحرقة، ثم اتجهت نحو الباب..

هبطت الدرج في بطء، تخذلها أفكارها، فتقفز في تتابع مجنون وكأنها في سباق محموم، وعقلها اللعين توقف بشكل كامل عن العمل، وقلبها يحتضر ولا يبالي به أحد.

خرجت من باب القصر واتجهت نحو سيارتها ففوجئت بزوجها يجلس فيها. وقفت أمام مقدمتها تنظر إليه من خلال زجاجها الأمامي منتظره خروجه منها، ولكنه لم يخرج. فاتجهت إلى الباب الجانبي وفتحته ودخلت وجلست بجواره. لم ينظر إليها ولم يكلمها، فقط أشعل محرك السيارة وانطلق.

بعد مرور خمسة دقائق تقريبا وهم صامتين، بدأ بيدرو الحديث:

_ماذا ستقولين في التحقيق؟

_سأجيب على الأسئلة.

_إيزابيلا لا تتلاعبي بي، ولا تغامري بحياتنا. أنا وأنتِ في مكانة اجتماعية لا تتحمل أي مغامرة. أي تشويه لصورتنا سيقضي علينا.

_ أنت من غامر بكل شيء حين دبرت تلك المكيدة ليوسف ما كان يجب أن تفعل.

_لم أفعل سوى حمايتك وحماية نفسي.

_أين تلك الحماية وها أنا وأنت نجلس مذعورين من نتيجة هذا التحقيق! للأسف لم تفكر جيدا في هذا الأمر، تصرفت مثلي بتهور.

_جيد أنكِ تعترفين بتهورك. ولكن ما فعلته أنا ليس سوى رد فعل لتهورك أنتِ، لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ومضاد له في الاتجاه .

_اتجهت بنا إلى حائط سد، كان يكفي أن ننفصل، فتأمن على حياتك وسمعتك العريقة.

نظر إليها بطرف عينيه ولم يقو على إخبارها بأنه لم يستطع الانفصال عنها لأنه يحبها. لا يظن أنها تستحق هذا الحب الآن ولا أن تعرفه، ولكن للأسف لازال يعربد في صدره ذلك القلب الضعيف. كان لازال غير واثق مما ستقوله في التحقيق؛ لهذا أراد أن يرمي آخر رمية نرد في لعبة المقامرة تلك وقال لها ببطء:

_ إيزابيلا أنا لن أخسر أبدا أمام هذا العربي، ولن أسمح لكِ بأي تلاعب. إما أن تؤيدي أقوالي وإما أن تخسري تيلدا أيضا.

لم تصدق أذنيها!! فنظرت إليه بدهشة شديدة.. لم تجد كلمات لتقولها، هل ما سمعته حقيقة؟ هل يهددها بقتل صديقتها؟! هو يعلم أنها ليس لها في تلك الحياة غيره وغير تيلدا بعد وفاة أبيها وأمها. هل حقا يريد حرمانها من تيلدا! وكيف أصبح أستاذ الفيزياء الشهير فجأة مجرما هكذا! يخطط ويدبر مؤامرات وجرائم قتل. كيف يتحول إنسان راقي إلى وحش قاسي بهذه السهولة؟!

_ نظرة الدهشة والاستنكار هذه كانت من نصيبي أنا حين رأيت لحظاتك الرومانسية مع هذا العربي البائس، لم تتركِ لي فرصة لفعل أي شيء بشكل يليق بي أو بكِ. سقطتِ واسقطتني معكِ في مستنقع من القاذورات، لم يبق أحد منا فيه على نقاءه ونظافته.

تنهدت.. وهي تعيد رأسها إلى الوراء وهي تتمنى لو تموت في تلك اللحظة وقبل أن تصل إلى مركز الشرطة وقبل أن تقف موقف الاختيار القاسي هذا.

كيف للحياة أن تصبح بمثل ذلك السواد وتلك الوحشة! دعت ربها، صلت في صمت و توسلت إليه أن ينقذها فلم تعد لها أي قدرة على التفكير..

وصلت السيارة إلى مقر الأمن الداخلي، فترجلت منها إيزابيلا، وسمعت بيدرو يقول:

_ سأنتظرك هنا.

لم ترد عليه واتجهت بخطوات بطيئة إلى درج المخفر.

قدمت للحارس ورقة الاستدعاء، فأشار لها إلى الداخل، سارت حتى قابلها أحد الضباط وسألها عن وجهتها فقدمت له ورقة الاستدعاء في صمت فالكلام أصبح ثقيلا جدا على لسانها وليس لها طاقة به. أشار لها الضابط لتتبعه فسارت خلفه في رواق طويل انتهى بدرج صغير أرتقاه الضابط وهي وراءه حتى وصلا إلى باب مغلق، فأشار لها أن تنتظره وفتح الباب ودخل وحد، ثم عاد بعد دقيقة وقال لها "تفضلي بالدخول"

خطت بأقدام مرتجفة إلى الداخل، فرأت مكتب متوسط الحجم يجلس خلفه رجل يرتدي جاكت أسود، وله شارب كث وأمامه بعض الملفات المكدسة.

قام عندما رآها وأستقبلها باحترام وأشار إليها لتجلس.
جلست وانتظرت أن يبدأ هو بالحديث:

_ كيف حالك سيدتي؟ سمعت أنكِ منذ القبض على يوسف وأنتِ مريضة.

_ بخير الآن.

_ هذا جيد، نسيت أن أعرفك بنفسي، أنا المفتش خوسيه .

_ أهلا بك.

مد يديه إلى جهاز تسجيل أمامه وضغط احد أزراره وطلب منها أن تعرف نفسها ففعلت، ثم بدأ بالأسئلة:

_ هل ممكن أن تخبرينني ما هي علاقتك بيوسف؟

ابتلعت إيزابيلا ريقها ثم قالت:

_ ليس لي علاقة به، هو مجرد صديق.

_ متى تعرفتي به وأين!

_ كنت أتتبع أخباره منذ فترة طويلة لأنني من المعجبات بفنه ولوحاته، ولكن لم نتعرف ببعضنا إلا على يخت رجل الأعمال ريكاردو كورانك.

_ ولكن تحرياتنا تقول أن يوسف سأل عنكِ في السفارة الفرنسية منذ أكثر من عام، وهذا كان قبل رحلة اليخت بحوالي ثلاثين يوما.

فوجئت إيزابيلا بأنهم توصلوا لشيء كهذا! فكيف بباقي الأحداث؟ بالتأكيد سيكتشفون كذبها إن حاولت أن تكذب.

_ لا أعرف أنه سأل عني في السفارة، لكن أتذكر أننا تحدثنا حديثا عابرا في حفلة السفارة منذ أكثر من عام، ولكننا لم نتعرف جيدا إلا على اليخت.

هز خوسيه رأسه علامة الفهم ثم قال:

_ حسنا هل تستطيعين أن تصفي لي كيف كان لقاؤكما على اليخت؟ وما الذي تحدثتما فيه؟

_ تعارف عادي بحكم أنني معجبة بفنه، وتجاذبنا أطراف الحديث في شتى الموضوعات.

_ فكيف إذًا انتهى به الحال في قصرك؟

_ هو تعرف على زوجي أيضا وطلب منا أن نستضيفه لفترة.

_ وما السبب؟

_ قال أنه بحاجه لبعض العزلة، ليعد لمعرضه القادم.

_ ولماذا طلب منكما أنتما هذا ولستما من أصدقاءه المقربين؟

_ لأنه علم من سياق حديثنا أننا نمتلك بيتا صغيرا ملحقا بالقصر.

كانت إيزابيلا تحاول قدر الإمكان أن تحتفظ بتركيزها تحسبا لأي سؤال مفاجئ.

_ يوسف ثري جدا ويمتلك ثروة كبيرة ويستطيع أن يشتري بيتا في أي مكان منعزل يريده فلماذا قصركما بالذات؟

اسقط في يد إيزابيلا.. ولم تدر بماذا تجيبه "هل سألوا هذا السؤال لزوجها ؟ تُرى ماذا كانت اجابته !"

أخرجها من أفكارها صوت خوسيه وهو يقول:

_ لم تجيبي سيدتي على سؤالي!

_ في الحقيقة ربما السبب هو.. أنه.. معجب بي.

فكرت في تلك الإجابة بشكل سريع وقالتها ببطء.

وجدتها ملائمة للسؤال ولم تحسب حساب الأسئلة القادمة التي سببتها تلك الإجابة وما الذي ستفتحه عليها من نوافذ. ولكن طاف برأسها اللوحات التي رسمها لها يوسف، بالتأكيد شاهدتها الشرطة، وأفضل تفسير لها هو إعجاب يوسف بها.

عاد خوسيه بظهره إلى الوراء وهو يتأمل إيزابيلا وكأنه يفكر في أمر ما ثم قال بهدوء:

_ كيف علمتِ بإعجابه بكِ؟

_ نظراته واهتمامه، هذه أشياء تفهمها المرأة جيدا.

_ ولكنكِ قلتِ في البداية أن ما بينكما مجرد صداقة.

_ من ناحيتي هي كذلك، علاقة الحب التي تلمح إليها يجب أن تكون برغبة الطرفين معا وليس طرفا واحدا.

ابتسم في خبث وقال:

_ أنا لم ألمح لشيء أنا فقط أسأل.

أخبريني كيف تعلمين بإعجابه بكِ وتوافقين على استضافته في بيتك؟! وهل زوجك يعلم بهذا الإعجاب؟

ترددت إيزابيلا في الإجابة، ولكن نظرات خوسيه الثاقبة والمنتظرة جعلتها تجيب رغما عنها:

_ لم استطع الرفض خجلا، كما أنني لم أزره فيه، وزوجي لا يعلم عن إعجابه شيئا.

مال خوسيه فجأة للأمام وقال وهو يزيد من تركيز عينيه في عينيها وكأنه يسلط عليها شعاعا ليزريا يستكشف به أفكارها:

_ كيف إذاً علمتِ أنتِ وزوجك بهؤلاء الغرباء الذين يزورونه؟

_ لم أقل أنني رأيت غرباء عنده.

_ ولكن زوجك قال هذا وقال أنكِ رأيتهم معه!

_ ربما ظن هذا، ولكنني لم أر أحدا.

_ حسنا، انتظريني هنا من فضلك عدة دقائق.

ثم نهض واتجه إلى الباب وفتحه وخرج وأغلقه وراءه.

جلست إيزابيلا وهي مضطربة وقلقة مما سيحدث بعد هذا. وتعلم أن ثورة زوجها عليها ستكون كبيرة عندما يعلم بأنها لم تؤمن على أقواله وأنها كذبتها. حتى وإن لم تكشف الحقائق كلها ما قالته وحده كفيل بزرع الشك في مصداقية أقوال زوجها. وتذكرت تهديده بقتل تيلدا "هل كان تهديدا جديا أم لمجرد التهديد فقط!"

عاد ضابط التحقيق بعد خمس دقائق تقريبا وهو يحمل شيئا في يده. جلس قبالتها كان ما في يده مغلفا فتحه وأخرج منه بعض الصور وأراها له.

كانت صور ملتقطة لهما وهما يلعبان الشطرنج على اليخت. وصور أخرى لبعض اللوحات التي رسمها لها يوسف، وصورة لا تعرف من التقطها تُظهر إيزابيلا وهي تجلس مع يوسف وينظران لبعضهما بشغف!

رفعت نظرها إلى خوسيه متسائلة فلمحت نظرة ساخرة في عينيه أغضبتها، فقالت بضيق:

_ ماذا تقصد بهذا؟

_ أقصد أن العلاقة بينكما لا تبدو كعلاقة حب من طرف واحد كما تدعين.

أوجعتها كلمة "كما تدعين" ولكنها ابتلعتها وقالت:

_ صور اليخت بالتأكيد صورها أحد الموجودين عندما كنا نلعب الشطرنج ولا أظن أنها دليلا على شيء. الصور التي رسمها يوسف لو دققت النظر في الصور ورأيت نظرة عيني فيها ستعرف أنها إما لا مبالية أو قاسية لا حب فيها. أما تلك الصورة الأخيرة حيث ننظر لبعضنا بحب فلا أعرف عنها شيئا ولم يحدث ما تُظهره.

ابتسم خوسيه وقال:

_ الصورة الأخيرة من رسومات يوسف، وليست صورة فوتوغرافية.

أعادت النظر إليها في دهشة، فهي تبدو حقيقية تماما.

_ رسمها من خياله إذاً ولا تدل على شيء.

_ لاحظنا أن كل رسوماته التي رسمها طوال العام تُظهرك كما قلتِ إما لا مبالية أو قاسية، إلا هذه الصورة الأخيرة. يُظهرك فيها كعاشقة مدله. ما تفسيرك لهذا؟

_ لا أعرف، أسألوه هو.

تنهد خوسيه وقال:

_ حسنا أخبرينا كيف شككتِ في أن يوسف يخطط لعملية إرهابية؟

_ لم أقل هذا.

_ ولكن زوجك قاله وأكد على أنكما اتفقتما على الإبلاغ عنه.

قالت ببطء وهي تعلم أن ما تقوله سيجعل رأس بيدرو تنفجر من الغضب:

_ لم أتفق معه على هذا، فوجئت بخبر القبض عليه.

هز خوسيه رأسه مؤكدا على كلامها وقال:

_ لو لم تقولي هذا لقفزت علامات الاستفهام بيننا متحدية. فالضابط الذي قام بالقبض على يوسف قال في أقواله أنكِ هرعتِ مذعورة إليهم وتساءلت بخوف عن القبض على يوسف وأنه أخبرك بأن تذهبي إلى زوجك لتسأليه. فهل سألتهِ؟

_ عن ماذا؟

_ عن كذبه علينا وتأكيده على أنكِ اتفقتِ معه على الإبلاغ عن يوسف!

_ لا لم أسأله لأنني لم أعرف هذا إلا الآن.

_ ألم يحاول الضغط عليكِ لتدلي بأقوال معينه؟

_ لا لم يحدث.

نهض خوسيه غاضبا وقال:

_من تحاولين حمايته بالضبط؟ زوجك أم يوسف؟

_ لا أحمي أحدا أقول الحقيقة وحسب.

قال خوسيه وكأنه يحادث نفسه وينظر للا شيء:

_ يوجد هنا حلقة مفقودة لا أفهمها! كل الأدلة التي تثبت إرهابية يوسف موجودة.

شيء واحد فقط لا يتوافق وكل تلك الأدلة.

قالت إيزابيلا باهتمام:

_ وما هو؟

_ كل تلك اللوحات التي رسمها يوسف لكِ، هذا وقت طويل قضاه عاشق في الرسم وليس إرهابيا في التخطيط. تلك اللوحات تحتاج إلى شهور مضنية من الرسم المتواصل بالساعات. فأين الوقت الذي قضاه في التخطيط للعملية الإرهابية! كما أن بريسيلا..

عندما ذكر بريسيلا كادت إيزابيلا أن تقفز من مقعدها. فلقد نسيت في خضم هذا كله أن تتحدث مع بريسيلا لتوجه أقوالها نحو جهة آمنة. فهل فعل بيدرو!

_بريسيلا أخبرتنا عن طريق مترجم بالإشارة طبعا أن يوسف كانت تصرفاته غريبه، وكان يقضي معظم وقته في المرسم، ولكنها ذكرت أيضا أنها رأت بعض الأشخاص يزورونه ويقضون وقتا طويلا معه يتهامسون وكأنهم يخططون لشيء.

نظرت ايزابيلا إلى الأرض في يأس، فبيدرو انتبه لبريسيلا بالفعل ولقنها ماذا تقول "تُرى هل أخافها وهددها أم منحها مبلغا كبيرا من المال؟!"

_لكن أقوال بريسيلا بها بعض التناقض والاضطراب! هناك شيئا غريبا في تلك القضية وكنت اتمنى أن تساعديننني في فهمه.

_ليتني أستطيع، ما أعرفه أخبرتك به.

_ حسنا، تفضلي وإن احتجنا لكِ مرة أخرى سنستدعيكِ فالتحقيق لم ينتهي بعد.

هزت رأسها علامة الفهم، ونهضت من مقعدها واتجهت إلى الباب وفتحته، وقبل أن تخرج سمعت خوسيه يقول لها:

_ شخص ما قام بتمزيق كل لوحات يوسف التي قضى هذا العام كله في رسمها بعد انصرافنا وانتهائنا من معاينة البيت وتفتيشه، لا نعلم من فعل هذا ولكن يبدو أنه شخص غاضب.

ثم ضغط على حروف الكلمة الأخيرة:

_ أو غيور..

تلقت هذا الخبر وكأنه طعنة في قلبها.. كل لوحات يوسف التي رسمها طوال عام سجنه تم تمزيقها! أي صدمة تلك! وكيف سيتحملها يوسف؟

التفتت إلى خوسيه وسألته وهي تجاهد لتتكلم فالكلمات أصبحت أثقل من الجبال على لسانها:

_ هل علم يوسف بهذا؟

_ لا، لم نخبره بعد.

_ أرجوك لا تخبره، لن يتحمل خبرا كهذا وهو وحده في سجنه.

نظر خوسيه إليها طويلا، ثم هز رأسه علامة الفهم والموافقة. فحيته إيزابيلا برأسها وابتسامة شكر وامتنان وخرجت وأغلقت الباب ورائها وهي تخوض صراعا مريرا مع دموعها التي تريد أن تسقط ولكن كبتتها إيزابيلا وسارت مرفوعة الرأس وهي تشعر بأنها أصبحت كائن هلامي عديم الوجود أو المعنى. كانت تستطيع أن تُخرج يوسف من تلك القضية، كانت تستطيع أن تنقذه، ولكن انقاذ يوسف هو غرق لها وموت لزوجها. كما أن تيلدا أصبحت أيضا على حافة الجرف، لا تدري مدى جدية بيدرو في تهديده ولكن هل تملك القدرة على المغامرة بحياة صديقتها الوحيدة !

أصبحت خارج المبنى، نظرت حولها بحثا عن سيارتها وزوجها، فلم تجدهما. فوقفت برهة لا تعرف ماذا تفعل، هل

تنتظره أم تستقل سيارة أجرة! ولكن لم تطل حيرتها، وجدت بيدرو يشير إليها من السيارة التي كانت تقف بعيدا عن مركز الشرطة، سارت بخطوات متثاقلة نحوه وعندما وصلت إليه فتحت الباب وركبت بجانبه وهي تنظر أمامها وكأنه غير موجود.

_ ماذا قلتِ لهم؟

_ لم أكذب.

نظر إليها بغضب:

_ ماذا؟!

_ ولم أخبرهم بالحقيقة كاملة أيضا.

_ وضحي كلامك.

_ انكرت رؤيتي لغرباء يزورون يوسف، ولكن لم أخبرهم باتفاقي معه. أخبرتهم بما طلبته مني، أنه تعرف علينا في اليخت وطلب الإقامة في المنزل الصغير ونحن وافقنا فقط هذا هو كل ما أخبرتهم به. قال بغيظ مكتوم:

_كان يجب أن تؤكدي كلامي، أقوالك هذه ستجعلهم يشكون في أقوالي، لماذا تصرفتِ بهذا الغباء؟

_لأنني لا استطيع الكذب.

نفخ من أنفه وهو يقول ساخرا :

_ تستطيعين الخيانة فقط ، أليس كذلك؟

التفتت إليه في غضب وهي تصرخ قائلة:

_ قلت لك لم أخنك، متى ستصدق هذا؟ توقف عما تفعله فأنت أصبحت كالثور الهائج تحطم كل شيء حولك.

قال بحزن:

_أنتِ من جعلتني هكذا، منحتك الكثير من كل شيء وكان جزائي الخيانة.

_عقلك المريض هو الذي يصور لك هذا، علاقتي بيوسف لم تتعد المشاعر والأحاسيس فقط. لم أسمح لها أن تتجاوز هذا.

_ حين تزوجتك تزوجت جسدك وقلبك معا وليس أحدهما فقط. حبك له خيانة لي وانقاصا من حقي وملكيتي لكِ.

كانت تعلم أنه على حق ولكن ضايقتها كلمة ملكية، ضايقها أنه لم يحاول فهمها، لم يحتويها ويأخذها بعيدا عن يوسف بدلا من أن يدبر له تلك المصيدة ويضعهم كلهم في هذا الموقف الصعب. قامر بكل شيء فجعلهم كلهم يخسرون. هدم المعبد على رأسه وعليهم جميعا، ماذا يتبقى بعد ذلك غير الموت..!

تنهدت وارجعت رأسها إلى الوراء وأغمضت عينيها بحثاً عن لحظة سلام وهدوء، اتعبتها تلك الحرب وهزائمها المتكررة، كيف لها بهدنة تريحها من كل تلك المعارك القاسية..

قاد بيدرو السيارة في صمت، كان يحتاج للتفكير، يخشى أن تؤثر أقوال زوجته على مصداقيته، ولكن الأدلة المادية لازالت قوية ضد يوسف، الرسائل والمتفجرات وعزلته الغامضة وجنسيته العربية، كلها أدلة ملموسة لإدانته بخلاف

أقواله وأقوال زوجته. عليه فقط الآن أن يستعد بإجابة مناسبة إن سألوه عن انكار زوجته لرؤية غرباء يزورون هذا اليوسف. عليه أن يفكر جيدا وأن يجد ردا مقنعا، هذا ما يجب أن يركز فيه ويدع حسابه لزوجته جانبا الآن، فهناك أولويات عليه أن يهتم بها.

وصلا إلى القصر، فترجلت إيزابيلا من السيارة وهرعت ركضا نحو القص، كانت تريد أن تلوذ بغرفتها وتخبئ وجهها في وسادتها وتغرق في بكاء حبسته طويلا..

جلس خوسيه مع رئيسه يتباحثان حول قضية يوسف، قدم خوسيه كل المعلومات التي توصل إليها حتى تلك اللحظة إليه. أصبحت قضية رأي عام والاهتمام بها تعدى حدود

اسبانيا، فشهرة يوسف شهرة عالمية ومعجبيه في كل مكان. وهذا مثّل ضغطا كبيرا عليهم بوصفهم محققين.

_ مجهودك جيد يا خوسيه، ولكنه ليس كافيا.

عليك أن تصل إلى هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يزورونه، يجب أن تكون القضية مكتملة الجوانب قبل وصولها إلى المحاكمة.

_أحاول جاهدا سيدي، برغم أنني أشك في وجود هؤلاء الأشخاص.

نظر إليه رئيسه متسائلا، فأكمل خوسيه:

_لا دليل على وجود هؤلاء، الأقوال حولهم متضاربة ولم يعطنا أحد ممن قال بوجودهم أي تفاصيل أو أوصاف تمكنا من القبض عليهم، يقولون أنهم كانوا يزورونه ليلا، ولهذا تعذرت عليهم رؤية ملامحهم. ولكنني عندما زرت القصر ليلا وجدته مضاءَ بشكل جيد من الخارج! كما أن من المستحيل أن يعبر أحد بوابة القصر دون أن يرى الحارس وجهه جيدا!

الحارس والخادمة وصاحب القصر ثلاثتهم أيدوا رؤيتهم لهؤلاء الغرباء، ولكن لم يعطنا واحدا منهم إفادة جيدة حولهم. كما أن الزوجة أنكرت رؤيتها لأحدهم برغم أن زوجها قال أنها رأتهم معه. وهناك أشياء أخرى تجعلني أشك في مفردات تلك القضية.

قال رئيسه باهتمام وهو يزوي ما بين عينيه:

_مثل ماذا؟!

_مثل تلك اللوحات الكثيرة التي رسمها يوسف، لو كان هدفه التخطيط لعمليات ارهابية متتابعة وهذا سر اختفاؤه عن انظار الجميع، فلماذا قضى تلك الشهور في رسم عشرات اللوحات المتقنة والمبدعة لهذه المرأة ولنفسه؟! إن تأملت يا سيدي تلك اللوحات سترى أنك أمام عاشق يرسم إحساسه وشغفه بامرأة لا تشعر به. بحكم خبرتي وتعاملي مع كثير من الارهابيين والبحث ورائهم وفي حياتهم وصلت إلى حقيقة مفادها أن هؤلاء الناس ليست لهم قلوب، بل هم أحجار صماء. لا يوجد إرهابي عاشق إلا في الروايات الخيالية فقط كما أن هذا الوقت الطويل جدا الذي قضاه في الرسم لا يمكنه من أن يجد وقتا للتخطيط لأي شيء، عرضت بعض صور اللوحات التي التقطناها بعد القبض عليه على بعض الرسامين وسألناهم عن الوقت الذي يستغرقه رسم لوحة واحدة منها، أجمعوا على أنها تحتاج على الأقل لأسبوعين من الرسم المتواصل ودون توقف! تخيل يا سيدي أن هذه اللوحات كانت بالعشرات! هذا معناه أنه لم يكن يتوقف عن الرسم إلا للأكل والنوم فقط. وهذا ما أكدته الخادمة بريسيلا. كما أننا وصلنا من خلال تحرياتنا إلى أن يوسف كان يطارد إيزابيلا، سأل عنها في السفارة الفرنسية بعد احدى الحفلات التي اقيمت فيها، كما أنه قابل مصور الحفل وحصل منه على صورتها مقابل مبلغ من المال، وذهب إلى المعهد الذي تعمل به وحضر إحدى محاضراتها، وهذا أكده بعض من رأوه هناك، فكما تعلم فإن يوسف شخصية معروفة جدا ولافتة للنظر. وصديقه ريكاردو صاحب اليخت أكد لنا أن يوسف هو الذي طلب منه أن يدعو بيدرو وزوجته، لم

يخبرنا بأكثر من هذا، ولكنني شعرت من عينيه بأنه يخفي أمرا آخر، وبالتأكيد سأصل إليه.

ولكن حاليا أمامي شيء هام لابد أن أكشف سره.

_وما هو؟!

_من الذي مزق لوحات يوسف التي رسمها طوال فترة عزلته؟ وما هدفه من هذا!

_أعتقد أن الأمر واضح.

_نعم سيدي، فلا أحد فعل هذا غير بيدرو زوج إيزابيلا.

فهذه فعلة زوج غيور، وربما القضية كلها سببها تلك الغيرة.

نظر إليه رئيسه بتركيز وقال ببطء:

_ هل تظن أن بيدرو هو من لفق كل تلك الأدلة ليوسف؟

_نعم هذا ما أظنه، ولكن أحتاج إلى أدلة قوية لإثباته.

_هذا لعب بالنار يا خوسيه. هذا سيضعنا كلنا في موقف حرج، وسنظهر أمام الرأي العام كعنصريين ومضطهدين للعرب وكارهين لنجاحهم، لا تنسى كل تلك التصريحات التي أدلينا بها خلال الأيام الماضية والتي قلنا فيها أن الأدلة قوية تجاه يوسف.

_سيدي نحن نقوم بتحرياتنا بحثا عن الحقيقة، إن اكتشفنا براءة يوسف وأعلناها فهذا سيظهرنا بمظهر جيد وسيحترمنا الجميع، فالتصريحات الأولى تلك كانت بناء على أدلة

وجدناها، وبظهور أدلة أخرى أظهرت الحقيقة لنا، ما الضرر في هذا؟

_اتفق معك، ولكن ربما لرؤسائي رأيا آخر. القضية تحولت بشكل غريب إلى قضية سياسية، والاهتمام بها يتسع ويمتد. ولا نريد أن نظهر بصورة هزيلة في النهاية وأن نتعرض للنقد. لهذا عليك أن تكثف بحثك في صمت وتوقف عن الادلاء بأي تصريحات واستعن بكافة المساعدات التي تحتاجها، لك كل التسهيلات التي ترغبها بشرط ألا توقعنا في مشكلة أو تعرضنا لأي حرج.

_ اطمئن سيدي، لن يعلم أحد بخطواتنا ولن نعلن شيئا قبل أن نتأكد منه مائة في المائة.

_تمام خوسيه، ولكن عليك الإسراع قليلا فالضغوط علينا من كل جانب.

_حاضر سيدي.

_تفضل، بالتوفيق.

نهض خوسيه وخرج من مكتب رئيسه وهو يفكر في خطوته القادمة..

الفصل التاسع

قضى يوسف ثلاثة أيام في المشفى، أمدوه بالمحاليل المقوية وأدوية ضبط الضغط والحقن المغذية، حتى استرد صحته، ولكنه لم يسترد كبريائه ولا ثقته بنفسه ولا تلك الأفكار الطموحة. كان يبدو كمهزوم رفع راية الاستسلام.

أخبروه أن بيدرو وزوجته أبلغوا عنه واتهموه بأنه إرهابي "هل حقا اشتركت إيزابيلا في ذلك؟ هل هذه كانت خطتها لتتخلص منه ومن اتفاقهما؟ وهل لهذه الدرجة خشيت من نجاحه وفوزه وانتصاره عليها؟ أم أن المسألة هي الانتقام منه؟!"

جزء كبير من عقله يخبره أن إيزابيلا ليست مشتركة في تلك المكيدة، سمع صوتها المذعور حين سألتهم لماذا يقبضون عليه، لا تستطيع أن تكون بمثل تلك البراعة.

أُذن العاشق لا تخطيء صوت أحبه، وصوتها الحبيب كان خائفا مرتجفا من أجله. لا بد أنه بيدرو، هو من فعل هذا كله. علم بحبهما فأنتقم منه، ولكن ماذا فعل بإيزابيلا؟ إن كان

يتحمل كل ما يحدث له فهو لن يتحمل أي شيء يمسها، كيف لكونه أن تنتظم مجراته وتشرق شموسه وتنير أقماره إن لم يحتوي على كوكبه الدري بنهره العذب وأشجاره الباثقة وينابيعه الدافقة "إيزابيلا يا كوكبي الدافئ ونهر عشقي وأشجار شوقي وينابيع حياتي"..

أعادوا يوسف إلى محبسه بعد أن أتم شفاءه ليستكمل التحقيق. تم نقله إلى المشفى في سرية تامة خوف تجمهر معجبيه وتم إعادته إلى محبسه بنفس السرية، استجوبوه ثانية ولكنه ظل على إنكاره، وكتمانه. فلم يخبرهم بالاتفاق الذي بينه وبين إيزابيلا حفاظا عليها وعلى سمعتها، وأيضا أنكر اشتراكه في أي عمل إرهابي أو التخطيط له.

وكلما أعادوه إلى زنزانته بعد كل تحقيق يجلس وحيدا يفكر في إيزابيلا، لم يكن يعلم ما يدور في الخارج إلا من المحامي الذي وكله صديقه ريكاردو. حرص يوسف على التأكيد على ريكاردو بألا يخبر الشرطة باتفاقه مع إيزابيلا، اعترض ريكاردو في البداية فهو يرى أن إخبارهم بهذا الاتفاق سيقلب القضية رأسا على عقب وسيؤكد كيدية الاتهام من قِبل زوج إيزابيلا. فريكاردو أيضا كان يشك في أن بيدرو هو من دبر لهذا كله. ولكن يوسف رفض، وأخبره أن سمعة إيزابيلا عنده أهم من حياته. فوافق ريكاردو على مضض، وتركه في سجنه وفي قلبه غصه لما حدث لصديقه. ولكنه وكل له محاميا شهيرا لعله يخرجه من تلك الأزمة دون خسائر أو كشف للأسرار.

المحامي أخبر يوسف بكل ما يجرى خارج أسوار سجنه. وطمئنه بأن الرأي العام يضغط بقوة لصالحه، كما أن قضيته أصبحت لها صدى دولي كبير، وهذا كله يصب في صالحه.

_ ولكننا نحتاج إلى دليل، أي دليل يثبت أن تلك الأشياء التي وجدوها عندك تم دسها عليك. هل تتذكر أي شخص غريب دخل بيتك؟ وأن لم يدخل هذا الغريب، فهل تشك في أن بريسيلا هي من وضعت تلك الأشياء؟

هز يوسف رأسه ببطء نافيا أن تفعل بريسيلا هذا أو أن يكون أحد دخل البيت دون علمه، ولكن فجأة تذكر عامل الغاز!!

_ نعم هناك رجل يعمل في صيانة الغاز وجدته يقف في منتصف البيت وعندما سألته من أنت وماذا تفعل هنا أخبرني أنه أتى لمعاينة الغاز وينتظر بريسيلا لتجرب الموقد وتتأكد من سلامته.

_ هل كان يبدو حقا كعامل غاز؟

_ نعم كان يرتدي الزي الخاص بهم، ويضع بطاقة هويتهم على صدره.

_ هل تتذكر الاسم الموجود على تلك البطاقة؟

_ لا. لم أحاول قراءتها ولم التفت إليها، كان ذهني مشغول دائما بعملي.

_ سأسأل عنه، هل يوجد شيئا آخر تتذكره؟

_ لا.

_ حسنا، أراك لاحقا.

جلس ريكاردو يتجرع زجاجة بيرة في صمت وحزن، سجن صديقه واتهامه بتلك التهمة المخيفة كانت صدمة كبيرة له. فهو على يقين من براءته، ولكنه عاجز عن مساعدته. حمل زجاجته وسار حتى النافذة وهو يفكر في طريقة ما يساعد بها صديقة، هو يعلم أن الكشف عن هذا الاتفاق اللعين هو السبيل الوحيد لبراءة يوسف، ولكن هذا الغبي يمنعه، يضحي بنفسه في سبيل حماية تلك المرأة التي كان حبه لها لعنة عليه.

وضع الزجاجة بغضب على المنضدة التي بجواره، وارتدى ملابسه على عجل وخرج من شقته الأنيقة واتصل وهو في سيارته بأحد مرؤوسيه وطلب منه أن يبحث عن عنوان المعهد الذي تعمل فيه إيزابيلا بيدرو، وبعد خمس دقائق أبلغه بالعنوان واسم المعهد. فانطلق بالسيارة في اتجاهه. كان يريد أن يقابل إيزابيلا ليقنعها أن تُظهر هي براءة يوسف وتخبر الشرطة باتفاقها معه، إن كان يوسف يمنعه من أن يخبرهم هو فلتخبرهم إيزابيلا بنفسها، إن كانت حقا تحب يوسف كما أخبره أو كان بداخلها ضمير.

وصل إلى المعهد وترجل من سيارته، وهرول داخله وهو يسأل كل من يقابله عن مكتب إيزابيلا حتى وصل إليه. ولكنه لم يجدها، أخبروه أنها في عطلة مرضية عدة أيام. فعاد إلى سيارته واتجه نحو القصر ولكن قبل أن يصل إليه أوقف سيارته واتصل مرة أخرى بمساعده وطلب منه أن يبحث عن رقم هاتف إيزابيلا. استغرق دقائق طويلة أحسها ريكاردو دهرا، حتى أعاد مساعده الاتصال به وأبلغه برقم

هاتفها والذي وصل إليه عن طريق التواصل مع معهدها.
أخذ ريكاردو الرقم واتصل فورا بإيزابيلا، وانتظر في صبر أن تجيبه ولكنها لم ترد. فأعاد المحاولة مرتين، وفي المرة الثالثة سمع صوتها.

_ من ؟

_ أنا ريكاردو صديق يوسف.

فوجئت إيزابيلا بريكاردو ولكنها تمالكت نفسها وأجابته:

_ أهلاً بك، كيف حالك؟

_ بخير، هل تسمحين بأن نتقابل الآن لنتحدث قليلا؟

_ نتحدث في أي شيء؟

_عن يوسف.

خفق قلبها عندما سمعت أسمه..

_أين؟

_ أي مكان تريدينه.

_أخشى أن يراني زوجي معك، فلنتقابل في مكان خاص.

_حسنا، سأعطيكِ عنوان تذهبين إليه، ستجدينني في انتظارك، هو عنوان شقة صغيرة لي.

ترددت قليلا ولكنها تذكرت ما قاله يوسف عن ريكارد، وبأنه أول من دعمه ووقف بجانبه.

_أرسل لي العنوان في رسالة، هذا أأمن.

_سأرسله الآن وفي انتظارك.

اغلق ريكاردو اتصاله معها ولكنها لم تغلق هاتفها.

انتظرت قليلا حتى جاءتها الرسالة التي بها عنوان شقة ريكاردو، حفظت العنوان في ذاكرتها ثم مسحت الرسالة. كانت تخشى أن يكون زوجها قد وضع هاتفها تحت مراقبته كما فعل لبيت يوسف أو الشرطة الآن وبعد ذلك التحقيق تتنصت على مكالمتها.

بدلت ملابسها وهرعت خارجة من القصر ، وهي ترجو ألا تتعثر بأحد أو يراها بيدرو.

استقلت سيارتها وانطلقت بها نحو العنوان المنشود. كان العنوان في احدى الشقق الفاخرة في حي "ريلخيو" ويبعد عن القصر بحوالي نصف ساعة، كانت بالنسبة لها مسافة طويلة خاصة بعد هذا الوقت الذي قضته في البكاء، تشعر بحزن شديد أثقل كاهلها فكانت تقود وكأنها تجر السيارة جرا.

وصلت إلى العنوان بعد أن سلكت عدة طرق متعرجة تحسبا لأي مراقبة لها، ولقد صدق حدسها حيث كانت هناك سيارة بالفعل تراقبها منذ خرجت من القصر، هذه السيارة تابعة للشرطة حيث أمر خوسيه بوضع مراقبة دقيقة على كل من إيزابيلا وزوجها، ولكن الطرق المتعرجة التي سارت فيها إيزابيلا جعلتها تهرب بالفعل من تلك المراقبة دون أن تشعر فلقد عجز الشرطي المراقب لها عن متابعتها. وصلت إلى عنوان ريكاردو وصعدت الدرج بقلب واجف، لا تعرف ماذا يريد ريكاردو ، ولكنه بالتأكيد شيئا في مصلحة يوسف وهو المهم بالنسبة لها.

وصلت إلى رقم الشقة الذي أخبرها به، ضغطت على زر الجرس ففتح لها ريكاردو سريعا وكأنه كان يقف وراء الباب منتظرا. أشار إليها بالدخول فدخلت ببطء وسارت إلى الداخل دون أن تلتفت إليه.

تجولت بعينيها في الشقة سريعا، شقة فخمة تليق بهذا الملياردير الذي يبدو أنه يعشق كل ما هو ثمين وفخم.

سمعت صوته يقول:

_في الحقيقة لم أتوقع أن توافقي على مقابلتي بهذه البساطة.

التفتت إليه وقالت:

_ولمَ؟

_لأنني صديق يوسف، يوسف الذي دبرتم له مكيدة وألقيتموه في السجن.

قالت في ضيق:

_ لم أدبر له شيئا.

_ بل فعلتما أنتِ وزوجك.

_ إن كنت تظن حقا أنني اشتركت في هذا فلماذا طلبت مقابلتي؟!

_ إن لم تشتركي معه فلماذا إذًا لم تساعدي يوسف حتى الآن؟

تنهدت ثم قالت:

_ليتني أستطيع.

_تستطيعين وأقوالك ممكن أن تبرئه، تلك اللعبة السخيفة التي كنتما تلعبانها معا لو أخبرتِ الشرطة عنها سيفهمون لماذا كان يوسف مختبئا عندك وسيفهمون أن زوجك الغيور هو الذي دس ليوسف تلك الأدلة المزيفة.

_أولاً، لا أستطيع الكشف عن تلك اللعبة السخيفة كما تسميها كما أنك لست متأكدا من أن زوجي هو من فعل هذا بيوسف.

قال بغضب:

_وهل هناك سواه؟ من المستفيد من إلقاء يوسف في السجن واقصاءه عن طريقه؟ وأنتِ لماذا لا تساعدين يوسف؟

قالت بعصبية:

_وهو لماذا لم يساعد نفسه ويخبرهم بكل شيء ليوفر عليَ هذا العذاب وتلك الحيرة؟

_لأنه خائفا عليكِ، حتى أنه توسل إليَ أن أصمت وألا أخبر الشرطة بهذا الاتفاق.

فوجئت بهذا! فرمشت بعينيها في توتر وقالت وهي تفرك يديها بقلق:

_ كيف هذا ولقد كان البند الثاني من اتفاقنا أن يعلن هذا الاتفاق للجميع غير عابئ بما سيجلبه هذا عليَ وعلى زوجي من أضرار وتشهير؟!

_هذا كان في البداية عندما كان العناد والكبرياء يقوده. ولكنه أحبك حقا، لم يكن ليضرك أبدا، استمر في ذلك الاتفاق ليكون معكِ فقط ولم يكن ينوي أن يسيء إليكِ بأي شكل.

والدليل أنه الآن يملك دليل براءته ويرفض أن يقدمه حرصا عليكِ وخوفا على سمعتك.

سالت دمعه حزينة من عينيها، وقالت وهي تجلس في يأس:

_هو الذي تسبب في كل هذا بعناده وتكبره وصفقته اللعينة.

ثم لم تتمالك نفسها فأجهشت في البكاء ووضعت وجهها بين يديها. فجلس ريكاردو قبالتها ونظر إلى الأرض وانتظر أن تنتهي من نوبة البكاء تلك فهو لم يعتد على تلك الأمور ولا يجيد التعامل مع النساء الباكيات، يتعامل فقط مع الجانب المشرق منهن، هذا الجانب المثير الذي يملأ به حياته صخبا وله، أما حزن النساء فلا يبالي به، لو كان يبالي لما أصبح ريكاردو هذا الثري زير النساء، ولكان الآن مثل يوسف ملقى في السجن بسبب امرأة "هذا الحب القاتل والمهلك للرجال متى يتوقفون عنه ويصبحون مثله"! توقف عن أفكاره عندما سمع صوت رنين هاتفها، رفعت هي رأسها وأخرجت من جيب سترتها منديلا مسحت به وجهها وأنفها، ثم فتحت حقيبتها وأمسكت بهاتفها ونظرت إلى المتصل وكان زوجها.. ضغطت زر الاستقبال:

_ نعم بيدرو.

_ أين أنتِ؟!

_ أقابل صديقا طلب مني مساعدته في بحث خاص به.

_ إيزابيلا.. توقفي عن الكذب، لا أظنك في حالة تسمح بمناقشة اي بحوث، أنتِ مع من الآن؟

تنهدت وقالت ببساطة فلم يعد الكذب مجديا ولم تعد لديها القدرة على خوض أي صراع أو حياكة أي كذبة:

_ ريكاردو صديق يوسف

_ هل جننتِ؟! تغامرين بالكثير يا إيزابيلا، توقفي عن عبثك.

_ لا أعبث ولكن كل ما يدور حولي يتحرك في عبث.

_ تعالي إلى القصر فورا.

_ حاضر سأفعل.

وأغلقت الهاتف ونظرت إلى ريكاردو فوجدته ينظر إليها صامتا.

_ أعلم ما تفكر فيه الآن، عدت إلى ظنك بأنني وزوجي مشتركان في الايقاع بيوسف، لا يا ريكاردو، هذا غير صحيح، ولكن بيدرو أقوى مما تظن، ومما كنت أظن أنا. أصبح يفكر بطريقة شيطانية، لست أخاف على نفسي ولكن هناك من أخاف عليهم ويهددني بهم.

_ ويوسف؟ ألا تخافين عليه؟

_ يوسف يستطيع الحصول على البراءة دون مساعدتي. العالم كله يتحدث عنه، ومعجبيه نشطوا للدفاع عنه في كل مكان، هذا بالتأكيد سيكون له تأثير، وقد يؤدي إلى خروجه من تلك الورطة.

_ الأدلة ضدة كثيرة وقوية، لن يستطيع أحد اخراجه من تلك القضية إلا بدحض تلك الأدلة واثبات زيفها.

هنا تذكرت إيزابيلا شيئا وجاءتها فكرة!

اعتدلت في جلستها ومالت للأمام وقالت باهتمام:

_ اسمع يا ريكاردو جاءتني فكرة أظن أنها جيدة. نحن لدينا خيط نستطيع من خلاله زرع الشك في تلك الأدلة. وفي نفس الوقت لن نضطر إلى كشف السر الذي بيني وبين يوسف وأقصد به هذا الاتفاق الغبي.

قال ريكاردو باهتمام:

_ وما هو؟

_ ديفيد

_ من ديفيد؟!

_ أحد طلاب بيدرو وساعده الأيمن. هذه هي اليد التي استخدمها بيدرو للإيقاع بيوسف. لو جعلنا الشرطة تمسك بطرف هذا الخيط ستكتشف وحدها كل شيء.

_ كيف علمتِ بديفيد هذا؟

_ أخبرني بيدرو أنه طلب منه وضع كاميرات لمراقبة يوسف والتأكد مما إذا كنت أخونه معه أم لا.

عاد ريكاردو بظهره إلى الوراء مندهشا:

_ هل كنتِ على علم بأنه كان يراقبكما؟

_ لا، لم أكن أعلم في البداية، ثم أنني طوال العام لم أذهب إلى يوسف. زرته فقط في الشهر الأخير عندما سقط مريضا وهذا الشهر هو الذي أثار غضب بيدرو عندما رآنا معا. ورأى بعض اللحظات الرومانسية التي جمعتنا، لم نتعد

الحدود، ولكن ما رآه وسمعه كان كافيا لإشعال غضبه وعزمه على الانتقام من يوسف والتخلص منه.

_ هل الكاميرات مازالت موجودة في البيت الذي كان يسكنه يوسف؟

_ لا أعرف، ولكن يوم القبض على يوسف هرعت جازعة إلى غرفة بيدرو لأساله فرأيت الشاشة التي يراقب منها بيت يوسف وهي تعمل. معنى هذا أن الكاميرات كانت لا تزال موجودة حتى لحظة القبض على يوسف، ولكن بعد ذلك لا أعلم .

_ هل تعلمي أن وجود هذه الكاميرات دليل قوي على أن هناك من تسلل إلى بيت يوسف لوضعها، وبالتالي يمكن لنفس الشخص أن يتسلل ليدس له تلك الأدلة الزائفة.

_ نعم هذا صحيح، خاصة أن بريسيلا رأت ديفيد عندما وضع تلك الكاميرات

_ ومن بريسيلا؟ وكيف رأته؟ ولماذا لم تدلِ بأقوالها؟

_ بريسيلا هذه هي الخادمة المسؤولة عن يوسف، عينتها لخدمته، هي رأت ديفيد ولكن لم تره يضع الكاميرات بشكل واضح ، كان منتحلا شخصية عامل في شركة الغاز، دخل البيت بحجة فحص توصيلات الغاز ولكنها رأته يخرج من غرفة نوم يوسف فأخبرتني. لم أعرف يومها من هذا وما الذي كان يفعله في غرفة يوسف ولكن فكرت أنه كان يبحث عن شيء ليسرقه، ولأنها أخبرتني أنها لم تجد شيئا ناقصا في الغرفة فلم أهتم، حتى أخبرني بيدرو أنه رآني مع يوسف،

وأخبرني بشأن تلك الكاميرات وأنه علم باتفاقي مع يوسف من خلال كلامي معه.

_ هل زرع كاميرات وأجهزة تنصت معا؟!

_ هذه كاميرات حديثة تنقل الصورة والصوت معا.

_ حسنا، وماذا عن بريسيلا؟ لماذا لم تدلِ بما تعرفه في التحقيقات؟

_ لأن بيدرو هددها، كما أنها بكماء.

رفع ريكاردو حاجبيه دهشه:

_ بكماء؟! يوسف في عزلته لا يرى ولا يسمع أحد، حتى الإنسان الوحيد الذي كان يزوره ويراه لا يتكلم! أي قسوة تلك كيف استطعتِ التفكير في هذا؟!

نظرت بخجل إلى الأرض وقالت:

_ لقد كان يتحداني وكانت منافسة بيننا، وكان يجب أن أضع له العراقيل ليفشل، لا أحد يحنو على خصمه، هذه قواعد الحروب.

_ وكيف اشتعلت بينكما تلك الحروب ومن أشعلها؟!

_ عناده وغروره ونرجسيته، ولكن هذا يطول شرحه وليس وقته الآن. زوجي ينتظرني في البيت، عليك أن تجعل الشرطة بطريقة ما تصل إلى ديفيد، وسينفرط عقد الألغاز وحده، وستظهر براءة يوسف.

_ ولماذا لا تذهبين مباشرة للإدلاء بتلك المعلومات، طالما أن النهاية واحدة في كل الأحوال، سيسقط بيدرو مع ديفيد

وستظهر براءة يوسف وهناك احتمال كبير لأن يعلم الجميع بشأن اتفاقكما؟

قالت في حزن:

_ لأن بيدرو هددني بقتل صديقتي تيلدا، هو يعلم بقوة صداقتنا ومدى تعلقي بها، فهي صديقتي الوحيدة وأعتبرها عائلتي كلها، لا أستطيع المخاطرة بحياتها، لن أسامح نفسي أبدا لو حدث لها مكروه. لهذا فإن السبيل الوحيد هو أن يتم كل شيء دون مساعدتي أو يظهر لبيدرو أنني ساهمت في كشفه.

_ فهمت ولكن هل لي بسؤال أخير!

_ تفضل.

_ ألا تخشين على نفسك من زوجك؟ أعتقد أنكِ في خطر وأنتِ تعيشين مع هذا المجنون في بيت واحد.

قالت بحزن:

_ بيدرو لم يكن هكذا أبدا، كان زوجا وديعا وأستاذا نابغا. حبه لي هو الذي حوله لهذا المجنون الذي يدهس كل شيء في طريقه . أنا السبب في ما أصبح عليه، لا أظنه سيؤذيني ولن أمنعه إن فعل، فأنا المذنبة الحقيقية في كل ما حدث. قلبي هو من تسبب في كل تلك الكوارث.

_ .....

لم ينطق ريكاردو بكلمة، شعر لأول مرة بالتعاطف معها وبهذه المتاهة التي تعيش فيها، وكيف أن عالمها يتهاوى وهي عاجزه عن انقاذه.

_ مضطرة إلى الانصراف الآن، تستطيع أن تصل إلى ديفيد بسهولة من خلال الجامعة، فهو معروف هناك بصلته القوية ببيدرو، ولقد رأيته في مكتب زوجي كثيرا عندما كنت أذهب لزيارته. أعلم أنك ستتصرف جيدا، وستبذل كل جهدك من أجل إنقاذ يوسف، أتمنى فقط أن تكون على حذر وأن تجعل خطواتك غير مرئية حتى لا ينتبه بيدرو لما تفعله فيقطع عليك هذا الخيط. بالتوفيق سيد ريكاردو وبلغ سلامي إلى يوسف وقل له أنني لم أشارك في تلك المؤامرة أبدا، ولن أفعل أبدا ما يسيء إليه.

_ اطمئني سيدتي، سيكون كل شيء على ما يرام، واشكرك على تلك المعلومات وعلى مساعدتك ليوسف.

_ لا تشكرني، فقط انقذ يوسف..

ثم سارت نحو باب الشقة وخرجت منها وعادت دموعها إلى النزف.

عادت إلى القصر فوجدت زوجها في انتظارها، يجلس على مقعده الوثير المفضل في البهو العريق د، اتجهت نحوه وجلست قبالته بهدوء، فلقد فكرت طوال الطريق في طريقة تعاملها مع زوجها، ووجدت أنها في المرحلة القادمة لابد أن تطمئنه من ناحيتها ، وتجعله يهدأ، حتى يتسنى لريكاردو التحرك دون مخاطرة. خاصة أنها الآن تشعر براحة أكبر، لأن هناك من حمل عنها هذا العبء ويسعى لتبرئة يوسف.

تتمنى من قلبها أن يتم انقاذه بقدر ما تتمنى ألا يتم عقاب زوجها، لا تكرهه أبدا، ولا تحب أن تراه مكسورا.

ولكن ماذا تفعل وهو من قام بهذا الفعل الأهوج الذي دمرهم جميعا ؟

_ ما الذي حدث بينك وبين ريكاردو هذا؟

_ لا شيء، هاجمني واتهمني اني تسببت في سجن يوسف، تشاجرت معه وتركته.

_ ولماذا ذهبتِ إليه من الأساس؟

_ خشيت إن رفضت مقابلته يظن أنني مشتركة بالفعل في الايقاع بيوسف.

_ وهل هو يشك في أنا؟

_ في الحقيقة هو في حيرة ومتخبط، ولم يصل إلى شيء، ولم أخبره بشيء.

_ حسنا فعلتي، أتمنى أن تستمري على تعقلك هذا فكلانا يجلس في نفس القارب.

هزت رأسها في صمت ولم تتكلم ولكنها لمحت بريسيلا وهي تخرج من احدى القاعات لتدخل إلى أخرى، فاتجهت بنظرها إلى زوجها وسألته:

_ ما الذي هددت به بريسيلا؟ أرى الخوف بعينيها تلك الأيام وتتجنب الالتقاء بي ودائما تنظر إلى الأرض!

_ لم أهددها، منحتها فقط بعض المال مع أمر بالكتمان.
بريسيلا كيان ضعيف وهش، هي من أخافت نفسها إلى هذه الدرجة.

نظرت إليه في ضيق ولكنها كتمت ضيقها واستأذنت منه لأنها متعبة ونهضت واتجهت إلى غرفتها التي تقضي فيها معظم وقتها منذ تلك الحادثة.

في ذلك الوقت كانت بريسيلا تقوم بتنظيف رفوف المكتبة، انزلت الكتب كلها وأخذت تنظفهم كتابا كتابا وتزيل الأتربة عنهم وعن الرفوف التي يتم وضعها عليهم، كان ذهنها شاردا تعلم بما حدث ولكنها لم تستطع البوح به، رأت انهيار سيدتها من أجل يوسف ولكن سيدها أجبرها على الصمت، بل وعلى تأكيد ادعاءه بأن هناك أشخاص مريبين قد زاروا يوسف.
منحها مبلغا جيدا من المال، ولكنها لم تفرح به، أخذته خوفا منه فقط، فنظرة سيدها كانت تميتها رعبا. أعادت بريسيلا الكتب إلى الرفوف بعد تنظيفها والضيق باديا على ملامحها ولكنها فجأة سمعت صوتا خلفها فالتفتت في فزع فرأت إيزابيلا تقف مستندة إلى باب المكتب تنظر إليها في صمت.

وقفا ينظران إلى بعضهما، ثم أشارت إيزابيلا لبريسيلا بأن تتبعها إلى غرفتها في صمت خشية أن يراها زوجها. تبعتها بريسيلا وقلبها يرتجف، فهي تعلم لماذا تريدها سيدتها وكانت تنتظر تلك المواجهة.

وصلا إلى غرفة إيزابيلا ودلفا إليها وأغلقتها إيزابيلا خلفهما جيدا، ثم التفتت إلى بريسيلا وطلبت منها بهدوء أن تجلس.
وجلست بريسيلا على المقعد القريب من الفراش. فجلست

إيزابيلا قبالتها على حافة الفراش، ثم بدأت معها حوارا بلغة الإشارة التي يجيدها كلاهما:

_ ما قلتهِ في التحقيقات خطأ كبير، أنتِ بأقوالك هذه تؤكدين التهمة على يوسف وأنتِ تعلمين أنه بريء.

_ نعم أخطأت، ولكن سيدى بيدرو أمرني أن أقول هذا، خشيت غضبه.

_ خشيتِ غضبه أم طمعتِ فيما منحه لكِ من مال؟

_ لا لا، ماله أخذته خوفا منه، ولم أنفق منه شيئا، ولا أريده سيدتي أنا لا أحب أن أؤذي أحد خاصة أنتِ وأعلم أن سيدي يوسف غاليا عليكِ وتتعذبين لسجنه.

_ أتفهم خوفك، فأنا مثلك خائفة. وأقدر مشاعرك الطيبة نحوي، ولكن يوسف بريء، ولا يمكن أن نتركه هكذا.

_ ماذا تريدين أن أفعل؟!

كادت إيزابيلا أن تخبرها بأن تذهب إلى الشرطة لتغير أقوالها، ولكن رأت أن هذا سيسبب ضررا كبيرا لها ولبريسيلا وتيلدا، فهي لم تعد تعرف كيف يفكر زوجها بعد هذا التحول الغريب في شخصيته.

_ لا أريدك أن تفعلي شيئا. أريدك ألا تخافي فقط وأن تخبريننى بأي شيء يحدث وأي شيء يأمرك به زوجي، أو عن أي أحد يحاول التواصل معكِ بأي شكل.

قالت لها هذا لأنها خطر في ذهنها أن ريكاردو ربما يحاول أن يصل إليها ويجبرها على الاعتراف أمام الشرطة بكذبها

في أقوالها الأولى. فهي تخشى على بريسيلا فلو علم زوجها أنها مصدر خطر له ربما فكر في التخلص منها.

_ تفضلي بريسيلا إلى عملك ولا تخشي شيئا وأنا أسامحك. ثم عانقتها بلطف.

فدمعت عين بريسيلا تأثرا بهذا العطف الكبير، إيزابيلا هي الإنسان الوحيد الذي عطف عليها بعد والديها؛ لهذا فهي تحبها كثيرا.

خرجت بريسيلا وعادت إلى عملها، فلاذت إيزابيلا بفراشها، وظلت تفكر حتى هجم النوم عليها فأسقطها بين ذراعيه.

وزوجها لا زال يجلس في مقعده مهموم قلق. يشعر بالخوف ويكابر ولا يريد أن يعترف حتى لنفسه بأنه خائف، ولكنه أيضا غاضب. حين جاءته فكرة التخلص من يوسف، لم يكن يتوقع أن القضية ستأخذ هذا الصدى الكبير، أعماه الغضب فلم يفكر جيدا، ولكن لا سبيل أمامه للتراجع، ولن يخسر أمام هذا العربي، هذا ما يجب أن يكون حريصا عليه. حتى الآن الأمور تسير وفق ما يريد بغض النظر عن تلك الحملة الإعلامية للدفاع عن يوسف، وبرغم غضب إيزابيلا وحزنها بعض الوقت وسيكون كل شيء على ما يرام، هذا ما طمئن به نفسه.

الفصل العاشر

جلس ريكاردو في قاعة اجتماعاته مع بعض المستثمرين اليابانيين يتناقشون في أحدى الصفقات، كان الحوار يبدو محتدما ولا يرضي ريكاردو، وكانوا يتحدثون باللغة الانجليزية التي لا يحب ريكاردو أن يتحدث بها مثل جميع الاسبان ولكنه اضطر إلى تعلمها بوصفها لغة عالمية ليتمم صفقاته ولا يحتاج إلى مترجم في كل اجتماع. فهو من رجال الأعمال الناجحين حقا لأنه يهتم دائما بتفاصيل كل شيء، ويعلم كل شيء عن أملاكه وموظفيه ولا يترك شيئا يمر هكذا دون أن يفهمه، ولكنه لم يفهم اليابانيين أبدا، ودائما ما كان يردد بأن الأنسان الياباني لغز من يحاول حله أصابته لعنة الغباء. ولكن ربما أن الإنسان الياباني يرى ريكاردو بأنه الغباء نفسه..

رن هاتف ريكاردو فأمسكه ونظر في اسم المتصل ثم استأذن ليجري مكالمة خاصة ونهض واتجه خارج القاعة. كان المتصل هو فابيان، مرؤوسه وجهاز مخابراته الذي يوكل إليه كل المهام التي تحتاج إلى سرية تامة وذكاء شديد. ولقد وكل إليه مهمة البحث وراء ديفيد ومعرفة كل شيء عنه مع

مراقبته. وأعطاه مهلة ثلاثة أيام فقط ليأتيه بكافة البيانات عنه.

وكان اتصال فابيان بهذا الشأن، أخبر رئيسه في عجالة بكل ما وصل إليه، فشكره ريكاردو وطلب منه أن يكتب كل ما يعرفه عنه بالتفصيل ويأتي به إليه بعد ساعة في مكتبه. وعاد إلى غرفة اجتماعاته وأكمل الاجتماع، ثم انتقل إلى مكتبه وانتظر وصول فابيان. واثناء ذلك اتصل بضابط التحقيق في قضية يوسف والذي أجرى معه تحقيق من قبل وأخذ أقواله بهذا الشأن. طلب منه تحديد موعد لأن لديه معلومات جديدة تخدم القضية، واتفقا على اللقاء مساء في مطعم سيلفانا الذي يملكه ريكاردو.

جاء فابيان محملا بملف صغير به كل المعلومات التي توصل إليها عن ديفيد مساعد بيدرو.

تناول منه ريكاردو الملف في لهفة وأشار له للجلوس ، وأخذ في تصفح الوريقات القليلة التي يحتويها الملف، كانت معلومات هامة جدا، بالتأكيد ستفيد يوسف كثيرا في قضيته وستزرع بذور الشك حول بيدرو ومساعده. رفع ريكاردو رأسه عن الأوراق وقال لفابيان في جدية:

_ هل أنت واثق من معلومة الشقة تلك؟

_ نعم سيدي تمام الثقة.

_ لماذا لا أرى صورة لعقد الشقة هنا؟

_ ماذا؟! وكيف سأحصل عليه!

_ ولماذا ادفع لك كل هذه الأموال؟

تنحنح فابيان في خجل وقال:

_أعتذر لك سيد ريكاردو ولكن ظننت أن عنوان الشقة الجديدة التي يسكن فيها ديفيد ومعرفة اسم مالكها الأول يكفي.

قال ريكاردو بهدوء ولكن بصرامة:

_ لا شيء يكفي، طلبت منك أن تأتيني بكافة المعلومات المتاحة وطبعا كل الاثباتات عليها.

نهض فابيان وهو يقول باضطراب:

_ حسنا سيدي امنحني يومين فقط وسآتيك بعقد الشقة.

_ حسنا، أمامك يومان فقط. تفضل

خرج فابيان وأعاد ريكاردو النظر إلى الملف وهو يبتسم.

في المساء ذهب إلى مطعمة الكبير وجلس إلى مائدته المفضلة والتي خصصها لنفسه دائما فلا يجلس عليها سواه هو وضيوفه. لم يتأخر خوسيه كثيرا وجاء في موعده ولمح ريكاردو وهو يتحدث مع النادل، فاقترب حتى توقف أمام ريكاردو الذي انتبه إليه فقام مرحبا مادا يديه للسلام على خوسيه ثم أشار له للجلوس وهو يقول:

_ كنت أطلب لنا زجاجة ويسكي شيفاز أم تفضل شيء آخر؟

_ لا شكرا، ما طلبته أكثر من رائع.

أشار ريكاردو للنادل بأن يأتي بالمطلوب، وبعد انصراف النادل قال خوسيه بجديه:

_ عفوا سيد ريكاردو لا أملك وقتا كثير، فهلا قلت لي ما هي تلك المعلومات الجديدة التي كلمتني عنها هاتفيا!

أشار ريكاردو إلى الملف الموضوع على الطاولة أمامه والذي لم يكن خوسيه قد انتبه له من قبل، فمد يديه وأخذه، ثم بدأ يقرأ ما فيه في صمت.

وريكاردو ينظر إليه منتظرا وفي عينيه لمعة انتصار.

جاء النادل بزجاجة الشراب وسكب لهما كأسين ثم ترك الزجاجة أمامهما وحياهما وانصرف. تناول ريكاردو كأسه ورشف منه أول رشفه وهو ينظر إلى تعبيرات وجه خوسيه وهو مستمر في قراءة الأوراق حتى انتهى. ثم رفع رأسه ونظر نحو ريكاردو، الذي ابتسم وأشار له ليشرب كأسه. فحمل خوسيه كأسه وأرتشف منه رشفة وقد بدا عليه التفكير ثم قال:

_ هل أنت متأكد من تلك المعلومات؟

_ نعم تمام التأكيد، ودعني أخبرك أمرا آخر.

الخادمة بريسيلا رأت ديفيد مرة وهو منتحلا صفة عامل في شركة الغاز، وقام بزرع كاميرات في بيت يوسف لمراقبته.

قال خوسيه باهتمام:

_هل رأته وهو يفعل هذا؟

_ لا، ولكنه تسلل إلى بيت يوسف بتلك الصفة، ثم أصبحت الكاميرات موجودة، فمن الذي وضعها؟

_ من أخبرك بشأن تلك الكاميرات؟ يوسف؟

_ لا، يوسف لا يعلم عنها شيئا.

_ بريسيلا؟

هز ريكاردو رأسه علامة النفي ثم قال بسرعة:

_ عفوا، لا أستطيع أن أذكر اسم من أخبرني بهذا. هذه مصادري السرية، ولكن الكاميرات ربما لازالت موجودة وعليك البحث عنها وبالتأكيد ستجدها، وستجد شاشة المراقبة في غرفة بيدرو بقصره.

نظر إليه خوسيه بدهشة ثم قال:

_ يبدو أنك تعرف كثير من الأمور سيد ريكاردو

_ نعم، وما أعرفه يبرئ ساحة يوسف أليس كذلك؟

_ لا ليس هذا كافيا.

عقد ريكاردو حاجبيه بغضب وقال بصوت حرص على أن يجعله خافتا حتى لا يلفت إليه الأنظار:

_ كيف هذا؟ أمامك الآن كل شيء بوضوح.

بيدرو استعان بديفيد هذا لمراقبة يوسف بزرع كاميرات مراقبة في بيته، ثم قام بالاستعانة به أيضا لدس تلك الأدلة المزيفة وكان المقابل تلك الشقة الراقية التي منحها بيدرو له. بريسيلا شاهدت ديفيد وهو ينتحل صفة عامل غاز ليدخل بيت يوسف، الأوراق أمامك بها عنوان الشقة الذي قام ديفيد بكتابته بنفسه في ملفه الخاص داخل الجامعة، عندما طلب تغيير بيانات سكنه وهذا فعله منذ عدة أيام فقط، وأمامك اسم مالك هذا المنزل السابق وهو بيدرو طبعا، فكيف لشاب فقير

مثل ديفيد أن يصبح مالكا لشقة ثمنها خمسة ملايين يورو! كما أن رصيده في البنك فجأة أصبح بالآلاف! ولديك في تلك الأوراق أيضا معلومة عن تحقيق تم في جامعة غرناطة بشكل سري عن سرقة لبعض المواد الخطرة والتي اختفت من معمل الجامعة ولم يتم التوصل للسارق ولكن بشكل غريب أغلقت القضية دون أن يعلم أحد لماذا!

ما الذي تريده أكثر من هذا سيد خوسيه؟!

_ أريد أن أقوم بنفسي في البحث وراء تلك المعلومات والتأكد منها. فلا دليل لديك على أي منها، كلها معلومات مكتوبة ومرسلة لا أدلة عليها. كما أن بريسيلا لم تقل في التحقيقات أنها شاهدت ديفيد هذا!

_ بيدرو بالتأكيد هددها، لو عرضت عليها صورة ديفيد ستتذكره وستخبرك بأنها رأته.

نظر إليه خوسيه بتركيز شديد وقال ببطء:

_ لم تخبرك بريسيلا بهذا طبعا، وهي كما نعلم لا تخرج من القصر إلا نادرا جدًا، إذًا من الذي أخبرته بريسيلا بتلك المعلومة والذي بدوره قام بإبلاغك بها؟

عاد ريكاردو بظهره للوراء وتردد في الاجابة، فعاجله خوسيه بالقول:

_ لا داعي لتخبرني، فلقد عرفته.

ثم أردف ببطء وهو يضغط على حروف كلماته:

_ أو بمعنى أدق عرفتها.

نهض وهو يحي ريكاردو بانحناءة خفيفة من رأسه وهم بالانصراف قائلا:

_ لا تخف سيد ريكاردو، سأهتم بالأمر وأشكرك على كل هذا الجهد.

سار خوسيه خارجا من القاعة متأبطا الملف، وريكاردو يتابعه بعينيه حتى غاب عن ناظريه.

جلست إيزابيلا تكتب خطابا ليوسف، كانت تشعر بحاجتها إلى أن تتحدث معه، ولأنها لا تستطيع فالورقة والقلم هما وسيلة لقائهما حتى وهي تعلم أنها لن ترسل تلك الرسالة، اعتادت أن تفعل هذا عندما تشتاق إلى أمها، تكتب لها رسائل تعلم أنها لن تصلها أبدا..

يوسف:

هل تعلم أن هذا هو اليوم الخامس والعشرون لسجنك؟ لا أظنك تعلم، فأنت بدأ سجنك منذ عام كامل، منذ تلك الليلة الحزينة، يوم ودع يوسف يوسف، و يوم أن ودعتني.

هل تعلم أنني اشتقت إليك؟

لا، أنت لا تعلم هذا أيضاً.. هذي الروح التي هامت بك عشقا وتسلقت أشجار كبريائها خوفا وأسقطت رغما عنها ثمار حبك فالتهمته الحياة ومضغت أفراحه ثم لفظته فوق خرائب قلبي..

هل تعلم بأن الأرض توقفت عن الدوران يوم رحيلك؟
والشمس لم أعد أراها!

أيها المجنون القابع في سجن نفسك، كيف تساوى الحب والكره عندك! والخوف والجرأة في قلبك؟!

أنت عالم وحدك، عالم مليء بكل ما حوت عقول البشر من تناقض.

هل تعلم إني أحبك؟ وأن هذا القلب الذي تسكنه قد تهاوى يوم رحيلك، ولم يتبقَ منه سوى بقايا وبعض حنين..

تساقطت دموعها ولم تستطع أن تكمل، أصبحت بدرجة من الضعف تمنعها حتى من أن تكتب ما تشعر به، تخذلها أصابعها وعيناها وعقلها وقلبها، كل ما هو لها تخلى عنها ولم يتبق لها شيء تقاوم به.

أمسكت بالرسالة وكادت أن تمزقها ولكنها توقفت، فهي بعض منها وما تشعر به. طوتها ونهضت ببطء واتجهت إلى الكوميديون لتضعها داخل درجه، ولكنها بمجرد أن وضعتها سمعت دق على باب غرفتها ثم فُتح الباب وظهرت تيلدا. سارعت إليها وعانقتها بشوق، كم كانت تحتاج إلى هذا الدفء وتلك الروح الصدوقة.

_ كيف حالك أميرتنا؟

_الأميرة أسيرة.

_ ماذا تقصدين؟ هل أمرك بيدرو بعدم الخروج من القصر؟

_ بل أنا التي لا أعرف كيف أخرج منه أصبح كل شيء خانق وفقدت القدرة على التفكير والتحرر من سجن الخوف والاحساس بالذنب.

_ تابعت قضية يوسف، يبدو ان موقفه سيئ جدا وتم تحديد موعد المحاكمة في بداية الشهر القادم، ولكن أصدقاءه ومعجبيه والمنظمات الحقوقية والعربية لا تتوقف عن الإدلاء بالتصريحات ضد شرطة غرناطة واتهامها بأنها تتعامل بتحيز ضد يوسف لأنه عربي مسلم. ولكن كما تعلمي إيزابيلا القضاء الإسباني لا يتسامح مع متهمي الإرهاب بالذات ولا يرحمهم. فبلدنا عانت من الإرهاب كثيرا وهذا جعلهم يتشددون في تلك القضايا.

تنهدت إيزابيلا وقالت بحزن:

_نعم تيلدا أعلم هذا. بيدرو ذكي جدا، اختار ليوسف مصيدة قوية وصنع له حفرة عميقة جدا ليدفنه فيها.

_وأنتِ إيزابيلا؟

_أنا ماذا؟

_ ماذا ستفعلين إن أدانوا يوسف في المحاكمة؟

ابتعدت إيزابيلا خطوتين عن تيلدا وسارت حتى وقفت أمام الشرفة وقالت وهي تنظر إلى البعيد بعيون دامعة:

_أنا بين شقي الرحى عزيزتي، أنا ضائعة تماما بين زوجي ويوسف وسمعتي. لكي أنقذ يوسف يجب أن أضحي ببيدرو

وأن أكون لقمة سائغة في فم الصحف ووسائل الإعلام. قد أضطر حينها إلى الاستقالة من عملي والرحيل عن غرناطة.

_إيزابيلا، أعلم أنكِ في موقف صعب ولكن ما فعله بيدرو خطأ كبير والحل الوحيد هو أن يعترف بخطئه ويبرأ يوسف ولا يكون هناك داعيا لكشف الاتفاق بينك وبين يوسف، سيقول بيدرو أنه شعر بالغيرة فقط من يوسف وسعى للتخلص منه.

التفتت إليها إيزابيلا وعلى وجهها ابتسامة ساخرة تناقضت تماما مع تلك الدموع التي تتلألأ في عينيها:

_تتحدثين عن بيدرو وكأنه طفل صغير سنأخذه من يده ونذهب به إلى الشرطة ونأمره أن يعترف فيعترف..!

توقفي عن تلك الأفكار الغريبة يا تيلدا، الأمر أعقد مما تتصورين وبيدرو ليس بتلك السذاجة أبدا.

_ سأتوقف إذا أتيتِ معي الآن.

_ أين؟!

_ نقضي يوما جميلا خارج كل هذا الحزن، تحتاجين إلى إجازة من هذا كله.

_ لا أستطيع، مزاجي لا يسمح بأي نزهة.

_ لن أخرج من هنا بدونك، جئت لهذا الغرض ولن أتركك تغرقين هكذا، هيا بدلي ملابسك ولنخرج عزيزتي.
ستشكرينني غدا على أنني أجبرتك على الخروج.

وظلت تلح عليها وفتحت صوان ملابسها وأخرجت لها فستانا جميلا وبسيطا وطلبت منها أن ترتديه، واستسلمت إيزابيلا في النهاية..

استقلا سيارة تيلدا وانطلقا إلى حيث لا تعلم إيزابيلا.

وطوال الطريق وتيلدا تغني وتتكلم وتمزح وتفعل كل ما يخطر في بالها لتجعل إيزابيلا تبتسم.

وأخيرا وصلا إلى كاتدرائية غرناطة، نظرت إليها إيزابيلا في دهشة!

_هل هذا هو المكان الذي اخترتهِ للنزهة؟!

هزت تيلدا كتفيها بلا مبالاة وهي ترتجل من السيارة وتقول:

_ ما بها؟ هذه من معالم غرناطة الرائعة، هيا انزلي لنقم بجولة فيها.

خرجت إيزابيلا من السيارة والدهشة لم تفارقها، فلم تتوقع أبدا أن يكون هذا المكان هو فكرة تيلدا عن النزهة، فهي تعلم أن النزهات عند تيلدا هي المطاعم والمقاهي والبحر والرحلات البحرية.

ولكنها سارت معها دون أن تنطق.

تجولا قليلا داخل الكاتدرائية التي أقيمت على أنقاض مسجد الحمراء الكبير، بعد سقوط غرناطة وتسليمها من قِبل الخليفة محمد الثاني عشر آخر الخلفاء المسلمين إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة والملكة إيزابيلا الأولى.

وتذكرت حينها ذاك الحوار الذي دار بينها وبين يوسف ذات يوم حول هذا التاريخ وكيف أنه قال لها إنها لم يسمونها إيزابيلا عبثا.

وفجأة أحست بيد تيلدا تجذبها لقاعة جانبية في الكاتدرائية. فنظرت إليها في دهشة ولكن قبل أن تسألها لمحت خوسيه ضابط التحقيق يقف أمامها ويبتسم في هدوء.

_أهلا بكِ سيدتي، تأخرتما.

قالت إيزابيلا وهي ترمق تيلدا بغضب، ولكن تيلدا تظاهرت بأنها تتأمل جدران الكاتدرائية هربا من نظرات إيزابيلا:

_وهل كنت تنتظرنا يا سيد خوسيه؟

أجابها والابتسامة الهادئة لم تفارق شفتيه:

_بالتأكيد فهمتِ الآن أن هذا اللقاء قد تم ترتيبه سيدتي.

_ بينك وبين تيلدا بالطبع.

_ نعم، فهي الوحيدة التي تستطيع إخراجك من القصر دون إثارة أي شبهة.

_حسنا، ماذا تريد؟

_أريد مساعدة يوسف.

_كيف؟ ولماذا؟

_كيف أتركيها الآن، أما لماذا فلأنني أعلم أنه بريء.

_طالما أنك تعلم أنه بريء فما الذي يمنعك من إعلان ذلك وإخراجه من السجن؟!

_هناك أمور أقوى مني، القضية تعدت قدرتي على إيقافها، أحتاج لمساعدتك.

نظرت إليه في حيرة فأردف:

_ أعلم أنكِ من أخبر ريكاردو بشأن مراقبة بيدرو ليوسف عن طريق الكاميرات التي زرعها ديفيد مساعده ولا تسأليننني كيف عرفت هذا، فهو لا يحتاج إلى ذكاء كبير.

_ ما الذي يمنعك من إعلان براءة يوسف؟ أخبرني.

تردد قليلا ثم حسم أمره وقال:

_ سأروي لكِ آخر حوار دار بيني وبين رئيسي لتفهمي الموقف بالكامل:

ذهبت إليه محملا بكل المعلومات التي حصلت عليها من ريكاردو بعد أن قمت بفحصها والبحث في تفاصيلها واكتشفت أشياء أخرى، مثل أن بيدرو تدخل لإيقاف التحقيق في مسألة سرقة مادة التي إن تي من معمل الجامعة، كما أنه منح ديفيد مبلغا كبيرا من المال سحبا على حسابه في البنك. هذا قبل أن يقوم بمنحه تلك الشقة الثمينة. هذا الكرم الكبير من بيدرو نحو ديفيد مع قضية سرقة المادة المتفجرة كل هذا يمثل علامات استفهام قوية ومثيرة للتفكير، وتلك الكاميرات وجدناها بالفعل في البيت الذي كان يعيش فيه يوسف، وهي كاميرات حديثة جدا وبالغة الدقة، تنقل الصوت والصورة ويتم التحكم فيها من خلال شبكة الانترنت. لو أثبتنا أنها متصلة بهاتف بيدرو أو بحاسوبه حينها نكون قد ضيقنا الحلقة حول بيدرو وزرعنا الشك في كل أقواله وفي الأدلة

التي وجدناها في بيت يوسف. فمن يزرع كاميرات كهذه قادر على دس أدلة كالتي وجدناها.

صحيح هذا ليس دليلا مؤكدا، ولكنه سيخلخل الأدلة التي ضد يوسف كلها.

كل هذا أبلغت به رئيسي فجلس مفكرا فترة ثم رفع رأسه إليَ قائلا:

_ تم تحديد موعد محاكمة يوسف، اتهام أستاذ بحجم السيد بيدرو وطالب في جامعة غرناطة هو إحراج كبير للجامعة ولحكومتنا، منذ قليل اتصل بي وزير الداخلية وسألني: "هل أنتم واثقون من المعلومات التي حصلتم عليها ضد الرسام يوسف" احترت ولم أدر ماذا أقول له سوى أننا واثقون مما توصلنا إليه من معلومات وأدلة.

_ ماذا يعني هذا يا سيدي؟

_ يعني أن كل ما أخبرتني به الآن ضعه في أرشيف ذاكرتك وانساه، لن يتم الإعلان عنه الآن ولا في المحاكمة.

هذا ما أمرني به رئيسي يا سيدة إيزابيلا. ولكن ضميري لا يسمح لي أن أفعل هذا أو أن أتجاهل أن يوسف بريء. لهذا منذ تلك اللحظة أنا أعمل منفردا، بعيدا عن وظيفتي أو بتكليف من رؤسائي، ولهذا احتاج إلى مساعدتك لإثبات براءة يوسف، ولست بحاجة لإخبارك أن مساعدتك لي تستلزم سرية كاملة، فمهنتي وحياة يوسف على المحك.

تنهدت إيزابيلا في يأس وقالت:

_ أقدر لك شجاعتك وضميرك اليقظ، ولكن المسألة أصبحت معقدة أكثر مما كنت أظن. فلم تعد المشكلة في بيدرو فقط، بل أصبحت في حكومة إسبانيا كلها. الأمر معقد لدرجة كبيرة سيد خوسيه ولا أظن أنهم سيسمحون لنا بحل هذا التعقيد.

_ نعم لن يسمحون لنا، ولكننا لن نستسلم. ساعديني فقط واتركي تحقيق النتائج لي.

_ حسناً أخبرني ما الذي تريده مني تحديدا؟

_ أريد منكِ فحص هاتف بيدرو وحاسوبه للتأكد من اتصال احدهما بتلك الكاميرات الموجودة في بيت يوسف.

_ ألم تقل أنك وجدت تلك الكاميرات وأصبحت في حوزتك؟

_ وجدتها نعم، ولكنني لم أنزعها من مكانها، هي دليلنا الذي لا نريد أن نفقده.

_ سأفعل ما تريد، هل هناك شيئا آخر؟

_ نعم، بريسيلا نريدها أن تشهد بما رأته وأن تتعرف على ديفيد.

_ هي خائفة من بيدرو ولكن في المحاكمة ربما تقر بكل شيء، ولو أنني أخشى عليها من أمر كهذا فهي لا تتحمل هذا الضغط.

_ حسناً، سأجعل محامي يوسف يستدعيها للشهادة، هناك أمر آخر.

_ ما هو؟

_ علاقتك بيوسف ووجوده في بيتك. هذا لغز لم أفهمه حتى الآن.

_ أسأله هو.

_ سألته ولم يقل سوى أنه كان يريد بعض العزلة ليرسم ويعد لمعرضه الجديد.

_ اكتفي إذا بتلك الإجابة فهي جيدة.

_ ولكنها ليست الحقيقة.

_ نعم ولكنها كافية، السبب الحقيقي لن تستفيد من معرفته ولن يفيد يوسف في قضيته.

نظر خوسيه إلى إيزابيلا بتمعن وكأنه يريد أن يسبر أغوارها ثم قال: هذه الحقيقة لن تفيد يوسف ولكنها ستضرك أنتِ أليس كذلك؟

خفضت رأسها حزنًا:

_ أجل.

_ قد يتم الكشف عنها في المحاكمة، من الأفضل أن تصارحينني بها الآن فلربما استطيع مساعدتك على اخفائها بشكل أكبر.

ترددت إيزابيلا وبدت الحيرة على ملامحها ثم نظرت إلى تيلدا مستنجدة بها ولكن تيلدا ظلت طوال هذا الحوار تنصت فقط ولم تتحدث حتى بعد أن نظرت إليها إيزابيلا، فلم تجد غير أن تحسم أمرها بنفسها وتقول في هدوء:

_ سأخبرك سيد خوسيه.

الفصل الحادي عشر

استمع خوسيه إلى إيزابيلا بتركيز شديد ودهشة أشد ولكنه لم يقاطعها حتى انتهت فظل صامتا برهة كعادته يفكر في ما سمعه ويزنه بعقله، ثم تنهد وقال:

_حسنًا لتخبريني باسم المحامي الذي كتب هذا الاتفاق وعنوانه.

_لِمَ؟!

_يجب أن أتأكد منه ومن أنه لم يخبر أحدا أو يُظهر هذا الاتفاق تحت أي ضغط، أليس هذا ما تريدينه؟

_نعم أريد هذا، ولكن إن كان هذا العقد سيفيد يوسف في قضيته فأنا على استعداد لإظهاره.

نظرت إليها تيلدا بدهشة وهتفت غاضبة:

_إيزابيلا! ما هذا الجنون؟!

_ليس جنوناً يا تيلدا، إسبانيا أصبحت خصماً ليوسف وليس بيدرو فقط، القضية تحتاج لكل الحلول الممكنة ولن أستطيع أن أترك يوسف هكذا.

أوشكت تيلدا أن تقول شيئا ولكن خوسيه سارع قائلا:

_لحظة من فضلكما، لا داعٍ لأن نستبق الأحداث، فلنتحرك وفق المتاح والآمن الآن ولنترك مسألة ذلك العقد لحين أن تنفد منّا كل الحيل. فقط علينا أن نتأكد من أن المحامي لم يُطلع أحد على العقد. وأن يظل محتفظا بهذا السر إلى حين الحاجة إليه.

هزت إيزابيلا رأسها علامة الموافقة ورضت تيلدا بهذا الكلام وتبادلوا جميعا التحية وعادت إيزابيلا وتيلدا إلى السيارة وانطلقا بها عائدين إلى القصر.

وانطلق خوسيه متجها إلى عنوان المحامي الذي أعطته إيزابيلا إياه.

لم تنطق إيزابيلا طوال الطريق بشيء، كان ذهنها شاردا وتفكر في كيفية الوصول لهاتف زوجها وحاسوبه الشخصي فهما أصبحا بالكاد يتكلمان وكلا منهما ينام في غرفة منفصلة ووجودها في غرفة نومه أو غرفة مكتبه ستثير الشك فيها! حتى قاطعت تيلدا حبل أفكارها حين قالت:

_ سأساعدك أنا في مسألة الهاتف والحاسوب تلك.

نظرت إيزابيلا إليها باهتمام:

_ كيف؟

_ سآتي معكِ إلى القصر وانتظر عودة زوجك واطلب الحديث معه، وأشغله بعض الوقت لتتمكني من فتح حاسوبه الشخصي والبحث عن برنامج التحكم في الكاميرات.

_ وماذا عن الهاتف؟ بالتأكيد سيكون في جيبه ولن يتركه مثل الحاسوب.

_ الهاتف سأجعله هو الذي يعطيه لكِ بنفسه.

وابتسمت ابتسامة خبيثة وهي تغمز بعينيها.

ولكن إيزابيلا نظرت إليها في حيرة ولم تفهم.

فأكملت تيلدا موضحة:

_ اليوم أتحدث مع بيدرو وأترك لكِ فرصة البحث في الحاسوب، وغداً سأتصل بكِ على هاتفه بحجة أن هاتفك لا يرد، فيعطي الهاتف لكِ لتحدثيني منه، حينها تستطيعين فحصه دون أن يشك فيكِ.

وصلا إلى القصر وهبطا من السيارة ودلفا إليه وصعدا إلى غرفة إيزابيلا في انتظار عودة بيدرو.

بدلت إيزابيلا ملابسها وطلبت الغداء لها ولتيلدا في الغرفة، وجلسا يتناولانه ولكن ظل ذهن إيزابيلا شاردا وكانت تأكل بلا شهية.

وبعد انتهائهما من الطعام وهما يشربان القهوة سمعا صوت سيارة بيدرو وهي تدخل إلى حديقة القصر، فنهضت تيلدا على عجل وهي تقول:

_ لنبدأ الخطة، كوني مستعدة عزيزتي.

وهبطت تيلدا ببطء ورأت بيدرو وهو يدخل إلى القصر حاملا حاسوبه الشخصي الذي لا يفارقه أبدا لأن كل عمله عليه. لمحها بيدرو فحياها بإماءة بسيطة من رأسه فتقدمت هي إليه وهي تمد يدها للسلام عليه، فسلم عليها وهم بالانصراف فاستوقفته قائلة:

_ هل ممكن أن أتحدث معك قليلا سيد بيدرو؟

_ نعم تفضلي تيلدا.

_ ليس هنا أريد ألا يسمعنا أحد.

نظر إليها لحظة، ثم قال:

_ فلنجلس في الحديقة قليلا لو أحببتِ.

_ نعم الحديقة ستكون ملائمة وبعيدة عن الآذان المنصتة.

ترك بيدرو حقيبة الحاسوب على مقعد مجاور له وأشار إليها لتتقدمه خارج القصر وحيث الحديقة. ألقت هي نظرة خفية على الحاسوب وابتسمت في ارتياح وسارت نحو باب القصر.

سارا معا في الحديقة حتى وصلا إلا الطاولة المطلة على حمام السباحة وجلسا متقابلين وانتظر بيدرو أن تبدأ تيلدا في الكلام:

_ ما أريد أن أحدثك فيه يخص إيزابيلا، إنها تتعذب يا سيد بيدرو وأنت تعاقبها على شيء لم تفعله، فليس لها أي علاقة بيوسف هذا.

قال بغضب مكتوم:

_ لقد سمعت كل شيء بينهما.

_ ربما هي تحبه، ولكنها لم تكن ستتركك أبداً من أجله. لأنها تعلم أن حبها له هو في حقيقته حبًا لموهبته وليس لشخصه. أنت تعلم كيف تفكر إيزابيلا وما الذي يجذبها في الرجال، هي تحترم العقل جدا، ولا تتصرف في أي شيء في حياتها

إلا من هذا المنطلق، أحبتك ولن تحب غيرك. انبهارها المؤقت بيوسف كان بسبب موهبته المتفردة، ببعض الاحتواء منك والفهم لطبيعة هذا الانبهار تستطيع أن تعيدها إليك وتعودا لسابق عهدكما من الحب والتفاهم.

عاد بظهره إلى الوراء في ضيق وحزن وهو يقول:

_ تأخر هذا الكلام كثيرا يا تيلدا، أصبح هناك شرخا كبيرا بيني وبينها. أعتقد أنها تكرهني الآن، وأنا كلما تذكرت حبها له وحوارهما الذي سمعته يشتعل في قلبي حريق.

_ لم يتأخر الوقت أبدا، أظن أن يوسف لن يخرج من السجن كل الأدلة ضده، ليس لإيزابيلا سواك في هذه الحياة، هي تعلم هذا، عليك أن تكون أكثر حنانا معها فهي تحتاجك بشدة الآن.

_ إيزابيلا عنيدة جدا، ربما ما تقولينه صحيح ولكنه يحتاج إلى بعض الوقت بعد أن يتم الحكم على هذا العربي ربما حينها نستطيع أن نبدأ من جديد، ولكن لا أدري هل نستطيع هذا فعلا أم ما انكسر بيننا سنعجز عن إصلاحه!

_ أتركها لي، سأتحدث معها كثيرا وسأبين لها كل النقاط التي لا تراها، وإيزابيلا إمرأة عاقلة جدا لن تترك نفسها تسقط إلى القاع وتخسر كل ما عملت جاهدة لتحقيقه طوال حياتها من أجل اعجاب فارغ بموهبة رسام.

_ حسنًا تيلدا افعلي ما ترينه صوابا.

_ شكرا لك سيد بيدرو، كنت أعلم أن الحديث معك سيكون مجديا جدا.

كانت تيلدا تتحدث مع بيدرو وهي تتمنى أن تنهي إيزابيلا الجزء الخاص بها من الخطة سريعا قبل أن ينفد الكلام بينها وبينه. تعتمد على ذكاء إيزابيلا وقدرتها على التصرف السريع. ولم تخيب إيزابيلا رجائها، بمجرد أن خرجا من القصر هبطت هي الدرج سريعا نحو حاسوب زوجها، وكانت تحمل في يدها حاسوبها والذي يشبه بالضبط حاسوب بيدرو واستبدلتهما تحسبا لرجوع بيدرو المفاجئ قبل أن تتمم عملية الفحص. حصلت على حاسوب بيدرو وهرعت نحو غرفة مكتبها وأغلقتها ورائها وجلست على مقعد المكتب وفتحت الحاسوب أمامها. كانت تعلم أن زوجها يغلق حاسوبه بكلمة سرية، وكانت تعلم ما هي تلك الكلمة. أخبرها بها في احدى لحظاتهما الحميمية ليبرهن لها على حبه كانت كلمة السر هي "إيزابيلا مليكتي" خطر لها أنه استبدل الكلمة بعد غضبه منها، ولكنها شكرت ربها حين وجدت أن الكلمة لم تتغير وحاسوب زوجها أصبح متاحا أمامها تقلب فيه كيفما شاءت. بحثت سريعا عن تطبيق التحكم في الكاميرات ووجدته، فتحت التطبيق وضغطت على زر التشغيل فرأت أمامها بيت يوسف من الداخل. أعادت غلق الكاميرا ثم فتحت الفيديوهات المحملة على الذاكرة والتي تم تخزين كل ما تم التقاطه داخل البيت، شاهدت بعض اللقطات السريعة وتأكدت منها ثم أغلقت كل شيء وحملت الحاسوب واتجهت إلى خارج المكتب لتعيده مكانه وتأخذ حاسوبها وتصعد لغرفتها قبل عودة زوجها. وبالفعل وضعت حاسوب زوجها على المقعد وحملت حاسوبها واتجهت إلى الدرج بخطوات سريعة وقلبها يدق بشدة. وصعدت إلى غرفتها ودخلتها وأغلقت

الباب ورائها وألقت بنفسها على فراشها لتستعيد هدوئها وأنفاسها. فلقد تمت أول خطة بنجاح ولا حاجة لهما للخطة الثانية، فتطبيق التحكم موجود على الحاسوب وليس الهاتف.

انتهت تيلدا من حوارها مع بيدرو وانصرفت وبمجرد ركوبها سيارتها وانطلاقها بها اتصلت بإيزابيلا لتعرف منها هل اتمت مهمتها أم لا. طمأنتها إيزابيلا بأن كل شيء تم بنجاح. وأن على تيلدا أن تتصل هي بخوسيه وتخبره بما وجدته إيزابيلا حتى لا تخاطر بأن يسمعها أحد. تحدثا معا بالشفرة، وهذا ما اتفقا عليه سابقا، فإيزابيلا تشك أن زوجها قد وضع في هاتفها جهازا للتنصت على مكالماتها، وفكرت في تلك اللحظة أن تشتري هاتفا جديدا لا يعلم عنه زوجها شيئا لتستطيع أن تتحدث مع تيلدا وخوسيه بحرية في المرحلة القادمة، وعزمت على أن تنفذ هذا في اليوم التالي.

بعد انصراف تيلدا ظل بيدرو جالسا يفكر في ما قالته. كان يتمنى أن يكون كلامها صحيحا وتعود إيزابيلا إليه فهو حقا يحبها ولكن لأنه يعرف إيزابيلا جيدا ويعرف تيلدا أيضا، شعر أن هناك شيئا مريبا في ذلك الحوار. فتيلدا تتكلم وكأنها لا تعرف بشأن الصفقة التي بين زوجته وهذا العربي! وأيضا لا تعرف أنه هو من دبر تلك المكيدة للإيقاع بيوسف. فهل حقا لم تخبرها إيزابيلا شيئا عن هذا وذاك؟!

كيف يمكن أن يكون هذا حقيقيا وتيلدا تعرف بإعجاب إيزابيلا بهذا الرسام ولم تتعجب حين أخبرها بأنه سمعهما ولم تسأله كيف استمع لهما وأين! واضح أن تيلدا تعلم الكثير بل تعلم كل شيء، ولهذا حوارها معه اليوم كان لهدفاً آخر

غير الذي اظهرته أو تحدثت فيه. ما هو هذا الهدف الآخر؟! هذا ما ظل بيدرو يحاول أن يتوصل إليه من خلال استرجاع كل ما قالته تيلدا وذلك المشهد المريب. وهنا التقط عقله لمحه كان قد رآها ولكنه لم يترجمها لشيء مفهوم وقتها، وهي النظرة الخاطفة التي ألقتها تيلدا على جهاز حاسوبه الذي وضعه على المقعد قبل أن يخرجا إلى الحديقة.

نهض بيدرو وهرول نحو القصر ودخله ونظره مسلط على الحاسوب، وجده مكانه، ولكن ليس بالوضعية التي تركه عليها فزاد شكه.

حمل الحاسوب واتجه إلى غرفة مكتبه وفتحه، لم يجد شيئا مريبا وكل شيء في مكانه! جلس يفكر قليلا وهم بنزع شريحة الكاميرات من الحاسوب ولكن قبل أن يفعل رن هاتفه كان المتحدث أحد أصدقاءه يخبره بموعدهما الذي قد نسيه، فاعتذر له بأنه متعب وأنهى اتصاله معه وقد نسيَ أمر الشريحة وأغلق الحاسوب دون أن ينزعها أو يحذف تطبيق التحكم والتسجيلات.

فتح هاتفه واستمع للاتصال الأخير الذي دار بين إيزابيلا وتيلدا حيث أن أي مكالمة تصدر من هاتف إيزابيلا يتم تسجيلها تلقائيا في هاتفه من خلال شريحة تنصت صغيرة جدا قام بوضعها في هاتفها في الفترة التي كانت فيها مريضة وفي غيبوبة بعد القبض على يوسف.

كان من الواضح أن المكالمة تتم باستخدام كلمات مبهمة وهذا أكد له أن في الأمر خدعة، فالحوار كان حقا مريبا:

_ ها

_ تمام

_ موجود

_ نعم، كل شيء موجود، أخبريه أنتِ.

_ حسنًا، سأراكِ لاحقا.

_ سلام.

****

وصل خوسيه إلى مكتب المحامي، جلس معه واتفقا على كتمان أمر العقد حتى يحين وقت الحاجة إليه، لم يعترض المحامي كثيرا، فهذا الأمر لا يعنيه وطالما أطرافه هم من سيكشفونه في النهاية أو يخفونه فهذا لا شأن له به. ولكن قام خوسيه بتهديده بأن أي محاولة منه لكشف هذا العقد ستعتبر اخلال بأمانة مهنته كمحامي وسيعرضه للمسائلة القانونية وربما سحب رخصته، غضب المحامي من أسلوب التهديد هذا ولكنه لم يملك سوى الرضوخ. ولم يكن في نيته أن يكشفه بأي حال، فهو قد قبض ثمنه من يوسف وانتهي الأمر.

في ذلك الوقت فوجئ بيدرو باتصال من ديفيد يطلب منه ضرورة مقابلته فورا. اتفقا على أن يلتقيا في مكتبه، فحمل بيدرو حاسوبه وهاتفه وخرج من القصر.

وجد ديفيد ينتظره أمام مكتبه في الجامعة، فتح الباب ودعاه للدخول، جلسا متقابلين وانتظر بيدرو أن يتحدث ديفيد الذي بدى عليه الاضطراب الشديد:

_ هناك من يبحث ورائي يا سيدي.

_ ماذا تقصد؟

_ أخبرني العاملون في شئون الطلبة بالجامعة أن هناك من حصل على عنوان شقتي وسأل عني.

_ أي شقة؟!

_ شقتي الجديدة التي منحتها لي.

_ ماذا!! وكيف علم بها العاملون في شئون الطلبة؟!

_ أنا كتبت عنوانها في الملف الخاص بي، طلبت استبدال عنواني القديم بعنواني الجديد.

نظر إليه بيدرو بغضب هائل:

_ ولماذا فعلت هذا؟! ألم تستطع الانتظار عدة أشهر لحين انتهاء تلك القضية؟

زاد اضطراب ديفيد وخوفه وقال بصوت مرتجف:

_ لم أكن أعرف أن لهذا أية أهمية أو أن منه أي خطر، لم أتخيل أن يصلوا إليّ أو يشكوا في من الأساس.

_ أنت غبي يا ديفيد.. غبي.

_ أعلم أنني أخطأت، ولكن هذه أول مرة أخطئ فيها.

قال بيدرو وهو لازال يشتعل غضبا:

_ لا، ليست أول مرة. هل نسيت الكارثة التي قمت بها حين سرقت مادة التي إن تي من معمل الجامعة؟ مع أنك أخبرتني أنك قمت بشرائها من خلال أحد المواقع على الإنترنت.

ولولا تدخلي لوقف التحقيق لكان تم فصلك من الجامعة وكشف كل ما فعلناه. حذرتك يومها من ألا تتغابى مرة أخرى وألا تقوم بشيء دون إخباري به. كنت أظنك أذكى من هذا بكثير، لم أكن أعلم بأنك بهذا الغباء.

كانت كلمات بيدرو تنزل كالمطرقة على رأس ديفيد، لم يتخيل يوما أن يتهمه أستاذه بالغباء وهو الذي سعى دائما لنيل رضاه وتنفيذ كل أوامره بدقة، نعم كذب عليه في مسألة مادة التي إن تي ولكنه فعل هذا لأنه فشل في الحصول عليها عن طريق الانترنت وخشي أن يخبر أستاذه بفشله لهذا لجأ إلى السرقة من معمل الجامعة، فعل كل شيء فقط ليرضيه، لم يكن يهدف لماله أو لشقته، بل لإرضائه والحصول على نظرة التقدير التي يمنحها له بعد كل نجاح في مهمة يوكلها إليه. هو تلميذه النجيب وساعده الأيمن والجامعة كلها تعرف هذا؛ ولهذا هو دائما يشعر بالفخر. أن يكون الساعد الأيمن لهذا العالم الفذ الكبير لهو مفخرة له طوال حياته. ولكن أن يتهمه الآن بالغباء فهذا مالم يحتمله.. ولم يتمالك نفسه فأجهش في البكاء.

فوجئ بيدرو ببكاء ديفيد! هذا الضعف وتلك الخيبة لم يتوقع أن يراهما في الطالب الذي أختاره ليكون مساعده ومأمن أسراره. هذا خطير جدا! فبهذا الشكل لن يصمد ديفيد طويلا إن تعرض لأي تحقيق أو ضغط من أي نوع. واسقط في يد بيدرو ولم يدر ماذا يفعل مع تلك الكارثة البشرية التي تبكي أمامه الآن!

ظل ديفيد يبكى وبيدرو ينظر إليه بغضب واشمئزاز، ثم لينهي هذا الموقف هتف في ديفيد:

_ توقف عن البكاء مثل النساء، ما تفعله لهو مشين جدا.

شعر ديفيد بحرج شديد ولكنه لم يستطع أن يوقف بكائه فكل ما عمل بكد من أجله قد إنهار وفقد احترام سيده كما أنه الآن على وشك القبض عليه، فالشرطة قد وصلت إليه ولن يمرّ وقت طويل قبل أن يسقط في قبضتهم. أي حزن بات يسكن قلبه الآن..! هو من كان يأمل أن يكون عالما كبيرا وشهيرا مثل أستاذه، أصبح الآن متهما في عين الشرطة ومنبوذا في عين أستاذه. وسيعرف الجميع بأنه هو الذي سرق المادة المتفجرة ودس تلك الأدلة المزيفة لهذا الرسام العربي.
سيسجن فترة طويلة جدا وسينتهي مستقبله العلمي كله وحياته معه.

_ قلت لك توقف عن البكاء، قد يدخل أحد الآن ويراك بتلك الحالة المزرية فتزيد الشكوك حولنا. انهض وارحل الآن واحذر من أن تتحدث مع أحد أو تقوم بأي خطوة غبية أخرى هل تفهم؟

هز ديفيد رأسه مستسلما وأزال دموعه وحاول قد استطاعته التماسك وهرع خارجا من غرفة المكتب ثم من الجامعة حتى وصل إلي بيته وجلس في غرفته على فراشه متألما ويشعر بأنه لا يوجد من هو أتعس منه في تلك اللحظة.

جلس بيدرو مهموما والخوف ينهش قلبه، فالحلقة بدأت تضيق عليه وكل شيء على حافة الانهيار ولابد أن يتصرف قبل حدوث الكارثة.

_ ما الذي تفعله يا خوسيه؟!

هكذا بدأ "أنخيل" رئيس مكتب التحقيقات في مخاطبة خوسيه.

_ لا أفعل شيئا مخالفا لمهنتي أو لأمن دولتي.

_ بل تفعل، أمرتك بالتوقف عن التحقيق في تلك القضية والاكتفاء بما وصلت إليه فيها والخاص بإدانة يوسف.

_ هل الهدف يا سيدي هو إدانة يوسف أم الوصول إلى الحقيقة؟!

أشاح أنخيل بيده بعصبية وهو يقول:

_ الهدف هو الحفاظ على إسبانيا من الخارجين على القانون والمسيئين لها، والبحث وراء عالم إسباني بثقل السيد بيدرو وطالب عبقري مثل ديفيد هو إساءة بالغة لدولتنا.

_ مهمتنا هي كشف الحقائق فقط.

_ لصالح من؟ نحن نعمل لصالح إسبانيا فقط، عليك أن تفهم هذا.

_ سيدي أنا لا استطيع أن ألقي بإنسان بريء في السجن.

_ من قال إنه بريء؟ كل ما توصلت إليه لا يثبت براءته. هو فقط يزرع الشك في أدلة إدانته ولكنه لا يبرئه بشكل كامل، ليس كل من كانت الأدلة ضعيفة ضده بريء، وأنت تعلم هذا جيدا.

_ نعم أعلم. ولكن أعلم أيضا أن الشك يفسر لصالح المتهم، وكل تلك الأدلة أضحت مشكوكا فيها وهذا في صالح يوسف وليس ضده.

_ وماذا عن يوسف نفسه وشهرته المفاجئة وسفرياته المريبة لعدة دول في وقت قصير وتنقله المستمر بين مدن اسبانيا ولقاءاته المريبة والمتعددة بأشخاص من كل الجنسيات واستمالته للشباب وذهابه إليهم في كلياتهم ومعاهدهم؟ وتلك الحسابات الوهمية الكثيرة التي قال أنه صنعها من أجل أن يشهر نفسه! هل هذا تفكير فنان؟! هذا رجل محنك وخطير.

_ هو فنان ورجل أعمال ذكي، ما العيب في هذا؟!

_ توقف يا خوسيه، توقف عن النبش في تلك الغابة المتشابكة الأغصان، هذا سيضرنا جميعا.

تفضل إلى مكتبك ولا تجعلني استدعيك هنا ثانية، سأرسل لك قضية أخرى لتتابعها. فمحاكمة يوسف ستعقد بعد غد. ودورنا في قضيته انتهى.

خرج خوسيه من مكتب رئيسه وهو غاضب جداً، فهو لا يرضى بظلم إنسان أبدا، ولم يعمل في تلك المهنة إلا لأنه يحب العدل والحقيقة.

لم يذهب إلى مكتبه كما أمره رئيسه، بل خرج من المبنى كله واتجه إلى سيارته وانطلق بها. وفي الطريق اتصل بتيلدا وطلب منها أن تجمعه بإيزابيلا فورا.

واجتمعوا بالفعل في بيت تيلدا والذي يقع في الطابق العاشر بأحد الأبراج السكنية الجميلة على بعد خمسمائة متر من قصر الحمراء وحديقته الغيداء الرائعة جلسوا ثلاثتهم حول طاولة مستديرة من خشب الماهوجني الثمين.

_نعم سيد خوسيه، ما الأمر الذي طلبتني من أجله بهذه السرعة؟

_أخبريني أولا هل وجدتِ تطبيق التحكم بالكاميرات؟

_نعم وجدته على حاسوب بيدرو وطلبت من تيلدا إخبارك.

_هذا جيد، اسمعيني جيدا سيدة إيزابيلا المحكمة الوطنية العليا حددت ميعاد محاكمة يوسف بعد غد، وكل الأدلة التي جمعتها لتبرئة يوسف لن يتم ارفاقها بالتحقيقات، وأنا عاجز عن مساعدته، ولكنكِ تستطيعين.

_كيف؟

_سأعطيكِ كل ما توصلت إليه، وعليكِ أن تقدميه للمحامي الذي يقوم بالدفاع عن يوسف، وهناك شيئا آخر وهو أنني أريدك أن تطلبي منه أن يطلبك كشاهدة دفاع في المحاكمة.

_ماذا؟!!

_ أعلم أن هذا ثقله عليكِ كبير، ولكن شهادتك مهمة جدا لصالح يوسف.

_ماذا سأقول في تلك الشهادة؟!

_ستقولين ما قاله يوسف وما قلتهِ في التحقيقات بأن يوسف طلب منكما الإقامة في بيتكما ليعد لمعرضه القادم وأنه معجب بكِ، ولكن أريدك أن تضيفي جزء آخر وهو أن زوجك شك في وجود علاقة بينكما وأنه أخبرك بأنه أمر ديفيد بوضع كاميرات داخل البيت لمراقبتكما. هذا فقط ما أريدك أن تقوليه، لن نذكر الاتفاق الذي بينك وبين يوسف وهذا لصالحك طبعا ولعدم التشهير بكِ.

_وهل تظن أن ما تريد مني أن أقوله لن يشهر بي؟ أنت تريدني أن أؤكد على وجود علاقة بيني وبين يوسف، كما تريد مني أن أشهد ضد زوجي.

_لا، لن تقولي أنه من صنع تلك المكيدة ليوسف، ستتحدثين عن الكاميرات فقط. زوج غيور يشك في سلوك زوجته ويراقبها، هذا عادي جدا كما أنه ليس دليلا مؤكدا على أن بيدرو هو الذي أعد تلك المصيدة للإيقاع بيوسف، هو فقط يزرع الشك حول تلك المصيدة.

_سيد خوسيه أنا أريد تبرئة يوسف ولكن في نفس الوقت لا أريد أن يصاب بيدرو بأي ضرر.

_وكيف يكون هذا سيدتي؟ هما كطرفي مقص، لن يتحرك طرف دون تحرك الآخر.

أغمضت إيزابيلا عينيها في ألم، فربتت تيلدا على كتفها بحنان وقالت:

_يمكن تسوية هذا عزيزتي.

قالت بصوت باكي:

_ كيف يا تيلدا؟

_ما رأيكما في الإيقاع بديفيد فقط؟

_الايقاع بديفيد هو إيقاع ببدرو، فهو المحرض له.

_نعم، سيدة إيزابيلا على حق، لا فائدة من محاولة إنقاذ بيدرو طالما أننا نريد إنقاذ يوسف.

_ كيف تريد مني أن أشارك في الإيقاع بزوجي؟

_لماذا إذا بحثتِ في حاسوبه سيدتي؟ ولماذا لم تؤيدي أقواله في التحقيقات!

تنهدت إيزابيلا في حزن ولم ترد. هي في حيرة وتتخبط ولم تعد تعرف ماذا تفعل، فكل اختيار هو حكم بالإعدام عليها.

نهض خوسيه وهو يقول بأسلوب حاسم:

_الحقيقة يا سيدتي هي ما يجب أن ننقذها، وكل من أخطأ عليه أن يتحمل أخطاءه، لا تحاولي أن تميلي نحو أحد توجهي نحو الحقيقة فقط.

قالت تيلدا:

_على الأقل لا تجعلها هي من تقدم تلك المعلومات للمحامي أرسلها لي وأنا سأقدمها له.

قالت إيزابيلا من خلف دموعها:

_لا. بل ارسلها ل ريكاردو فلربما يكون بيدرو قد وضع تيلدا تحت المراقبة وحتى يكون الأمر بعيدا عنها. لا أريد توريط تيلدا في شيء أو تعريضها لأي خطر.

_حسنا سيدة إيزابيلا سأرسل كافة المعلومات التي لديَ لريكاردو وهو بدوره سيعطيها لمحامي يوسف ويخبره برغبتك في استدعائك للشهادة لصالح يوسف. لا يوجد مفر من هذا سيدتي إن كنتِ حقا تريدين إقامة العدل وإظهار الحقيقة.

انهى خوسيه كلامه وانصرف، فأجهشت إيزابيلا في البكاء. ولم تدر تيلدا كيف تخفف عنها فأكتفت بعناقها..

الفصل الثاني عشر

جاء يوم محاكمة يوسف، كان يوما مشهودا للجميع، كل وسائل الإعلام المرئية والمسموعة في معظم بلاد العالم كانت تتابع هذا الحدث الكبير، والجاليات العربية والمنظمات الحقوقية ومعجبي يوسف من مختلفي الأعمار والجنسيات وكذلك المنظمات المتطرفة ضد العرب والكارهة للمسلمين. توجهت أنظار الجميع إلى مبنى المحاكمة في ذلك اليوم.

لم تنم إيزابيلا الليلة السابقة وكذلك بيدرو، ظل كل منهما في غرفته يفكر في ما سيحدث في المحاكمة، والخوف يستبد به فوجئت في الصباح ببيدرو يدق بابها ويخبرها ألا تذهب للمحاكمة بدونه، وانصاعت لأمره.

وفي الموعد المحدد بينهما كان ينتظرها في سيارته، ركبت بجانبه وانطلقا إلى مقر المحاكمة.

كان الطريق حولها مليء بالمتجمهرين والإعلاميين، وكاميرات التصوير فلاشها ينطلق من كل مكان.

عبر بيدرو و إيزابيلا بين الجموع بصعوبة حتى وصلا إلى قاعة المحاكمة وجلسا في مقعدين متجاورين، وكانت القاعة ممتلئة عن آخرها. بعد دقائق دخل يوسف ممسكاً به أحد رجال الشرطة حتى أجلسه في المقعد المخصص له. ثم دخل القاضي ومساعديه وكاتب الجلسة وبدأت المحاكمة..

تلى سكرتير الجلسة بنود الاتهام وتصنيف القضية، ثم نهض المحامي العام وألقى كل ما في جعبته من اتهامات ضد يوسف، ثم جاء دور محامي يوسف ليتكلم. فذكر أنه يملك أدلة على براءة موكله وأنه لديه شهود نفي وأنه سيؤكد للمحاكمة أن تلك القضية قد تم تلفيقها لموكله لأنه عربي. وهنا حدثت جلبة شديدة في قاعة المحكمة، حتى خوسيه نفسه لم يتوقع أن يقول المحامي شيئا كهذا! فالأمر الذي رتب له قائم على التشكيك في الأدلة وإثبات أنها من تلفيق زوج غيور وليس بسبب أصل المتهم وعرقه، هذا الاتهام خطير ويمس جهاز الشرطة نفسه ووزارة الداخلية. فألقى نظرة تساؤل نحو ريكاردو فالمفترض أنه قدم الأدلة التي تدين ديفيد وتوقع بـ بيدرو ولكنه لاحظ الدهشة على وجه ريكاردو أيضاً. ففهم أن المحامي يتصرف من نفسه، فأنتظر ليرى نتيجة هذه اللعبة. أنهى المحامي تقديمته الأولى للقضية وجلس بجوار يوسف، فنهض المدعي العام وطلب أول شهود الإثبات لديه وهو "بيدرو".

نهض بيدرو واتجه إلى المقعد المخصص للشهود بجوار منصة القاضي وتلى القسم الخاص بالشهادة. وبدأت أسئلة المدعي العام له. كانت إجابات بيدرو متزنة جداً وأنهى المدعي العام أسئلته له فتقدم محامي يوسف ليبدأ استجوابه:

_قلت أنك ارتبت في بعض الأشخاص الذين يزورون سيد يوسف، فلماذا لم تطرده من بيتك؟ وما الذي جعلك تظن أنهم إرهابيون؟

_كان الأمر مريباً منذ بدايته، وبوجود تلك الوجوه العربية أصبح مريباً أكثر، وحرصاً مني على أمن إسبانيا لم استطع تجاهل شكي، لهذا قمت بالإبلاغ.

_وماذا كان سيكون موقفك إن لم يكتشفوا شيئا أو يجدوا أي أدلة على أن سيد يوسف مجرم؟

_ نعم هي مغامرة، ولكن خطر تجاهل شكي كانت عواقبه ستكون وخيمة، إسبانيا عانت وتعاني من الإرهاب، ودورنا كمواطنين شرفاء يحتم علينا حمايتها والإبلاغ عن أي شيء مريب يحدث.

_هل تحب العرب سيد بيدرو؟

وقبل أن يجيب بيدرو نهض المدعي العام معترضا، ومؤكدا على أن هذا السؤال ليس له علاقة بالقضية، فمشاعر الشاهد خارج هذا التحقيق.

ولكن المحامي هتف قائلا:

_ سيد بيدرو معروف بكراهيته للعرب، وهذا نص حوار صحفي أجراه منذ ثلاث سنوات في صحيفة لورثون يقول فيه بالنص "يجب طرد العرب من إسبانيا وأوروبا كلها، فهم إرهابيون، وهذا الإرهاب يضر بنا ويؤخرنا كثيرا، وأن ما نستطيع تحقيقه دونهم أضعاف ما نحققه الآن وهم يزاحموننا على الأرض ويخلون بأمننا"

كان المحامي يقرأ النص من صحيفة في يده، وعندما أنهى تلك الفقرة رفع رأسه ملوحاً بالصحيفة وهو يقول:

_عداء سيد بيدرو للعرب واضح جدًا، فكيف يقبل من الأساس أن يستضيف شخص عربي في بيته؟! هذا ما يجب أن نفكر فيه ونسأله لأنفسنا، ونسأله أيضاً للسيد بيدرو.

ثم توجه بنظره إليه منتظرا إجابته، واتجهت كل الأنظار بدورها إليه ولم يجد المحامي العام بداً من الجلوس فالأمر اختلف تماما بعد ظهور هذه الحقيقة والتي تشكك في مصداقية بيدرو وصدق أقواله.

حاول بيدرو ان يتمالك نفسه فبلع ريقه في هدوء وقال:

_نعم كنت أكره العرب، ولكن كما ترى فهذا حوار قديم منذ ثلاث سنوات تقريبا، ولكن منذ عامين تغيرت وجهة نظري وبدأت أشعر بخطأي وتوقفت عن تلك الفكرة المتطرفة، لهذا عندما طلب مني سيد يوسف استضافته وافقت.

_حسنًا سيد بيدرو أخبرنا عن حادثة السرقة التي تمت في جامعة غرناطة.

شعر بيدرو باضطراب حقيقي تلك المرة:

_أي سرقة؟

_سرقة مادة تي إن تي المتفجرة من معمل الجامعة.

_لا أعرف عنها شيئا.

_ألم تكن أنت من أمر بوقف التحقيق فيها؟

قال بيدرو بغضب واضطراب:

_وما سلطتي أنا لأمر بشيء كهذا؟ أنا استاذ في الجامعة ولست رئيسها.

_ولكن تم إيقاف التحقيق بشكل مريب ومفاجئ، تُرى من أمر بهذا؟!

_قلت لك لا أعلم.

_حسناً سيد بيدرو أخبرني كم مرة زرت يوسف في هذا البيت؟

_مرة واحدة فقط عندما ذهبت لأسأله عن هؤلاء الرجال، فأخبرني أنهم أصدقائه وطلب مني عدم إخبار أحد عنهم، وهذا ما أرابني بشدة وجعلني أقرر الإبلاغ عنه.

_متى كانت زيارتك هذه؟

_لا أتذكر.

_هل كنت تعلم بما يدور في هذا البيت؟

_لا، وكيف أعرف؟!

_ألا توجد طريقة ما تخبرك بما يحدث فيه؟

قال بيدرو بعصبية:

_عن ماذا تتحدث وأي طريقة تقصد؟

_هل لديك حاسوب شخصي يا سيد بيدرو؟

بدأ التعرق على وجه بيدرو، فأخرج منديلا من جيبه ومسح به عرقه وهو يقول:

_نعم أملك واحدا.

_هل تسمح بأن تأتي به.

_عفوا ولكنني لم أحضره معي اليوم.

_هل يمكن أن تصفه لنا ومن أي ماركة هو؟

هنا اعترض المحامي العام مرة أخرى ونهض وهو يقول:

_أرى أن السيد اليخادور يضيع وقتنا ووقته في أسئلة لا نفهم الغرض منها ولا مدى أهميتها.

فقال القاضي موجها كلامه للمحامي:

_نعم سيد اليخادور ما أهمية الحاسوب الشخصي للسيد بيدرو في قضيتنا المطروحة اليوم؟

_ عفوا سيدي القاضي، أمهلني فقط بضع دقائق وسيتضح قصدي من تلك الأسئلة.

_حسنًا تفضل أكمل.

عاد المحامي لسؤال بيدرو :

_هل لديك مانع من فحص حاسوبك الشخصي؟

_طبعا لديَ مانع، حاسوبي به كل أبحاثي السرية وأعمالي وأموري الشخصية.

_وهل من تلك الأمور مراقبة يوسف طوال الفترة التي أقامها في بيتك؟

_عن أي مراقبة تتحدث؟

لم يجبه المحامي ولكنه توجه مباشرة نحو منصة القضاء يطلب فحص حاسوب بيدرو الشخصي قائلا أن به دليل على قيام بيدرو بمراقبة يوسف من خلال كاميرات تعمل بالحرارة والصوت، أي لا تسجل إلا إذا سمعت صوتا أو احست بحرارة الأجساد. وأنها تنقل كل ما تسجله إلى حاسوب بيدرو ارتفع صوت همهمة في القاعة فأسكتهم القاضي بالطرق على منصته، ثم توجه بالكلام إلى اليخادور:

_ليس من حقك أن تطلب شيئا كهذا، هذه ملكية شخصية وطالما لم تقدم دليلا مؤكدا على اتهامك فلا استطيع إصدار مثل هذا الأمر.

_عفوا سيدي ولكن لديَ دليل.

_وما هو؟

أخرج المحامي ورقة صغيرة من حقيبته التي تركها على مقعده بجوار مقعد يوسف وقدمها إلى القاضي وهو يقول:

_هذه صورة فاتورة شراء لثلاث كاميرات حديثة وكما ترى سيادتك أن ثمنها باهظا جدا، ولاحظ أيضاً أن اسم المشتري هو ديفيد مساعد السيد بيدرو. وأنا أطلب الآن استصدار أمر من سيادتك بفحص البيت الملحق بقصر السيد بيدرو والذي كان يسكن فيه السيد يوسف مع التحفظ على حاسوب السيد بيدرو وفحصه للبحث عن برنامج التحكم في تلك الكاميرات

والشرائط المسجلة عليه. وأن يتم هذا الآن وفورا لأنني أتهم جهاز الشرطة بالتقاعس والتواطؤ على تلفيق تلك التهم وإهدار حق موكلي في تحريات حقيقية وتحقيق عادل.

نظر القاضي إلى بيدرو فوجده متوتراً جدا ففكر قليلا، ثم أصدر أمره بانتقال هيئة المحكمة وهيئة الادعاء والدفاع إلى قصر بيدرو ومصاحبة عملية تفتيش البيت وفحص الحاسوب فورًا.

بمجرد أن أصدر القاضي أمره، ارتجت قاعة المحكمة بالحركة وهرع الصحفيون والمذيعون لبث الخبر واشتعل الموقف بشكل لم يتوقعه أحد!

انتقلت هيئة القضاء والادعاء والدفاع وبعض رجال الشرطة ومعهم يوسف الذي تم تقييده عند الخروج من القاعة وحتى السيارة التي أركبوه إياها بصعوبة بسبب حالة الهرج التي زادت والتجمهر حوله والهتافات التي رجت الهواء حول مبنى المحاكمة.

سار الموكب المهيب تتبعه عشرات السيارات والذي لم تستطع الشرطة منعهم حتى وصلوا إلى القصر، فأحاطت الشرطة هيئة المحاكمة ويوسف وادخلتهم إلى البيت الصغير واتجه بيدرو وأحد رجال الشرطة ومعهم اليخادور المحامي إلى القصر ليأتيا بحاسوب بيدرو. دخل بيدرو إلى مكتبه وهم في أثره، وقام بفتح احد الأدراج بمفتاح أخرجه من جيبه وأخرج جهاز الحاسوب ببطء وهو يشعر أن الأرض تنزلق من تحت قدميه فلقد تذكر عدم نزعه لتلك الشريحة من حاسوبه والتي بالتأكيد سيكتشفونها. عادوا إلى البيت الصغير

والذي كان القاضي يقف في منتصفه ناظرا لأعلى حيث تم اكتشاف أحد تلك الكاميرات، وضع ضابط الشرطة حاسوب بيدرو على المنضدة أمام القاضي، الذي أمر بفتح الحاسوب. ولكنهم اكتشفوا غلقه برقم سري. فادعى بيدرو عدم تذكر الرقم، هذا كان طوق النجاة الوحيد الذي وجده في عقله. لكن القاضي لم يرض بتلك الإجابة وزاد شكه في بيدرو أكثر. فأمر بإحضار خبير فك شفرات فورا لفتح الحاسوب. مرّ نصف ساعة قبل أن يأتي الخبير، قضاها الجميع في توتر وقلق، والناس متجمهرون خارج قصر بيدرو منتظرين النتيجة، والإعلاميون المتواجدون بالقرب من البيت وداخله يبلغون ما يحدث أولا بأول من خلال هواتفهم، حيث سمح القاضي بتواجد بعض الإعلاميين المحدودين. كان الوقت عصيبا على بيدرو والجميع في حالة ترقب، ويوسف يدعو الله في سره ألا يكون بيدرو قد قام بحذف تطبيق التحكم هذا وكل التسجيلات. فهو فوجئ مثل غيره بمسألة الكاميرات تلك، و شعر أنها أداته للنجاة من تلك المصيدة. كان يوسف في تلك الأيام التي تلت القبض عليه قد اقترب من الله كثيرًا، لأول مرة يشعر بحاجته إلى قرب الله ورحمته. برغم كل شيء تلك الأزمة أفادته بشكل لم يتوقعه، ولهذا لم يعد حزينا كما كان ولم ينهار وأصبح بداخله قوة وصبر استمدهما من صلاته ومناجاته ودعائه لله في جوف الليل.

إيزابيلا وخوسيه وتيلدا وريكاردو جميعهم كانوا يجلسون داخل القصر في ضيافة إيزابيلا كان اجتماعهم غريباً لمن يتأمله، فالمفترض أن إيزابيلا خصما ليوسف في تلك القضية وفي صف زوجها، وريكاردو مع يوسف وفي صفه،

وخوسيه هو ضابط التحقيق في تلك القضية، وتيلدا صديقة إيزابيلا، فكيف يجلس هؤلاء معًا بهذا الانسجام

وذات القلق!

عرفت إيزابيلا أنهم قاموا باستدعاء خبير شفرات، وهي كانت تعلم الرقم السري للحاسوب ولكنها لم تشأ أن تتدخل بهذا الشكل السافر أمام زوجها وأن تقف في وجهه أمام الجميع. لازالت تكن له كثير من الود والاحساس بالذنب لأنه فعل هذا كله من أجلها وبسبب ما فعلته هي. لهذا لاذت بمقعدها تستمع إلى الأخبار التي يبثها التلفاز أولا بأول كطفل خائف وحيد..

جاء خبير الشفرات وحاول فتح الحقيبة و الحاسوب، ومرت الدقائق بطيئة جدا، حتى نجح بعد ساعة كاملة من المحاولات المضنية أن يفتحهما.

نظر الجميع نحو الحقيبة، وسرى خبر فتحها كالنار في الهشيم.

جلس الخبير يبحث في الحاسوب حتى عثر على تطبيق الكاميرات وبعض الفيديوهات المسجلة، وأمام القاضي وجميع الحاضرين رأوا أنفسهم من خلال شاشة الحاسوب لأنهم تركوا الكاميرا التي كانت تعلوهم في منتصف مصباح الغرفة كما هي بعد اكتشافها.

تأكد للجميع الآن أن بيدرو كان بالفعل يقوم بمراقبة يوسف. والسؤال الهام هنا هو "كيف تم زراعة تلك الكاميرات في البيت!"

طفى على السطح طبعا اسم ديفيد، لأن اسمه على فاتورة شراء تلك الكاميرات.

أصدر القاضي أمره باستدعاء ديفيد للتحقيق والتحفظ على حاسوب بيدرو والكاميرات وأن تنعقد المحاكمة في الغد صباحا.

وانفضت الجموع بعودة الموكب مرة أخرى بعد معاناه جديدة للسير بيوسف وسط هذا الحشد من المعجبين والكارهين. كان بيدرو في حالة يرثى لها، سارت الأمور في طريق لم يتوقعه أبدا، عاد إلى القصر بخطوات متثاقلة، وصعد إلى غرفته ولكن من حسن الحظ أن خوسيه وريكاردو كانا قد انصرفا مع الحشد فلم يراهما في قصره.

رفضت تيلدا ترك إيزابيلا فهي تعلم الآن أن بيدرو كالفأر في المصيدة وقد يقوم بأي فعل جنوني ويؤذي إيزابيلا، لهذا أغلقت غرفة إيزابيلا عليهما بالمفتاح ووضعته في درج الكوميديون وهي تقول لإيزابيلا:

_ لن نخرج من تلك الحجرة إلا في الصباح وعندما نتأكد أن بيدرو ذهب إلى المحاكمة والبيت خالٍ من أي خطر. كان من المفروض أن تأتي معي إلى بيتي فهو أأمن لكِ وأفضل من هذا الرعب الذي سنعيش فيه الليلة.

_بيدرو لن يؤذيني أعلم هذا، ولست خائفة منه. رأيت وجهه وهو خارج من قاعة المحاكمة، شعرت بحزن شديد من أجله أنا وهو نعلم الآن أن حبل الأسرار قد انقطع، وكل شيء سيظهر غدا.

_لا شيء أفضل من الحقيقة عزيزتي، مؤلمة ولكنها مريحة.

هزت إيزابيلا رأسها في صمت وغرقت في حزنها حتى نامت دون أن تشعر، أصبح النوم ملاذها الآمن.

جاء الليل وعزم بيدرو على الذهاب إلى ديفيد ليتفقا على ما سيقوله غدا في المحاكمة، لم يعد يثق في ذكاء ديفيد، لهذا كان يجب أن يملي عليه ما سيقوله.

في نفس الوقت كان خوسيه جالسا مع المحامي اليخادور في مكتبه يحادثه عن ما حدث في المحاكمة اليوم ويسأله:

_لماذا وجهت مرافعتك نحو الاضطهاد والتطرف ضد العرب ولم توجهها نحو غيرة بيدرو من يوسف وشكه في وجود علاقة بينهما كما أرسلت لك مع ريكاردو؟! ولماذا لم تقم بطلب إيزابيلا كشاهدة دفاع في القضية؟ ما فعلته عجيب حقا يا سيد اليخادور!

_سيد خوسيه أنا أقوم بالدفاع عن السيد يوسف، ولا أستطيع ان أسير خطوة دون إرادته. عندما تناقشت معه حول المعلومات التي أرسلتها لي، رفض أن أقوم بإدخال السيدة إيزابيلا في القضية بأي شكل، وحذرني من فعل هذا، بل هدد أنه سيعترف على نفسه بالإرهاب إن حاولت استدعائها للشهادة أو للحديث عن شك زوجها فيها.

_ولكنك وجهت المحاكمة نحو الكاميرات وحاسوب بيدرو الذي عليه كل الشرائط المسجلة ليوسف وإيزابيلا معا.

_ لم أتجاهل تلك النقطة، اتصلت بالسيدة إيزابيلا عن طريق السيد ريكاردو وطلبت منها أن تقوم بمحو التسجيلات

الموجودة على الحاسوب والتي تخصها فقط حتى لو تم مصادرة الحاسوب لا يجدون أي شيء يدل على تلك العلاقة فمما فهمته من السيد يوسف هو أن السيدة إيزابيلا لم تزره في البيت إلا عدة مرات في الشهر الأخير فقط.

فمسألة محو تلك الشرائط بهذا الشكل ولأنها محددة التاريخ سهلة. وبالفعل اتصلت بي مساء ليلة المحاكمة وأخبرتني أنها قامت بحذف اللقطات التي تظهر هي فيها. وأخبرتني أيضاً أن هناك تسجيلا لديفيد وهو يتسلل داخل غرفة نوم يوسف ويضع بعض الأشياء، ثم وهو يتسلل إلى مرسمه لوضع مادة التي إن تي طبعا.

والآن الحاسوب بأكمله يخضع إلى الفحص ويتم مراجعة جميع الفيديوهات، وبالتأكيد سيرون ديفيد وهو يقوم بوضع الأدلة التي أدانت يوسف.

_ ولماذا لم تخبر القاضي بوجود هذا الفيديو اليوم؟

_أولاً لأنني لم أره، السيدة إيزابيلا هي التي أخبرتني عنه. ثانياً سيسألني القاضي من أين عرفت بوجود هذا الفيديو؟

الكاميرات وصلت إليها عن طريق فاتورة الشراء والتي استطعت الحصول عليها بسهولة لأن تلك الكاميرات غالية الثمن جدا وبيعها محدود. ولكن كيف سأعرف بما سجلته الكاميرات!

لهذا كان يجب أن أظهر بمظهر من لا يعرف وأتركهم هم يكتشفون هذا وحدهم حتى لا أضطر لذكر اسم السيدة ايزابيلا كما وعدت السيد يوسف.

نظر خوسيه إلى اليخادور بإعجاب شديد وربت على كتفه وهو بقول:

_أنت محامي بارع ومخلص سيد اليخادور، يوسف محظوظ بك والسيد ريكاردو أحسن إذ وكل إليك تلك القضية.

_شكراً لك سيد خوسيه، وأنت رجل شرطة جدير بالاحترام حقاً، وفعلت الكثير. أخبرت يوسف بكل ما فعلته من أجله وبأنك السبب المباشر في قلب تلك القضية رأساً على عقب بهذا الشكل.

ابتسم خوسيه في سعادة وربت على كتف اليخادور ثانيةً ثم نهض وانصرف.

****

دق بيدرو جرس الباب ففتح ديفيد والقلق والتوتر باديا عليه. رأي كل ما حدث ذلك اليوم في محاكمة يوسف، ويعلم أن المصيدة أطبقت عليه هو، وأن قدوم أستاذه الآن لا ينذر بالخير أبدًا.

دخل بيدرو بخطوات متثاقلة وكأن السنوات مرت عليه بثقلها كله مرة واحدة فحطمته.

جلس على أقرب مقعد وهو يتنهد تعبًا، وأشار لديفيد أن يجلس بالقرب منه لأنه يريد أن يحادثه:

_الغد يوم حافل يا ديفيد، فهل أنت مستعد له؟

_ كيف أكون مستعدًا بعد كل ما حدث اليوم؟!

_ نعم أعلم أن ما كشفه هذا المحامي اللعين لم نكن نتوقعه، ولكن لازال هناك أمل إن استطعت أنت أن تتحكم في انفعالاتك ولا تخبرهم إلا بما سأقوله لك الآن.

_ وما هو سيدي؟

_ أنك فعلت كل هذا دون أوامر مني، وضعت الكاميرات وأوصلتها بحاسوبي ودبرت تلك المكيدة ليوسف، كل هذا وأنا لا أعرف ظناً منك أنك تساعدني وتحميني لأنك كنت تخشى عليَ منه.

صُعق ديفيد بما يقوله أستاذه! كيف يريد منه أن يتحمل كل هذا وحده!! كيف يتخلى عنه ويريده أن يتخلى عن حياته وأحلامه ومستقبله!!!

هل هذا جزاءه لأنه كان تلميذا مطيعا لا يعترض ولا يرفض، يسمع فيطيع دون تفكير..

كان ينظر إليه وهو لا يصدق وانتهى بيدرو من كلامه وانتظر تعقيبا من ديفيد، ولكن ديفيد كان في مكان آخر، حيث الغضب والخوف والحزن وكل تلك المشاعر التي تهدم الروح وتغتال العقل وتدمر القلب تجتاح داخله وتُذهب بعقله.

_ ولكنك من أمرني بأن أفعل هذا، كيف تريد مني أن أضع عنقي وحدي تحت المقصلة؟

_ لا تنسَ يا ديفيد أنك ارتكبت تلك الأخطاء التي أودت بنا إلى هذا المأزق الخطير، لو التزمت بما أمرتك به بالضبط ما كنا الآن نجلس تلك الجلسة المؤسفة. واطمئن لن أتركك وحدك، سأبذل قصارى جهدي لإخراجك من تلك القضية.

نهض ديفيد وهو ينظر بذهول إلى أستاذه، الصرح الذي طالما احترمه واحبه وبجله يتهاوى أمام عينيه، يسقط في بئر سحيق قذر.

هذا الرجل الجبان الذي يراه أمامه الآن والذي يطلب منه أن يكون كبش فداء له مستحيل أن يكون هو أستاذه العظيم الذي كان يذوب احتراما أمامه.

لم يشعر بنفسه إلا وهو يصرخ ويقول:

_ لا ..لن تأمرني ثانية، لن أكون عبدًا مرة أخرى لك أو لغيرك، إن كانوا سيلقون بي في السجن سأسحبك معي، لن تخرج منتصراً يا سيدي، فعبدك الذليل لم يعد عبدا.

نظر إليه بيدرو بقسوة وقال محذرا:

_ عد إلى عقلك، وجودي معك في السجن لا فائدة منه لك، ولكن وجودي خارجه سيتيح لي مساعدتك، تعرف أن لي علاقات وصداقات قوية وأملك أموالاً كثيرة. أعدك أنني لن أتركك كثيرا في السجن، ستخرج بعد شهرًا واحدًا. فكر جيدًا قبل أن تتهور.

ما قاله بيدرو زاد من غضب ديفيد، فيوم واحد في السجن هو نهاية لمستقبل كبير كان يرسم خطوطه بجهد ومثابرة طوال حياته، إن كان سينتهي حلمه فلينتهي معه غرور سيده وتسلطه وقيوده.

_ اخرج..

هكذا صرخ ديفيد في وجه بيدرو وهو يشير نحو الباب باحتقار.

لم يصدق بيدرو عينيه.. كيف تحول الكلب الأليف إلى نمر شرس! فنهض وهو يقول بغضب:

_ هل جننت؟!

_ بل عاد إليَ عقلي.

_ لا تزد خسائرك، أنا طوق نجاتك، بدوني ستغرق.

_ نعم سأغرق وستكون غارقاً معي، هذه ترضية كافية لي.

_ مثلي لا يغرق.. نحن نضع أقدامنا على أمثالك من الغرقى ونصعد، وسترى.

ورماه بنظرة ساخرة ثم أعطاه ظهره واتجه نحو الباب.

في تلك اللحظة فقد ديفيد عقله تماما.. اشتعل الغضب داخله وأعماه، فأندفع خلف بيدرو وأحاط عنقه بساعده وضغط عليه بكل قوة.. فوجئ بيدرو بهذا! حاول أن يخلص عنقه من ساعد ديفيد، ولكن الغضب الذي كان يتأجج بداخل ديفيد أمده بقوة مضاعفة وجنون أعمى فلم يستطع بيدرو أن يخلص نفسه منه، وبدأت أنفاسه تتباعد وقواه تخور والمشاهد تغيم أمام عينيه حتى سقط أرضًا..

****

في اليوم التالي انعقدت المحاكمة مرة أخرى، احتشد الناس كما الأمس، ولكن لم يحضر بيدرو ولا ديفيد، كان القاضي قد شاهد اللقطات التي يظهر فيها ديفيد وهو يدس الأدلة في بيت يوسف، وقدم له المحامي مذكرة بها كافة الأدلة التي حصل عليها، ووقف المدعي العام يقول:

_ علمت منذ قليل بخبر قتل الطالب ديفيد فيدل للأستاذ بيدرو ماريو ثم انتحاره بإلقاء نفسه من شرفة منزله. الأمر بات واضحاً سيدي، وبصفتي مدعياً عاما عن تلك القضية أطلب سحب الاتهام المقدم ضد السيد يوسف العلي وأقدم اعتذار رسمي له.

ضجت القاعة بالهتاف والتصفيق ودوى اسم يوسف عاليا داخل وخارج القاعة، دمعت عين يوسف من الفرحة وعانق محاميه وصديقه ريكاردو، والتفت يبحث بعينيه عن إيزابيلا فلم يجدها..

كانت إيزابيلا في منزلها حين جاءها خبر مقتل زوجها بيد ديفيد وانتحاره. كانت صدمة هائلة بالنسبة لها، لم تصدق أن بيدرو مات!! فاندفعت راكضة نحو بيت ديفيد، حاولت تيلدا منعها ولكنها لم تستطع فتبعتها بسيارتها حتى وصلا إلى بيت ديفيد والذي كان ملكا لبيدرو من قبل وتعرفه إيزابيلا.
صعدت الدرج ركضا وكأن الأشباح تطاردها، كانت في حالة انفصال تام عن نفسها وكل ما حولها، ظلت عبارة واحدة فقط تتردد في ذهنها "بيدرو مات"

ما أفجعها من عبارة وما أقساه من ألم..

وصلت إلى باب الشقة فوجدته مفتوحاً والشرطة تملأ المكان لمحت قدم بيدرو الملقي على الأرض فهرعت إليه ولكن بعض أفراد الشرطة امسكوا بها ومنعوها، حاولت التملص منهم، قاومتهم، ضربتهم، صرخت وصرخت.. وفي النهاية سقطت مغشيًا عليها..

****

الأيام التالية كانت تضج بالأخبار والتفاصيل، ولكن لم يعرف أحد بشأن الصفقة التي كانت بين يوسف وإيزابيلا، وتبلورت القضية نحو العنصرية والتطرف، واستغرق الناس في الحديث عنهما، وأقيمت عشرات المؤتمرات والحوارات التليفزيونية والصحفية عن تلك القضية ومدلولاتها وأبعادها السياسية والاجتماعية والدينية. وغفل الجميع عن أنها قضية زوج غيور وامرأة عاشقة وهذا ما أراح يوسف كثيرًا وأسعده أكثر من براءته نفسها. نصحه صديقه ريكاردو وكذلك اليخادور بألا يحاول الاقتراب من إيزابيلا تلك الفترة لأن أعين الصحفيون في كل مكان ويراقبونه ويراقبون قصر إيزابيلا التي ظلت مختفية طوال الفترة التالية لموت زوجها. وتناولت الصحف مدى تعلقها به وكيف كانا منسجمين والعلاقة بينهما ناجحة. ولم يدر أحد بكل ما حدث لأن حول إيزابيلا اصدقاء مخلصون وأرواح نقية، فكتم كل من عرف الحقيقة سرها في قلبه وصمت. تيلدا وبريسيلا وريكاردو وخوسيه و اليخادور ويوسف. الجميع ترك الأمواج تتلاطم كما تريد طالما أنها لم تمس إيزابيلا ويوسف بسوء.

لكن هناك في ذلك القصر الكبير كان يقبع قلب أرهقه الحزن وأذبلته الحياة، كانت إيزابيلا تشعر بالذنب وتحمل نفسها ذنب موت بيدرو، فلولا حبها ليوسف ما كان حدث كل هذا.

أصبحت ترى نفسها كلعنة، تؤذي كل من حولها وكل من أحبتهم. سُجن يوسف لأنه أحبها ومات بيدرو لأنه أحبها.. وكانت تموت هي كل يوم ألف مرة.. فرحت ببراءة يوسف ولكن قلبها كان ممزقا وروحها مبعثرة. موت بيدرو بتلك

الطريقة ذبح فيها كل إحساس بالحياة. لم تعد ترى نفسها تستحق شيئا، بعد أن دمرت في من تحبهم كل شيء.

بعد مرور شهر كامل رن هاتفها، نظرت لاسم المتصل، كان هو.. يوسف.

لم تعرف ماذا تفعل! كانت حقاً تشتاق إليه، لصوته، لنظرة الحب في عينيه، ولكنها لا تستحق السعادة ولا الحياة، هذا ما كانت تردده لنفسها طوال تلك الفترة. قاومت رغبتها في الرد منعت نفسها من ضغط زر استقبال المكالمة. وظل الهاتف يرن، وهي تنظر إليه بعيون دامعة.

صرخت من أعماقها "توقف، فلا يوجد أحياء هنا"

أجهشت في البكاء وسقطت على مقعدها وهي تضع يديها على أذنيها وهي تقول بألم "أرجوك توقف.. أرجوك"

وكان يوسف على الجانب الآخر قد وصل صبره لمنتهاه، وشوقه إليها حد الجنون، كل يوم كان يمر بعيدًا عنها طعنة في روحه، ولم يقدر على البعد أكثر من هذا.

خرج من بيته وهو عازما على مقابلتها، لم يعد في قدح الصبر رشفه. التزم بما نصحه الآخرون لمدة شهر حزين كامل، والآن عليه أن ينفذ ما يأمره به قلبه.

وهو يقود سيارته وينطلق بها نحو قصر إيزابيلا تذكر لقاؤه بخوسيه، حين ذهب إليه ليشكره على مساندته له ومساعيه لإثبات براءته. تذكر ما قاله له وهو يسلم عليه ويهم بالانصراف:

_ أعلم أنك تحب إيزابيلا وهي أيضاً تحبك، ولكن أمنحها بعض الوقت لتستعيد نفسها وقدرتها على الحب، ما مرت به صعب جدًا على أي إمرأة مثلها، وأعلم أنك من أولئك الذين لا يستسلمون حتى ينالوا بغيتهم، لهذا أنصحك بأن تتركها قليلا لتستعيدها يوما ما..

وصل إلى القصر وطلب مقابلتها، قادته بريسيلا إلى الداخل وهي تبتسم له مرحبة، وابتسم لها بدوره وسألها عن حالها، فأشارت له أنها بخير، ثم أشارت له ليجلس على مقعد كبير بجوار المدفئة فالجو كان شديد البرودة والوقت ليلا.

جلس ينظر إلى النار وذهنه شارد، بقدر ما يشتاق إليها بقدر ما هو خائف من رؤيتها.

يخشى أن ترفضه، أي حياة ستكون له بدونها!

وجاءت إيزابيلا..

كانت ترتدي فستانا سماويا، وشعرها مسدلا على ظهرها، ووجهها صافيا بلا مساحيق، كيوم رآها على اليخت.

نهض مستقبلا لها، تلاقت عيناهما، قالتا الكثير فما شعرا بحاجتهما للكلمات، شوق وحنين وحب ولهفة وعتاب وألف آه ترددت..

دخلت بريسيلا تحمل كوبين من الشاي وضعتهما على المنضدة وانصرفت بهدوء، فهذا المكان به عاشقين أرهقهما الشوق، ربما هي لم تجرب الحب يوما ولكنها تعرفه جيدًا كيف لا يعرف الحب من يملك قلبا..!

خرجت بريسيلا وتكلم يوسف بعد طول صمت:

_ كيف حالك إيزابيلا

_ أخبرني أنت عن حالك.

_ اشتاق إليكِ.

_ وأنا اشتاق إليك.

هم بالاقتراب منها وأخذها بين ذراعيه، ولكنها تراجعت خطوة للوراء ثم اتجهت إلى المدفئة واعطته ظهرها وظلت تنظر إلى النار.

هتف باسمها:

_ إيزابيلا..

_ أرجوك توقف، إيزابيلا لم تعد هنا.

_ لا تقولي هذا، أنتِ هي ولن تتغيري أبدا.

_ بل تغيرت، انكسر كل ما بداخلي وتبعثر.. حاولت جمعه وترميمه ثانية ولكنني فعلت هذا بشكل خاطئ، فأصبحت مسخًا مشوهًا لا حياة فيه ولا معنى.

أقترب منها، عانقها من الخلف بقوة، فأغمضت عينيها وسمعته يقول:

_ أنتِ تنتمين لي، لن أتركك أبداً، أنا أيضاً تغيرت لم أعد يوسف هذا المغرور الوقح الأناني، حبي لكِ غيرني، أعاد تشكيلي، معاً سنكون أفضل. ما مر بنا كان لا بد أن يمر لنلتقي..

افلتت من بين يديه بهدوء والتفتت إليه بعين دامعة، تأملته قليلا، ثم ربتت على وجنته وهي تقول:

_ عشقتك منذ أول مرة رأيتك فيها، وكأن قلبي كان في انتظارك. أنت أيها الطفل الكبير عاشق اللعب والمرح لُعبتك أطاحت بنا، أضاعتنا..

أوشك أن يقول شيئا فوضعت يدها على فمه:

_ لا تقل شيئا، أنا أيضا مخطئة شاركتك لعبتك ومرحك، عشت لحظة طفولة مهلكة ولكن اللعبة انتهت بخسارة الجميع، لأننا لعبنا بنرد بلا أرقام.

لا أحد يفوز، لا أحد يخرج من تلك اللعبة منتصرا.

أمسك بيديها التي على فمه فقبلها ثم وضعها على صدره وهو يقول:

_ لا حاجة بنا للعب الآن، كنا أطفالا وحان لنا أن ننضج. أعلم أنكِ ترين في الخسارة عقابا تستحقينه وترضية مناسبة لبيدرو حتى لا يكون وحده الخاسر، ولكن ما تشعرين به من ذنب خطأ، لأني أنا المخطئ. أنا من وضع قواعد تلك اللعبة السخيفة، وأنا من أجبرك على الدخول فيها، أحمل الذنب وحدي، لهذا رضيت بكل ما مر بي من عذاب وألم ووحدة وسجن وخسارة لمجهود عام كامل في الرسم، رضيت بحرماني منكِ ومن حياتي وسمعتي رضيت بموت روحي كل لحظة طوال هذا العام البائس، رضيت بكل هذا الحزن حتى استطعت أن أسامح نفسي، وأخبرها أنها أخطئت ونالت عقابها، وآن الأوان لها أن تستريح. دفعت ما عليَ وعليكِ من دين، لم يعد علينا شيء لندفعه. لم يبق سوى أنا وأنتِ وحبنا. فلا تتركيني وحيدا إيزابيلا، أحتاج إليكِ.

أنظري إليَ.. يوسف الذي أمامك الآن هو من صنع يديكِ، أنتِ وحدك مالكته، وحدك من أعاده للحياة الحقيقية وأبعده عن زيفها.

_ يوسف أنا.. لم يعد بداخلي شيء، خاوية من الداخل، فارغة من كل شيء.

_ معًا سنمتلئ حبًا، معًا سنبدأ الحياة.

_ لا أستطيع الآن، صدقني لا أستطيع.

_ حسنًا، سأنتظرك. ولن أملّ من انتظارك، تلك الدقة التي ستدقينها على بابي يوما ما ستكون هي مفتاح الحياة لي وبداية الطريق... لن أسير بدونك أبدا، لن أرى الحياة ثانية إلا معكِ، فلا تتأخري عليَ. سأنتظرك إيزابيلا لأنكِ حياتي وميلادي وذلك الشعاع الذي أرسله الله لي ليخبرني أنني وحدي لا قيمة لي، أنني لا شيء بدون مشاعر حقيقية وروح أخرى تشاركني وجودي وتكن هي لي معنى الحياة..

تمت بحمد الله

القرّاء الأعزاء..

أحببت في نهاية الرواية أن أتحدث معكم قليلا.

هذه هي روايتي الرابعة بعد "الحزن يرحل سعيدا" "يا مريم أنا اعتذر" "سامينا".

حرصت في كل رواية أن تكون القصة مختلفة والشخصيات لا تشبه بعضها، أحببت أن يكون كل عمل مختلف عن الآخر ولكنني لم أستطع مقاومة إغراء التشويق والطابع البوليسي. وأظن أنني لن أستطيع مقاومته فهو يجعلني أكتب بحماسة أكبر وانفعال حقيقي مع الأحداث وكأنني فيها. أتمنى أن يعجبكم ما أكتب وأن أعرف رأيكم فيه، وإن كانت هناك أي ملاحظات أو نقد فأنا أرحب بهم جدًا. وهذا بريدي الإلكتروني للتواصل:

smsmayossef504@gmail.com